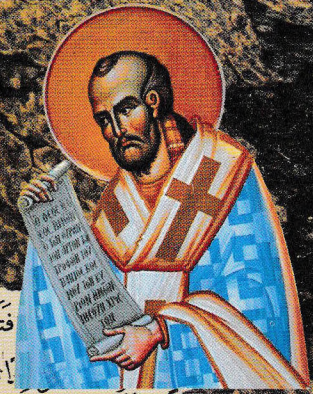


شرح القديس يوحنا ذهبى الفم



فَتَمِيمُوا قَرَسِي حَتَّى تَتَكَبَّرُوا فِكْرًا وَاحِدًا وَلَكُم مَحَبَّةٌ وَاحِدَةٌ بِنَفْسٍ
 ١٠؛ لَا أَشَيْئًا يَحْزُبُ أَوْ يَعْجِبُ بِلِ تَوَاضِعِ حَاسِبِينَ بَعْضُكُمُ الْبَعْضَ
 أَنْتُمْ أَنْفُسِكُمْ. لَا تَنْظُرُوا كُلَّ وَاحِدٍ إِلَى مَا هُوَ لِنَفْسِهِ بَلْ كُلَّ وَاحِدٍ إِلَى مَا هُوَ
 لِغَيْرِهِ. فَمَلِكُنْ فِكْرًا هَذَا الْفِكْرَ الَّذِي فِي الْمَسِيحِ يَسُوعَ أَيْضًا الَّذِي إِذْ كَانَ
 رُوحَ اللَّهِ لَمْ يَحْسِبْ خُلْسَةً أَنْ يَكُونَ مُعَادِلًا لِلَّهِ ١١ لَكِنَّهُ أَخَلَّى نَفْسَهُ أَخْتِصَامًا عَبْدًا صَائِرًا فِي
 النَّاسِ ١٢. وَإِذْ وَجَدَ فِي الْهَيْئَةِ كَانَسَانَ وَضَعَ نَفْسَهُ وَأَطَاعَ حَتَّى الْمَوْتِ مَوْتَ الصَّالِبِ.
 لِذَلِكَ رَفَعَهُ اللَّهُ أَيْضًا وَأَعْطَاهُ أَسْمَاءَ فَوْقَ كُلِّ اسْمٍ ١٣ الْكِي يَحْبُو بِاسْمِ يَسُوعَ كُلُّ رَكْبَةٍ مِمَّنْ
 فِي السَّمَاءِ وَمَنْ عَلَى الْأَرْضِ وَمَنْ تَحْتَ الْأَرْضِ ١٤ وَيُعْتَرَفُ كُلُّ لِسَانٍ أَنَّ يَسُوعَ الْمَسِيحَ
 رَبَّنَا وَنَسْتَعْبُدُ اللَّهَ الْآبَ

إِذَا يَا أَحِبَّائِي كَمَا أَطَعْتُمْ كُلَّ حِينٍ لَيْسَ كَمَا فِي حُضُورِي فَقَطْ بَلِ الْآنَ بِالْأَمَانَةِ
 تَلْفِظِي تَمِيمُوا خَلَاصَكُمْ بِخَوْفٍ وَرِعَالَةٍ ١٥ لِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَامِلُ فِيكُمْ أَنْ تُرِيدُوا وَإِنْ
 تَجَلَّ الْمَسْرَةَ ١٦. افْعَلُوا كُلَّ شَيْءٍ بِلا دَمْدَمَةٍ وَلَا مُجَادَلَةٍ ١٧ الْكِي تَكُونُوا بِلا لَوْمَةٍ
 سَطَا لِأَنَّ اللَّهَ بِلا عَيْبٍ فِي وَسْطِ جِبِلِّ مَعُوجٍ وَمَلْتُوا نَضِيبُونَ بَيْنَهُمْ كَانُورًا فِي الْعَالَمِ
 لَا وَالْآنَ تَعْبَتُ بَاهُ
 وَمِنْ كَيْتِ اسْمِكُمْ أَيْضًا عَلَى يَدَيْ إِهْمَانِكُمْ وَجِدْمَتِهِ
 عَيْنِهِ كُونُوا أَنْتُمْ مَسْرُورِينَ أَيْضًا وَأَفْرَحُوا
 عَلَى أَنْيِ أَرْجُو فِي الرَّبِّ يَسُوعَ مَنْ أَرْسَلَ

الرسالة إلى أهل فيلاديا



الرسالة إلى أهل

فيلبي

شرح القديس

يوحنا ذهبي الفم

الرسالة إلى أهل فيليبي
(شرح القديس يوحنا ذهبي الفم)

الطبعة : الأولى ٢٠٠٩

إعداد : نشأت مرجان

الناشر : دار النشر الأسقفية ٣٠ ش شبرا- القاهرة- مصر .
ت : ٢٥٧٥٥٣١٦ (٠٢٠٢) - ٢٥٧٦٦٧٠٢ (٠٢٠٢)
الموقع الإلكتروني : www.darelnashr.com

المطبعة: بيت الفن . ت: ٢٢٤٤٣٥٤٦
تصميم غلاف: سيلفر ستار

رقم الإيداع: ٢٤١٤٠ / ٢٠٠٨

الترقيم الدولي: 977-5884-88-8

جميع حقوق الطبع محفوظة لدار النشر الأسقفية. فلا يجوز الاقتباس أو إعادة النشر والطبع للكتاب بدون إذن الناشر، وللناشر وحده حق إعادة الطبع

المقدمة

١- فيلبي هي مدينة مكدوننية^١، مدينة كولونية كقول لوقا الرسول هنا. في فيلبي تحولت إلى الإيمان امرأة غير عادية في تقواها وانتباه ذهنها. فيها آمن حافظ السجن. فيها جُلد (ضُرب بالعصي) بولس وسبيلا. فيها طلب منهم الولاة الرحيل وكانوا خائفين منهم، وقد بدأت الكرازة فيها بداية ممتازة. وبولس نفسه شهد لهم بشهادات كثيرة وعالية القدر داعياً إياهم إكليله، وأنهم عانوا كثيراً، لأنه قال «لأنه وهب لكم لأجل المسيح لا أن تؤمنوا به فقط، بل أيضاً أن تتألموا لأجله» (في ١: ٢٩). لكن عندما كتب لهم هذه الرسالة كان في قيود، لذلك يقول «حتى إن وثقي صارت ظاهرة في المسيح في كل دار الولاية» (في ١: ١٣)، داعياً قصر نيرون دار الولاية.

لكن ظهور هذه الوثق التي تحدث عنها كان مفيداً، وهذا ما بينه تيموثاوس بقوله «في احتجاجي الأول لم يحضر معي أحد، بل الجميع تركوني. لا يُحسب عليهم. ولكن الرب وقف معي وقواني» (٢ تي ٤: ١٦، ١٧). إذاً فهو يتحدث عن القيود التي كان فيها قبل هذا الاحتجاج، لأن تيموثاوس لم يكن حاضراً آنذاك، وهذا أمر واضح، لأنه يقول «في احتجاجي الأول لم يحضر معي أحد»، وهو بكتابته هذه كان

١- كولونية أي مستعمرة حيث هجرت الحكومة الرومانية رعايا رومان إليها، كان لمواطنيها لهم كافة حقوق المواطن الروماني.

يخبر تيموثاوس عنها ، ولو كان تيموثاوس يعلم ما كان قد كتب له هكذا .
لكن تيموثاوس كان حاضراً معه عندما كتب هذه الرسالة . وهو يبيِّن
هذا بما يقوله «على أنني أرجو في الرب يسوع أن أرسل إليكم سريعاً
تيموثاوس» (في ٢ : ١٩) .

وأيضاً قوله «هذا أرجو أن أرسله (أي يرسل تيموثاوس) أول ما
أرى أحوالي حالاً» (في ٢ : ٢٣) . لأنه كان قد تحرر من القيود ثم ألقى
القبض عليه مرة أخرى . لكن لو أنه يقول «نعم وأنا انسكب على ذبيحة
إيمانكم وخدمته» (في ٢ : ١٧) ، فهذا ليس كأنه سيتحقق الآن ، بقدر ما
يقصد أن يقول : وعندما يحدث هذا «أنا أسر وأفرح» مخلصاً إياهم من
الغم الذي أصابهم لقيوده . لأن كون أنه لم يكن على وشك الموت في ذلك
الوقت ، واضح من قوله «وأثق بالرب أنني أيضاً سأأتي إليكم سريعاً»
(في ٢ : ٢٤) ، وأيضاً «وإن لي هذه الثقة أعلم أنني سأبقى معكم جميعاً» .

٢- لكن أهل فيلبي أرسلوا له أبفروتس ليحمل له بعض المال ويعرف
أحواله لأنهم كانوا يحبون الرسول جداً . فلأجل ما أرسلوه أسمعته نفسه
يقول «قد استوفيت كل شيء . قد امتلأت إذ قبلت من أبفروتس
الأشياء التي من عندكم» (في ٤ : ١٨) ، لأن كونهم أرسلوا أيضاً ليعرفوا
هذا (أي أحواله) ، فهذا قد بيَّنه في الحال في مطلع رسالته كاتباً عن
أموره قائلاً «ثم أريد أن تعلموا أيها الإخوة أن أموري قد آلت أكثر إلى
تقدم الإنجيل» (في ١ : ١٢) ، أيضاً (قوله) «على أنني أرجو في الرب يسوع
أن أرسل إليكم سريعاً تيموثاوس لكي أيضاً تطيب نفسي إذ عرفت
أحوالكم» (في ٢ : ١٩) .

إن عبارة «لكي أيضاً» هي كما لو كان يقصد : لأنكم أرسلتم لكي تظمنوا وتعلموا الأمور المختصة بي ، كذلك «أنا أيضاً» (أرسلت تيموثاوس) لكي تطيب نفسي إذا عرفت أحوالكم.

لذلك من حيث إنهم ظلوا فترة طويلة دون إرسال رسالة للاطمئنان أو معونة مادية لمساعدته ، وهذا يبرهنه بقوله «ثم إنني فرحت بالرب جداً لأنكم الآن قد أزهروا أيضاً مرة اعتناؤكم بي الذي كنتم تعتنونوه ولكن لم تكن لكم فرصة» (في ٤ : ١٠) . ، وبعد ذلك سمعوا أنه سُجن . لأنه إن كانوا قد سمعوا عن أبفروتس أنه كان مريضاً وهو شخص لم يكن في شهرة بولس ، فكم بالأولى عندما سمعوا عن بولس ، وكان من المنطقي أن ينزعجوا لهذا الأمر ، لذلك منحهم تعزية عظيمة من جهة قيوده في مطلع رسالته إليهم ، مبيناً لهم أنه ينبغي عليهم ألا ينزعجوا ، بل عليهم أن يفرحوا أيضاً . ثم قدم لهم بعد ذلك نصيحة عن الوفاق (فيما بينهم) والتواضع ، معلماً إياهم أن في هذا يكمن أمانهم ، وأنه بذلك يمكنهم هزيمة أعدائهم (الشياطين) بسهولة ، لأن الأمر المؤلم لمعلمكم ليس أن يكونوا في قيود ، بل الذي يؤلمهم هو عدم اتفاق تلاميذهم . لأن القيود تجلب مزيداً من التقدم للإنجيل ، بينما عدم الاتفاق يشنت الشمل .

٣- لذلك بعد أن نصحهم أن يكونوا ذوي رأي واحد وأظهر لهم أن الاتفاق (اتحاد الآراء) يأتي من التواضع ، وجه بعد ذلك سهماً إلى أولئك اليهود الذين كانوا يفسدون التعليم في كل موضع تحت هيئة مسيحية ، داعياً إياهم «كلاباً» ، أو «فعلة الشر» (في ٣ : ٢) ، ومعطياً لأهل فيلبّي نصيحة بتحاشيهم ، ومعلماً لهم مَنْ (من المعلمين) يحق الإصغاء إليهم ،

وتحدث مطولاً عن مواضيع أخلاقية داعياً إياهم إلى النظام (الترتيب)، وأن يعودوا إلى رشدهم بقوله «الرب قريب» (في ٤ : ٥)، وهو يذكر أيضاً بحكمته المعتادة ما قد أرسل، وبعد ذلك يمنحهم تعزية فائضة.

لكن يبدو أن بولس الرسول العظيم يعطيهم إكراماً خاصاً بكتابتته لهم، ولم يوبخهم أبداً في أي موضع من الرسالة، الأمر الذي يدل على فضيلتهم، إذ أنهم لم يعطوا فرصة لمعلمهم حتى يوبخهم، ولهذا يكتب لهم ليس على سبيل التوبيخ، بل على سبيل التشجيع.

وكما قلت في البداية أيضاً إن هذه المدينة قد أظهرت استعداداً عظيماً للإيمان، إذ أن السجن نفسه (الذي أنتم تعلمون أن عمله مملوء شراً) بسبب معجزة واحدة هرع إليهما في الحال واعتمد هو وكل بيته. لأن المعجزة التي تمت رآها هو بمفرده، لكن الفائدة التي جناها لم يجنهما بمفرده، بل زوجته وكل أسرته معه. بل إن الولاة الذين جلدوهما، فعلوا هذا لمجرد دافع فجائي أكثر منه واقعاً شريراً، لأنهم أرسلوا في الحال لإطلاق سراحهما، ولأنهم خافوا بعد ذلك..

والرسول يشهد لهم، ليس فقط من جهة الإيمان أو في المخاطر، بل أيضاً في فعل الخير إذ يقول «وأنتم أيضاً تعلمون أيها الفيليبويون أنه في بداية الإنجيل، لما خرجت من مكدونية لم تشاركني كنيسة واحدة في حساب العطاء والأخذ إلا أنتم وحدكم، فإنكم في تسالونيكي أيضاً أرسلتم إليّ مرة ومرتين لحاجتي» (في ٤ : ١٥، ١٦)، وقد حدث هذا في الوقت الذي لم تشاركه فيه كنيسة أخرى.

وكذلك فإن انقطاعهم المؤقت عنه لم يكن بإرادتهم، بل لعدم توفر الفرصة فيقول «الآن قد أزهراً أيضاً مرة اعتناؤكم بي الذي كنتم تعتنونوه ولكن لم تكن لكم فرصة» (في ٤: ١٠). ليتنا أيضاً نعرف هذه الأشياء ولنا نماذج كثيرة مع الحب الذي يحمله لهم - لأن كونه يحبهم جداً يظهر في قوله «لأنه ليس لي أحد آخر نظير نفسي يهتم بأحوالكم بإخلاص» (في ٢: ٢٠)، وأيضاً «لأنني حافظكم في قلبي وفي وثقي» (في ١: ٧).

٤- لذلك إذ نعرف هذه الأشياء نُظهر أنفسنا مستحقين لمثل هذه الأمثلة بأن نكون مستعدين لأن نتألم لأجل المسيح. لكن الآن لم يعد يوجد اضطهاد بعد. لذلك إذ لم يعد هناك بديل فلننقُتد باجتهادهم في فعل الخير ولا نظن أننا لو عملناه مرة أو مرتين أننا قد صنعنا كل شيء. لأنه ينبغي لنا أن نصنع هذا على مدى كل حياتنا. لأنه ليس لنا أن نرضي الله لمرة واحدة بل دوماً. إن الذي يشترك في سباق الجري بعد أن يجري عشرة أميال ثم يهمل الميل الأخير، فإنه سيخسر كل شيء، ونحن لو بدأنا بأعمال حسنة وخرنا بعد ذلك فإننا نخسر ونفسد كل شيء. استمع لذلك النصح المفيد الذي يقول «لا تدع الرحمة والحق يتركانك» (أم ٣: ٣). إنه لم يقل أن تفعل هذا مرة ولا مرتين، بل تفعله دوماً إذ قال «لا تدعهما يتركانك» ولم يقل «لا تتركهما» بل قال «لا تدعهما يتركانك» مبيناً أننا في احتياج إليهما، وليس هما في احتياج إلينا، ويعلمنا أنه يلزمنا أن نبذل كل جهد لنحفظهما معاً. وهو يقول أيضاً «تقلدهما على عنقك» (تابع أم ٣: ٣). لأنه كما أن أطفال الأغنياء لديهم قلادة من الذهب حول عنقهم ولا يخلعونها أبداً، لأنها تُظهر شرف نسبهم، كذلك

ينبغي لنا نحن أيضاً أن نلبس الرحمة دائماً، مظهرين أننا أولاد من هو عطوف ومن هو «يشرق بشمسه على الأشرار والصالحين» (مت ٥ : ٤٥).
ستقول لي: لكن غير المؤمنين لا يصدقون هذا.

لذلك أنا أقول بأنهم بناء على ذلك سيصدقون لو عملنا هذه الأعمال (الرحيمة). لو رأوا أننا نشفق على الكل وسجلنا أنفسنا تلاميذ لمعلمنا (المسيح) سيعرفون أننا نتصرف هكذا إقتداءً به. لأنه يقول «الرحمة والحق (حرفياً الإيمان الحقيقي)». وحسناً قال الحقيقي لأنه لا يريد أن يكون من اغتصاب وغش. لأن هذا لم يكن «إيماناً» وهذا لم يكن حقاً. لأن الذي ينهب ينبغي حتماً أن يكذب ويُقسم بنفسه كذباً. لذلك يقول: لا تفعل هذا أنت، بل ليكن لك إيمان مع محبتك.

لنلبس هذه القلادة ولنعمل سلسلة ذهبية، أقصد (عمل) الرحمة لنفوسنا طالما نحن هنا، لأنه إذا مضى هذا الدهر لا يمكننا استخدامها بعد. ولماذا؟ لأنه لا يوجد هناك فقير ولا غني ولا يوجد بعد عوز هناك. وبينما نحن أطفال (روحيون) ليتنا لا نسلب أنفسنا من هذه القلادة، لأنه كما مع الأطفال، عندما يصيرون رجالاً، تؤخذ منهم هذه القلادات، ويتقدمون لنوع آخر، حلية أخرى، وكذلك أيضاً يكون الأمر معنا، لن يكون هناك بعد تصدق بالمال، بل تصدق بنوع آخر أكثر نبلاً^٢.

ليتنا إذاً لا نحرم نفوسنا من هذا، ولنجعل أنفسنا تظهر جميلة. عظيمة هي الصدقة وجميلة ومكرمة، عظيمة تلك الهبة لكن الصلاح

٢- ربما يقصد هنا ما يقدمه القديسون في السماء من صلوات لمن يتشفع بهم في الأرض

أعظم. لو تعملنا أن نحترق الغنى، سنتعلم أشياء كثيرة إضافية. إذ انظر كم من أشياء كثيرة حسنة تنبع من هنا!. لأن الذي يعطي صدقة كما ينبغي له أن يعطي يتعلم أن يحترق الغنى. الذي تعلم أن يحترق الثروة، قد قطع أصل كل الشرور. لذلك فإنه لا يعمل خيراً (مادياً) أكثر من (الخير الروحي) الذي يناله (باحترق المال والغنى)، فهو لا يعمل لمجرد أنه توجد مكافأة مستحقة وجزاء للصدقة، بل أيضاً لكي تصير نفسه بهذا الاحترق للمال متفلسفة ومتسامية (مرتفعة) وغنية (في الروحيات ومن نعمة الله). الذي يعطي صدقة يتعلم ألا يبدي إعجابه بالغنى والذهب (أي المال). وطالما ثبت هذا الدرس مرة في ذهنه، فإنه قد حصل بذلك على خطوة عظيمة في الصعود نحو السماء وأزال عشرة آلاف فرصة نزاع وجدال وغم وغيره. لأنكم تعلمون جيداً أن كل شيء يُعمل في سبيل الحصول على المال، وهناك حروب بلا عدد تُشن لأجل اقتناء الغنى. لكن الذي تعلم أن يحترق المال قد وضع نفسه في ميناء هادئ ولم بعد يخشى أي ضرر. لأن هذا قد علمته إياه الصدقة. وهو لم يعد يرغب فيما هو لقريبه، لأنه كيف يرغب فيما هو لقريبه من يشارك بما عنده ويعطي؟!!

إنه لم يعد يحسد الشخص الغني، إذ كيف يمكن أن يحسد ذلك الذي هو مستعد أن يصير فقيراً؟ إنه ينقي عين نفسه. وكل هذا يتم هنا (ونحن في العالم)، ولكن لن يتم إخباره بما سيجنيه من بركات فيما بعد. إنه لن يبقى خارجاً مع العذارى الجاهلات، بل سيدخل مع أولئك اللائي كن حكيماًت سوياً مع العريس ومصابيحهن موقدة. ومع أنهم كانوا

مصاعب البتولية، لكن الذي لم يذق شيئاً من هذه المصاعب، سيكون أفضل منهم. هكذا قوة الرحمة، فإنها تحضر أبناءها بجسارة شديدة، لأنها معروفة للبوابين الذين يحرسون أبواب حجرة العرس في السماء، وهي ليست فقط معروفة بل أيضاً محل توقير منهم، والذين تعرف أنهم أكرموا، ستدخلهم بدالة عظيمة ولن يضادها أحد، بل الكل سيفسح الطريق أمامها. لأنه إن كانت قد أنزلت الله إلى الأرض وأفنعته أن يصير إنساناً، فكم بالأولى سيمكنها أن ترفع الإنسان إلى السماء، لأن قوتها عظيمة. إن كان الله بدافع من الرحمة والشفقة صار إنساناً وأقنع نفسه أن يصير عبداً، فكم بالأولى سيحضر عبيده إلى بيته. فلنحبها ولنضرم ودنا لها ليس ليوم أو يومين، بل على مدى كل حياتنا حتى تعترف بنا. فإن اعترفت بنا، فإن الرب أيضاً سيعترف بنا. لو تبرأت الرحمة منا، فالرب أيضاً سيتبرأ منا ويقول «لست أعرفكم». لكن ليت لا أحد منا يسمع هذا الصوت، بل بالعكس نسمع الصوت القائل «تعالوا يا مباركي أبي، رثوا الملك المُعد لكم منذ تأسيس العالم» (مت ٢٥: ٣٤)، وليتنا كلنا ننال هذا بنعمته ورأفته في يسوع المسيح ربنا الذي له مع الآب والروح القدس المجد والقوة والإكرام الآن وإلى أبد الأبد آمين.

ملاحظة: تم ترجمة شرح هذه الرسالة عن سلسلة

Nicene & Post Nicene Fathers Vol

العظة الأولى

(فيلبي ١: ١-٧)

بُولُسُ وَتَيْمُوثَاوُسُ عَبْدَا يَسُوعَ الْمَسِيحِ، إِلَى جَمِيعِ الْقَدِيسِينَ فِي الْمَسِيحِ
يَسُوعَ، الَّذِينَ فِي فِيلِبِّي، مَعَ أَسَاقِفَةِ وَشَمَامِسَةِ نِعْمَةَ لَكُمْ وَسَلَامٌ مِنَ اللَّهِ
أَبِينَا وَالرَّبِّ يَسُوعَ الْمَسِيحِ. (في ١: ١، ٢)

إن بولس هنا وهو يكتب لمن هم ذوي كرامة متساوية، لا يحط من قدر
مركزه كمعلم، بل دعا نفسه بلقب آخر عظيم. فما هو هذا اللقب؟

إنه يدعو نفسه عبداً وليس رسولاً. لأن هذه الرتبة هي أيضاً عظيمة
بالحق وجامعة كل الأشياء الحسنة أن تكون عبداً للمسيح (بالفعل) وليس
مجرد أن تُدعى هكذا (إسماً). إن عبد المسيح هو بالحق حر من جهة
الخطية، وإذ هو عبد حقيقي (حر)، فهو ليس عبداً لأي شخص آخر،
وإلا لن يكون عبداً للمسيح بصورة كاملة بل جزئياً. وهو أيضاً يكتب لأهل
رومية ويقول «بولس عبد ليسوع المسيح» (رو ١: ١).

لكن عندما كتب إلى أهل كورنثوس وإلى تيموثاوس فإنه دعا نفسه
«رسولاً»، فعلى أي أساس كان هذا؟ ليس لأنهم كانوا متفوقين (روحياً)

في شيء) على تيموثاوس. حاشا أن يكون هذا. بل بالأحرى هو يكرمهم (يقصد أهل فيلبي ورومية) ويظهر لهم اهتماماً يفوق كل الآخرين الذين كتب لهم. ولأنه أيضاً يشهد لفضيلة عظيمة لديهم. وفضلاً عن ذلك فقد كان يريد في تلك الرسائل أن يوصي بأشياء كثيرة، ولذلك اتخذ رتبته كرسول، ولكنه هنا لا يعطيهم توصيات، بل (يوصيهم) بما يمكنهم أن يدركوه من تلقاء ذاتهم.

«إلى جميع القديسين في المسيح يسوع الذين في فيلبي»

لقد كان من المحتمل أيضاً أن يدعو اليهود أنفسهم «قديسين» استناداً على ما جاء في العهد القديم بأنهم «أمة مقدسة، وشعب مُقْتَنَى لِلَّهِ» (تث ٧: ٦؛ خر ١٩: ٦). لهذا السبب أضاف قائلاً «إلى جميع القديسين في المسيح يسوع». لأن هؤلاء فقط هم المقدسون أما أولئك فهم بدءاً من الآن دنسون.

«مع أساقفة وشمامسة»

ما هذا؟ هل كان يوجد أساقفة عديدون لمدينة واحدة؟ بالتأكيد لا، إنما كان يدعو شيوخ الكنيسة (الكهنة) أيضاً أساقفة^١، لأنه آنذاك كان يتم تبادل الألقاب، وكان الأسقف يدعى خادماً^٢ (حرفياً شماس). لأجل هذا السبب كتب إلى تيموثاوس قائلاً «تمم خدمتك» (٢ تي ٤: ٥)، بينما

١- انظر (أع ٢٠: ١٧) «استدعى بولس قسوس الكنيسة»، ثم (أع ٢٠: ٢٨) بقوله لهم أيضاً «... التي أقامكم الروح القدس فيها أساقفة...»

٢- هنا يعتمد ذهبي الفم على (٢ تي ٤: ٥)، وعلى (أع ٢٠: ٢٤) «والخدمة التي أخذتها» إذ أن الخدمة في كلا الاثنيين وردت في كلمة يونانية مُشتق منها كلمة ذياكون التي تعني خادم أو شماس.

كان تيموثاوس أسقفًا. ويظهر ذلك من قول بولس له «لا تضع يديك على أحد بالعجلة» (١ تي ٥ : ٢٢). أما الشيوخ (الكهنة) فلا يضعون أيديهم على أسقف. وأيضاً في الرسالة إلى تيطس يقول «من أجل هذا تركتك في كريت لكي تكمل ترتيب الأمور الناقصة وتقيم في كل مدينة شيوخاً كما أوصيتك، إن كان أحد بلا لوم بعل امرأة واحدة» (تي ١ : ٥ ، ٦)، وهذا ما يقوله أيضاً عن الأسقف، لأنه بعد هذا، أضاف في الحال «لأنه يجب أن يكون الأسقف بلا لوم كوكيل لله غير مُعجب بنفسه» (تي ١ : ٧). وهكذا كان الشيوخ في القديم يُدعون أساقفة وخداماً للمسيح، وكان الأساقفة يُدعون شيوخاً، ومن ثمّ فإن كثيرين من الأساقفة حالياً يكتبون قائلين «إلى شريكي (في الخدمة) الشيخ ٠٠»، «إلى رفيقي في الخدمة» ولكن بطريقة أخرى فإن الاسم الصريح اختص بطريقة واضحة لكل من الأسقف والشيخ، إذ يقول «مع أساقفة وشمامسة».

«نعمة لكم وسلام من الله أبينا والرب يسوع المسيح»

لماذا يكتب بولس الرسول هنا على وجه التحديد إلى الإكليروس، مع أنه في كل رسائله الأخرى كان يكتب على العموم إلى «كل القديسين والمؤمنين الأحياء»؟ السبب لأن الإكليروس هم الذين أرسلوا إليه لسد حاجته وتشاركوا معه في حساب العطاء والأخذ (في ٤ : ١٥ - ١٦). وهم الذين أرسلوا إليه ابفروتس على وجه السرعة.

«اشكر إلهي عند كل ذكرى إياكم» (١ : ٣).

يقول بولس الرسول في رسالة العبرانيين «أطيعوا مرشديكم وأخضعوا

لأنهم يبسرون لأجل نفوسكم كأنهم سوف يعطون حساباً لكي يفعلوا ذلك بفرح لا آتئين» (عب ١٣: ١٧). إذاً إن كان الأتئين سببه رداءة التلاميذ، فإن إتمام الخدمة بفرح يرجع الفضل فيه إلى تقدمهم.

وبولس يقول هنا: كلما أتذركم فإنني أمجد الله. وهو يفعل هذا لإدراكه الأشياء الحسنة الكثيرة التي فيهم. إنه يقول: إنني أمجد الله وأصلي (لأجلكم). ليس لأنكم تقدمتم في الفضيلة فإنني سأتوقف عن الصلاة لأجلكم، بل يقول «أشكر إلهي عند كل ذكري إياكم».

«دائماً في كل أدعيتي مقدماً الطلبة لأجل جميعكم بفرح» (١: ٤)

«دائماً» أي ليس فقط بينما أنا أصلي بفرح، لأنه يمكن أن يفعل هذا بحزن أيضاً كما يقول في موضع آخر «لأنني من حزن كثير وكآبة قلب كتبت إليكم بدموع كثيرة» (٢كو ٢: ٤).

«لسبب مشاركتكم في الإنجيل من أول يوم إلى الآن» (١: ٥)

عظيم أن يشهد لهم هنا، وعظيم جداً أن يشهد للإنسان الرسل والإنجيليون.

وكانه يقول لهم: ليس لأنه أوكل إليكم أمر الاهتمام بمدينة واحدة (وهي مدينة فيليبس)، فتنشغلون بها فقط، لكن لم يكن هناك شيء لم تعملوه لتشاركونني أتعابي.

لقد كنتم في كل مكان حاضرين وعاملين معي ومشاركين في الكرازة (بالإنجيل)، ليس مرة أو مرتين أو ثلاث، بل دائماً منذ آمنتم إلى الآن

أخذتم على عاتقكم الاستعداد الرسولي. لكنه يقول عن الذين كانوا في روما: «أنت تعلم هذا أن جميع الذين في آسيا ارتدوا عني» (٢ تي ١: ١٥)، أيضاً «ديماس قد تركني» (٢ تي ٤: ١٠)، و«في احتجاجي الأول لم يحضر أحد معي، بل الجميع تركوني» (٢ تي ٤: ١٦). لكن هؤلاء (الفلبيين) رغم أنهم كانوا بعيدين شاركوا في ضيقاته، إذ أرسلوا له أناساً من عندهم وخدموه على قدر طاقتهم، ولم يتخلوا أبداً عن عمل أي شيء كان باستطاعتهم أن يعملوه. وهو يقول: وهذا تصنوه ليس فقط الآن بل دائماً و تساعدونني بكل طريقة، لذلك فإن خدمتكم هذه هي «مشاركة في تقدم (حرفياً تعزير) الإنجيل»، لأنه عندما يركز أحدهم بالإنجيل وهناك أسرة تخدمه فإنها تشاركه أكاليه. لأنه حتى في المسابقات الدنيوية لا تكون الجائزة فقط للمتسابق بل أيضاً للمدرب ولكل من ساهم في إعداد اللاعب، لأن الذين يساندونه ويناصرونه يشاركون بعدل في النصر الذي حققه. وفي الحروب أيضاً لا يفوز المحارب فقط بجائزة البسالة، بل أيضاً كل الذين يخدمونه يمكنهم أن يطالبوا عن حق بالمشاركة في الانتصارات والمجد، لكونهم شاركوا في نضاله بخدمتهم له. لأنه نفع ليس بقليل أن تخدم قديسين، بل هو نفع عظيم جداً. لأن خدمتنا تجعلنا مشاركين في المكافأة المعدة لهم.

وهكذا، فلنفترض أن أحدهم تخلى عن مقتنياته الكثيرة لأجل الله واستمر في تكريس نفسه لله ممارساً فضيلة عظيمة ومراعياً الدقة الشديدة في الكلمات والأفكار في كل شيء. فحتى لو لم تكن تشاركه مثل هذا التدقيق الشديد، فإنه سيكون من حقل أن تشاركه في المكافأة المعدة

له لأجل هذه الأشياء. كيف؟ لو أنك ساعدته بالقول والفعل، لو أنك شجعته بتلبية كل احتياجاته وتقديم كل خدمة ممكنة له. لأنه ستكون أنت نفسك آنذاك الممهد لذلك الطريق الوعر.

لذلك لو أبديت إعجابك بالذين تبناوا الحياة الملائكية في الصحراء والذين يمارسون نفس الفضائل معهم في الكنائس، لو أبديت إعجابك وحرزنت لأنك متخلف عنهم (في هذا الأمر)، فإنه يمكنك أن تشاركهم بطريقة أخرى وذلك بخدمتهم ومساعدتهم. لأنه من مراحم الله أن يحضر من هم أقل سعياً وغير قادرين على عيش الحياة الصادقة والصعبة والوعرة بطريقة أو بأخرى إلى نفس مستوى الذين يمارسونها. وهذا ما يقصده بولس بـ «المشاركة». إنهم يشاركوننا في الجسديات ونحن نشركهم في الروحيات، لأنه إن كان الله لأجل أشياء قليلة وبسيطة يمنح الملكوت، فإن خدامه أيضاً لأجل أشياء مادية وقليلة يشاركون في الروحيات، أو بالأحرى هو يعطي الماديات والروحيات بواسطتهم.

ألا يمكنك الصوم (طويلاً) أو التوحد (في مغارة) أو النوم على الأرض أو السهر الليل كله؟ يمكنك أن تنال مكافأة كل هذه الأشياء، لو أنك سعيت لهذا الأمر عن طريق خدمة هؤلاء للأشخاص الذين يجاهدون وإنعاشهم ودهنهم بالزيت وتخفيف أتعاب هذه الأعمال (الشاقة). إن هذا الشخص واقف يحارب ويتلقى الضربات، فهل تخدمه عندما يعود من القتال وتستقبله في أحضانك وتمسح عرقه وتنعشه وتعزيه وتجدد نفسه المتعبة وتسكنها. لو أننا نخدم القديسين بمثل هذا الاستعداد وحسب، فإننا سنشاركهم مكافآتهم. وهذا ما يخبرنا به المسيح بقوله «اصنعوا

لكم أصدقاء بمال الظلم، حتى إذا فنيتم يقبلونكم في المظال الأبدية»
(لوقا ١٦: ٩) ألا ترى أنهم قد صاروا مشاركين؟

إن بولس يقول «من أول يوم إلى الآن» (في ١: ٥)، ويقول «وأنا أفرح»
ليس فقط لما مضى، بل أيضاً لأجل المستقبل، لأنه من الماضي يمكن أن
أخمن المستقبل أيضاً.

«واثقاً بهذا عينه أن الذي ابتداءً فيكم عملاً صالحاً يكمل إلى يوم يسوع
المسيح» (١: ٦).

انظر كيف يعلمهم أيضاً ألا يكونوا مرثيين، حيث إنه قد شهد لشيء
عظيم لهم (وهو المشاركة في الإنجيل)، فلكي لا يشعروا كبشر أنهم أهل
للعمل، فإنه يعلمهم في الحال أن ينسبوا كل الأعمال الصالحة إلى
المسيح. كيف؟ هل بقوله «بالأ تكونوا واثقين أنه كما ابتدأتم ستكملون
أيضاً؟ كلا بل يقول «الذي ابتداءً فيكم عملاً صالحاً يكمله». إنه لم يسلب
منهم ما تعبوا في إنجازهِ وتحقيقه (لأنه قال «أفرح لسبب مشاركتكم في
الإنجيل» موضحاً أنه ينسب تعيهم وعملهم إليهم)، ولم ينسب أعمالهم
الحسنة إليهم وحدهم، بل هي مبدئياً لله، إذ يقول «واثقاً بهذا عينه
أن الذي ابتداءً فيكم عملاً صالحاً يكمل إلى يوم يسوع المسيح» أي يكمله
بمشيئة الله. وكأن كلامه يعني: إنني لا أتكلم عنكم، بل أشعر بهذا
من جهل الأقل منكم في المستوى الروحي لأنه أن يعمل الله مع المرء
فهذا امر ليس بقليل. لأنه إن كان الله «لا يحابي الوجوه»، بل ينظر
إلى نياتنا عندما يساعدنا في الأعمال الصالحة، فمن الواضح أن لنا دوراً

في ان نجعله يعمل فينا، لذلك حتى من وجهة النظر هذه لا يسلبهم مديحهم (المستحق لهم). لأنه لو كانت أعماله فينا بدون قصد، لكان قد عمل حتى في غير المؤمنين، وفي كل البشر، فيحركنا مثل كتل الحجارة والأخشاب دون أن يطلب مساهمتنا. لذلك عندما يقول «الله يكمله» فهذا أيضاً يؤول لمديحهم لكونهم يطلبون نعمة الله، حتى إنه بهذا يساعدهم في تخطي الطبيعة البشرية. وبطريقة أخرى فإنه يمدحهم على أن أعمالهم الحسنة لا يمكن أن تأتي من إنسان بل تحتاج إلى دفعة إلهية. لكن إن كان الله سيكمل، إذاً لن يكون هناك عناء كثير بل بالأحرى يكون الإنسان متشجعاً إذ أنه سيتم كل شيء بسهولة لأن الله يعينه.

«كما يحق لي أن أفكر هذا من جهة جميعكم لأنني حافظكم في قلبي وفي وثقي وفي المحاماة عن الإنجيل وتثبيته، أنتم الذين جميعكم شركائي في النعمة» (١: ٧).

أمر عظيم هنا أن يُظهر عاطفته القوية نحوهم في أنه يحفظهم في قلبه وأنه يتذكر الفيلبيين رغم قيوده في السجن؛ وأن مدح هؤلاء الناس ليس بالأمر الهين، إذ أن هذا القديس لم يتولد حبه لهم عن محاباة أو منفعة، بل لأسباب وجيهة وعن تبصر. لأنه أن تكون محبوباً عند بولس بهذه الشدة، فهذا دليل على أن الإنسان لديه الصفات التي تؤهله لذلك.

هنا يقول «وفي المحاماة عن الإنجيل وتثبيته». وما العجيب في أنهم كانوا في قلبه وهو في السجن؟ لكنه يقول ما معناه «لكن ولا حتى في اللحظة التي سأقف فيها أمام المحكمة لأقدم احتجاجي قد غبتم عن

ذاكرتي». لأن الحب الروحي حب طاغ لا يعطي فرصة، بل يمسك دائماً بنفس من يُحب ولا يدع الاضطراب أو الألم يهزم هذه النفس. وكما في حالة أتون بابل، عندما كان اللهب مرتفعاً هكذا، كان هناك ندى للثلاثة فتية المباركين، كذلك أيضاً تحتل الصداقة نفس من يحب ومن يرضي الله، فتنفض عنه كل لهب (أي ضغط كل ظروف غير مواتية) وتنتج ندى عجيماً (فيحيا ويتصرف بسلام كما لو كانت كل الأمور على خير ما يرام).

«وفي تثبيت الإنجيل»

لقد كانت قيوده تثبيتاً للإنجيل ودفاعاً عنه. كيف؟ لأنه لو كان قد تجنب القيود (بأن هرب منها مثلاً) لكانوا ظنوه مخادعاً، أما كونه احتمال كل شيء من قيود وضيق، فهذا يُظهر أنه لم يكابد كل هذه الآلام بسبب علة بشرية، بل لأجل الله الذي يجازي. لأنه لا أحد يقبل أن يموت أو أن يتجشم مثل هذه الأخطار العظيمة أو يختار أن يتصادم مع ملك كهذا، أقصد نيرون، ما لم يكن قد تطلع إلى ملك أعظم منه جداً. لقد كانت قيوده حقاً «تثبيتاً للإنجيل».

أنظر كيف أنه كان ينجح كثيراً في قلب كل الأمور إلى عكسها. لأن ما كانوا يظنونوه ضعفاً ونقيصة يدعوهُ هو تثبيتاً، ولو لم يحدث لكان هناك

ضعف^٣!

٣- يبدو لي أن ذهبي الغم يود القول أن ما يعتبره الآخرون علامة ضعف (لكون الرسول يتم حبسه والكراسة بهذا تتلصق)، يعتبره الرسول علامة على صحة المسيرة وقوة الكرازة، والواقع العملي يؤكد هذا فحينما تكون الكنيسة في حماية الدولة ولا تجد مقاومة تُذكر تضعف وتدب فيها علامات الاضمحلال، بينما المقاومة للمسيحية وللكنيسة تزيل ما في أولاد الله من ضعف روحي...
١٩

بعد ذلك يُظهر بولس الرسول أن حبه لم يكن له غرض بل عن إفران. لماذا؟ فيجيب «لأنني حافظكم في قلبي وفي وثقي» وفي دفاعي (عن الإنجيل) بسبب أنكم «مشاركون لنعمتي». ما هذا؟ هل كانت نعمة الرسول تستطيع أن تُقيد وتُطرد وتواجه ضروراً كثيرة؟

نعم، لأن الله يقول «تكفيك نعمتي. لأن قوتي في الضعف تُكَمَّل» (٢كو١٢: ٩). ونتيجة لذلك يقول بولس الرسول «لذلك أُسر بالضعفات والشتائم» (٢كو١٢: ١٠)، لذلك حينما أراكم تبرهنون على فضيلتكم بأعمالكم، واستعدادكم للمشاركة في هذه النعمة، فإنني منطقياً افترض هكذا الكثير من جهتكم، لأنني أنا الذي اختبرتكم وعرفتكم أكثر من أي شخص آخر وعرفت أعمالكم الحسنة كيف أنكم اجتهدتم رغم بعد المسافة، ليس لأن تكونوا أقل منا في أتعابنا، بل أن تشاركوا في ضيقاتنا لأجل الإنجيل، وبنصيب لا يقل عني أنا المنخرط في الجهاد على الرغم من بعدكم مكانياً (عن الحلبة التي أصارع فيها)، فأنا لا أقول إلا الحق عندما أشهد لهذه الأعمال.

لماذا قال «شركائي في النعمة» ولم يقل «مشاركين في النعمة»؟

إنه يقصد: أنا نفسي أيضاً اشترك مع آخر حتى أكون شريكاً في الإنجيل، أي حتى أشارك في الخيرات المعدة للبشارة بالإنجيل. والأمر العجيب أنهم كانوا جميعاً مهتمين جداً، لأنه يقول «أنتم الذين جميعكم شركائي في النعمة». فمن هذه البدايات الواعدة أنا متيقن أنكم ستكونون هكذا للنهية. لأنه لا يمكن أن تنطفئ بداية بهذا البهاء وتخيب، بل

هي (على العكس) تشير إلى نتائج عظيمة (في المستقبل).

لذلك حيث أنه من الممكن أيضاً أن نشارك بوسائل أخرى في النعمة والضيقات والأتعاب، ليتنا أيضاً أتوسل إليكم نكون مشاركين (لأهل فيلبي ولبولس الرسول). كم شخصاً من الواقفين هنا أو بالأحرى من كل الناس، سيرتضي أن يشارك بولس الرسول في الخيرات الآتية! إنه في مقدوركم إذا رغبتم أن تساندوا وتعينوا من خلفوه في الخدمة عندما يعانون أي مشقة لأجل المسيح.

هل رأيت أخاك في محنة؟ مد له يد العون!

هل رأيت معلمك في ضيقة؟ قف إلى جانبه!

ربما هناك من يقول: لكن لا يوجد أحد مثل بولس! آه جاء وقت الازدراء! جاء وقت النقد! أهكذا لا يوجد أحد مثل بولس؟

حسناً أنا أوافق (ولن اعترض على كلامك). لكن السيد المسيح يقول «من يقبل نبياً باسم نبي فأجر نبي يأخذ» (مت ١٠: ٤١).

فهل أكرم هؤلاء لكونهم عملوا مع بولس؟ كلا، بل أكرموا لأنهم تعاونوا مع من باشر الكرازة. إن بولس كان مكرماً لأجل أنه قد عانى هذه الآلام لأجل المسيح.

بالتأكيد لا يوجد أحد مثل بولس، ولا حتى من يقترب قليلاً من مستوى هذا الطوباوي، لكن الكرازة هي هي كما كانت آنذاك.

وهم (يقصد الفيلبيين) شاركوه ليس فقط في قيوده، بل بدأت مشاركتهم منذ البدء. إذ أسمعه يقول «وأنتم أيضاً تعلمون أيها الفيلبيون أنه في بدءا الإنجيل لما خرجت من مكدونية، لم تشاركني كنيسة واحدة في حساب العطاء والأخذ إلا أنتم وحدكم» (في ٤ : ١٥).

وبعيداً عن المحن، فإن المعلم كان له كد كثير، سهر، تعب في الكلمة، التعليم، شكايات، ملامات، واتهامات وحسد. وهل هو أمر قليل أن يحتمل المرء عشرة آلاف لسان، بينما تكفيه همومه الخاصة؟

وآسفاه! ما عساي أن أفعل؟ لأنني محصور بين شيئين: إنني أرغب في أن استحثكم وأشجعكم على تعزيد ومساعدة قديسي الله، لكنني أخشى لئلا يظن البعض شيئاً آخر في أنني أقول هذا ليس لأجلكم بل لأجلهم!. لكن اعلمو (تماماً) إنني أقول هذا الكلام ليس لأجلهم، بل لأجلكم. وإن أردتم أن تصغوا فأنا أقنعكم بكلماتي ذاتها بأن المكسب ليس واحداً لكم ولهم.

لأنه إن أعطيتهم، ستعطون من تلك الأشياء التي حتماً ستتركونها سواء شئتم أم أبيتم بعد الموت وتعطونها لآخرين، لكن ما تنالونه هو أعظم وفائق. أم أنكم هكذا غير مهياين لقبول المجازاة التي ستنالونها إن أعطيتهم إياها؟

لأنه لو لم تكونوا هكذا غير مهياين، فأنا لا أرغب حتى في أن تعطوا. لأنني أبعد ما أكون عن أن أتكلم لصالحهم! ما لم يهيء الإنسان نفسه أولاً بأنه يأخذ أكثر مما يعطي، يأخذ عشرة آلاف ضعف وأنه يستفيد

أكثر مما أعطاه، فليته لا يعطي! لأنني لا أهتم كثيراً بأن ينال القديسون تعضيذاً (مادياً).

لأنه حتى لو لم تعطِ أنت، فغيرك سيعطي. لأن ما أريده هو أن تنال عتقاً من خطاياك. لكن الذي لا يعطي هكذا لا ينال راحة أو عتقاً من خطاياها. لأن التصدق ليس هو في مجرد العطاء، بل هو العطاء بتلقائية وفرح والشعور بالعرفان لمن نال الصدقة، وهذا يؤكد قول بولس «ليس عن حزن أو اضطرار لأن المعطي المسرور يحبه الرب» (٢كو٩: ٧).

إن لم يُعطِ الإنسان بهذه المعايير فليته لا يعطي، لأنه بخلاف ذلك ستكون خسارة وليس صدقة. لذلك إن علمت أنك أنت الذي ستكسب وليس هم، فسيكون مكسبك أعظم (من الآخذ منك).

لأنه بالنسبة لهم فإن الجسد هو الذي يُطعم، بينما نفسك يرضى الله عليها. بالنسبة لهم ولا حتى خطية واحدة سُتغفر عندما ينالون، بينما أنت قد غُفرت معظم خطاياك. لذلك لیتنا نشاركهم في مكافأتهم العظيمة؛

عندما يعطي الناس للملوك (بأن يجعلوهم هدفاً لعطاياهم) فلا يظنون أنهم يعطون أكثر مما يأخذون (إذ يأخذون كرامات وأمجاداً منهم)، أما أنت فأعطِ المسيح (في شخص المحتاج أو الكارن) وسيكون لك طمأنينة عظيمة. هل تريد أيضاً أن تشارك بولس؟ ولماذا أقول بولس بينما المسيح هو الذي يأخذ (ما تتصدق به)؟

٤- نشاركهم في أتعابهم لكي نشاركهم أيضاً في مكافأتهم العظيمة.

لكن لكي تعلموا أن كل ما أقوله وأفعله هو لأجلكم وليس اهتماماً مني براحة الآخرين، لو كان هناك أحد من رؤساء الكنيسة يعيش في رغد ولا يحتاج إلى شيء، فلا تعطه حتى لو كان قديساً. بل فضل عليه من هو في احتياج ولو كان غير جدير بإعجابك (ذاك المحتاج). ولماذا؟ لأن المسيح أيضاً يريد هذا، كما يقول «إذا صنعت غداء أو عشاء، فلا تدع أصدقاءك ولا إخوتك ولا أقرباءك بل الجدد والعرج والعمي، إذ ليس لهم حتى يكافئوك» (لوقا: ١٤: ١٣-١٥).

لأنه ليس بدون سبب أنه يجب على المرء ألا يوجه انتباهه إلا للجوعان والعطشان والذين يحتاجون الكساء والغرباء ولمن افتقروا بعد غنى. لأن الرب حقاً لم يقل «أنا أطعمت»، بل قال «لأنني جعت» وذلك حين قال «رأيتموني جائعاً فأطعمتموني» (مت ٢٥: ٣٥، ٣٧). إن القضية هنا مضاعفة إذ أنه قديس وجوعان، لأنه إن كان ينبغي إطعام من كان جائعاً فحسب، فكم بالأولى من هو أيضاً قديس وجوعان!

إذاً لو كان قديساً وليس له احتياج، فلا تعطه، لأن هذا لا منفعة منه. لأن المسيح لم يوجي بهذا، أو بالأحرى لا يكون قديساً من يحيا في رغد ويأخذ صدقة.

هل ترون أن هذه الأقوال قيلت لكم ليس ابتغاء لربح قبيح بل لأجل منفعتكم؟

أطعم الجوعان حتى لا تُطعم نار جهنم (بجسدك ونفسك في العالم الآخر). إن من يأكل مما هو لك يقدس أيضاً ما تبقى (انظر لوقا: ١١: ٤١).

تأمل كيف أن الأرملة عالنت إيليا وأنها لم تطعمه أكثر مما أطعمت هي بواسطته ولم تعطِ أكثر مما أخذت. وهذا يحدث الآن في شيء أعظم جداً. لأنه ليس بعد كوار دقيق أو كوز الزيت (١مل١٧: ١٤)، بل ماذا؟ «مائة ضعف وحياة أبدية» (مت ١٩: ٢٠، ٢٩)، هذه هي المكافأة لمثل هذه (الصدقة)، فتنال رحمة الله والطعام الروحي.

لقد كانت أرملة والمجاعة كانت شديدة جداً ولم يعقها شيء من هذا. كان لها أيضاً أولاد، لكن ولا حتى هذا منعها (١مل١٧: ١٢).

إن هذه المرأة مثل الأرملة التي ألقنت الفلسين (في خزانة الهيكل)، فهي لم تقل لنفسها: وماذا عساي أن آخذ من هذا الإنسان؟ فهو المحتاج إليّ. لو كانت لديه قوة لما جاع ولكان قد أنهى الجفاف ولما كان قد خضع لمثل هذه المشقات. ربما هو أساء إلى الله.

إنها لم تفكر في شيء من هذا. هل ترى كيف أنه أمر عظيم أن تصنع الخير ببساطة ولا تكون كثير الفضول من جهة الشخص الذي ينال منك الصدقة؟ لو اختارت هي أن تكون فضولية، لكانت قد شكت وما كانت آمنت (أو صدقت).

كذلك أيضاً إبراهيم لو فضل أن يكون فضولياً لما استضاف ملائكة. لأنه لا يمكن أبداً لمن يدقق كثيراً في هذه الأمور أن يلتقي بالملائكة. فمثل هذا الإنسان يقع عادة في المحتالين، أما كيف ذلك، فهذا سأخبركم به. إن الإنسان التقى لا يرغب في أن يظهر تقياً، ومن المرجح أنه يُرفض من الناس. أما المخادع إذ يجعل الاحتيال مهنته يرتدي قدراً من التقوى

التي يصعب اكتشافها. وهكذا بينما الذي يفعل الخير حتى لمن لا يبدو أنهم أتقياء، سيصادف من هم أتقياء بالفعل، لكن الذي يفتش عنهم أتقياء، غالباً ما يصادف من هم ليسوا أتقياء.

لذلك أتوسل إليكم ليتنا نعمل كل شيء ببساطة. لذا فلنفترض أن الآتي (إليك) هو محتال، فأنت غير مطالب بأن تكون فضولياً من جهة هذا الأمر. لأن المسيح يقول «كل من سألك فأعطيه» (لوقا: ٦: ٣٠). وقيل أيضاً «لا تمتنع عن تخليص المنقادين إلى الذبح» (أم ٢٤: ١١). لأننا هكذا سنشابه الله، وهكذا سنكون محل إعجابه وسنحصل على تلك البركات الخالدة التي نظن أننا أهل لها بنعمة ورافة يسوع المسيح ربنا الذي له مع الآب والروح القدس المجد والقوة والإكرام الآن وكل أوان وإلى دهر الدهور آمين.

العظة الثانية

(فيلبي ١: ٨-١٩)

فَإِنَّ اللَّهَ شَهِدَ لِي كَيْفَ أَشْتَأُقُ إِلَى جَمِيعِكُمْ فِي أَحْشَاءِ يَسُوعَ الْمَسِيحِ.
وَهَذَا أَصْلِيهِ: أَنْ تَزْدَادَ مَحَبَّتِكُمْ أَيْضاً أَكْثَرَ فَأَكْثَرَ فِي الْمَعْرِفَةِ وَفِي كُلِّ فَهْمٍ،
حَتَّى تُمَيِّزُوا الْأُمُورَ الْمُتَخَالِفَةَ، لِكَيْ تَكُونُوا مُخْلِصِينَ وَبِلَا عَثْرَةٍ إِلَى يَوْمِ
الْمَسِيحِ، مُلَوِّثِينَ مِنْ ثَمَرِ الْبَرِّ الَّذِي بِيَسُوعَ الْمَسِيحِ لِمَجْدِ اللَّهِ وَحَمْدِهِ.

(١: ٨-١١).

إنه هنا لا يدعو الله كشاهد كما لو كان ينبغي الشك في صدق كلامه، بل هو يتصرف هكذا من واقع محبته العظيمة واقتناعه المفرط وثقته. لأنه بعد أن قال إن لهم شركة معه (في النعمة) أضاف أيضاً هذا القول «في أحشاء يسوع المسيح» لئلا يظنوا أن شوقه لهم كان لهذا السبب ولم يكن لأجلهم وحسب. وماذا تعني هذه الكلمات «في أحشاء يسوع المسيح»؟ إنها تعني «بحسب المسيح» لأنكم مؤمنون، لأنكم تحبون المسيح، لأجل الحب الذي بحسب المسيح.

إنه لا يقول «حب» (بحسب المسيح) ولكنه يستخدم تعبيراً أكثر دفئاً «في أحشاء المسيح» كما لو كان يقول: صرت أباً لكم من خلال العلاقة

التي في المسيح، لأن هذا يعطينا انطباعاً عن أحشاء حانية ومتأججة.
لأن الرب يعطي مثل هذه الأحشاء لعبيده الحقيقيين.

يقول بولس الرسول « في هذه الأحشاء » كما لو كان يقول إنني أحبكم ليس بأحشاء بشرية، بل بأحشاء أكثر حنواً ودفناً، أي بأحشاء المسيح.

«كيف أشتاق إلى جميعكم»

إنني أشتاق إلى الكل، وحيث إنكم جميعاً من هذه الطبيعة، فأنا عاجز عن أن أعبر لكم عن اشتياقي بالكلمات، لذلك يصعب عليّ أن أخبر بها. لهذا السبب أنا أترك هذا الأمر لله ليعرفه لأن القلب في متناوله. ولو كان بولس يتملقهم لما جعل الله شاهداً له لأنه لو كان يتملقهم فإن هذا الأمر سوف يعرضه للخطر.

«وهذا أصليه أن تزداد محبتكم أيضاً أكثر فأكثر» (١: ٩).

لأن المحبة ليس لها حد ولا يمكن الشبع منها، ولأنه كان محبوباً فقد رغب في أن يكون محبوباً أكثر فأكثر، لأن الذي يحب، يرغب ألا يتوقف عند حد معين من الحب، لأنه يستحيل أن يوجد هناك حد للمحبة. إن بولس يرغب في أن يبقى دين الحب دائماً «لا تكونوا مديونين لأحد بشيء إلا بأن يحب بعضكم بعضاً» (رو١٣: ٨).

إن معيار الحب (الحقيقي) هو أن لا يتوقف عند حد معين، ولذا يقول الرسول «أن تزداد محبتكم أيضاً أكثر فأكثر». تأمل هذا التعبير

«أن تزدادوا أكثر فأكثر» فعندما يضيف إليه «في المعرفة وفي كل فهم» فإنه لا يمجّد مجرد الصداقة أو مجرد المحبة، بل يمجّد ما يأتي من المعرفة (والفطنة) بمعنى أنه ليس لكم أن تحبوا الكل بمعيّار واحد، لأن هذا لا ينبع من المحبة بل من عوز في الشعور والإحساس.

ماذا يقصد هو بعبارة «في المعرفة»؟ إنه يقصد بإفراز، بعقل وفطنة. يوجد من يحبون بدون تعقل وبسداقة وكيفما اتفق، ومن ثم تكون مثل هذه الصداقة ضعيفة.

وهو يقول: هذا أقوله ليس لأجل نفسي بل لأجلكم، لأن هناك خطورة لئلا يفسد أحد بحب الهراطقة، لأنه يشير إلى كل هذا وانظر كيف أحضره أمامهم، فيقول: ليس لأجلي أقول هذا، بل أقوله لتكونوا مخلصين أي لا تقبلوا تعليماً مزوراً تحت زعم الحب.

فكيف يقول بولس الرسول «إن كان ممكناً فحسب طاقتكم سالموا جميع الناس» (رو ١٢: ١٨)؟ إنه يقول «سالموا» وليس «أحبوا» حتى لا تتضرر من هذه الصداقة.

يقول السيد المسيح «إن كانت عينك اليمنى تعثرك فاقلعها وألقها عنك» (مت ٥: ٢٩) لكي تكون مُخلصاً، أمام الله، «وبلا عثرة» أمام الناس، لأن هناك صداقات كثيرة للناس غالباً ما تكون مضرّة لهم.

يقول الرسول: حتى ولو لم تعثرك أنت، فلربما يُعثر منها آخر.

«إلى يوم المسيح»

أي لكي توجدوا آنذاك أنقياء لم تسببوا عثرة لأحد.

«مملوئين من ثمر البر الذي ببسوع المسيح لمجد الله وحمده»
(١١:١).

أي تتمسكون بالتعليم الصحيح مع الحياة المستقيمة، وليس مجرد استقامة بل «مملوئين من ثمر البر». لأنه يوجد في الواقع بر ليس بحسب المسيح مثل الحياة ذات الأخلاق الفاضلة.

«الذي بحسب المسيح لمجد الله وحمده»

انظروا فأنا (بولس) لا أتحدث عن مجدي بل عن بر الله.

وبولس الرسول مراراً ما يدعو أيضاً - الرحمة ذاتها - براً. ويقول (أيضاً): لا تدعوا حبكم يجرحكم بطريقة غير مباشرة، وأن يعوق مدارككم عن الأمور المفيدة وانتبهوا لئلا يسقطكم حبكم لشخص ما. لأنني أود أن حبكم يزيد، لكن لا أود أن تُجرحوا بواسطته. لست أود أن يكون حياً نابعاً عن تحيز أعمى بل عن دليل (أي سبب معقول) سواء كنت أتكلم حسناً أو لا أتكلم.

وهو لا يقول «حتى تأخذوا برأيي» بل يقول «حتى تميزوه». ولا يقول «لا تربط نفسك بهذا الإنسان أو ذاك» على طول الخط، بل يقول: أود أن يكون حبكم له توكيراً لما هو مفيد وألا تكونوا عادمي الفهم. لأنها حماقة لو لم تصنع البر لأجل المسيح وبه.

لاحظ «به» في كلمة «ببسوع»، فهل هو يستخدم الله كمجرد مساعد؟

حاشا! بل إنه يقول: ليس لكي أنال أنا المجد بل لكي يتمجد الله.

« ثُمَّ أُرِيدُ أَنْ تَعْلَمُوا أَيُّهَا الإِخْوَةُ أَنَّ أُمُورِي قَدْ آلَتْ أَكْثَرَ إِلَى تَقَدُّمِ الإِنجِيلِ ، حَتَّى إِنْ وُثِّقِيَ صَارَتْ ظَاهِرَةً فِي الْمَسِيحِ فِي كُلِّ دَارِ الْوِلَايَةِ وَفِي بَاقِي الأَمَاكِنِ أَجْمَعِ » (١: ١٢-١٣).

كان من المحتمل أنهم سيحزنون عندما يسمعون أنه كان مقيداً ويتخيلون أن الكرازة ستتوقف. فماذا عمل بولس؟

لقد لاشى هذا التصور فى الحال. وهذا أيضاً يبين محبته بأن أعلن لهم الأشياء التي حدثت له لأنهم كانوا قلقين من جهته.

ماذا تقول يا بولس؟ أتقول إنك مقيد! وإنك معوق! فكيف يتقدم الإنجيل؟

فيجيب «حتى إن وثقي صارت ظاهرة في المسيح في كل دار الولاية».

وهذا الأمر لم يُسكت باقى الإخوة ولا أخافهم، بل على العكس فقد شجعهم. فإن كان الذين بالقرب من المخاطر لم يتضرروا بل نالوا جرأة أعظم، فكم بالأولى ينبغي أن تكونوا أنتم هكذا. لو كان بولس عندما قيد قد قبل الأمر بمشقة وكف عن الكرازة لكان من المحتمل أن الإخوة يتأثرون بنفس الطريقة. لكن حيث إنه تكلم بجرأة أكثر عندما قيد، فإنه أعطاهم جسارة أكثر مما لو كان غير مقيد. وكيف أن قيوده «آلت أكثر إلى تقدم الإنجيل»؟ هنا يقصد القول: لأن الله في تدبيره قد أمر بعدم إخفاء

قيودي التي كانت في المسيح ولأجله.

«في كل دار الولاية»

لأنه إلى ذلك الوقت كان يُطلق على القصر الإمبراطوري «دار الولاية». وبقوله «في باقي الأماكن أجمع» يقصد في سائر أرجاء المدينة.

«وأكثر الإخوة وهم واثقون في الرب بوثقي يجترئون أكثر على التكلم بالكلمة بلا خوف» (١: ١٤)

هذا يبين أن الإخوة كانوا ذوي شجاعة حسنة قبل ذلك وتكلموا (فيما مضى) بجسارة، لكنهم الآن يتكلمون بجسارة أكثر. وهنا يقول: إذاً لو أن آخرين تشجعوا بسبب قيودي، فكم بالأولى أنا، وإن كنت أنا سبب ثقة لآخرين، فكم بالأولى لنفسي.

«وأكثر الإخوة ٠٠ في الرب»

«كما لو كان شيئاً عظيماً القول إن قيودي أعطتهم ثقة» لذلك أضاف قائلاً «في الرب».

هل ترون كيف أنه حتى عندما يرى نفسه مُجبِراً على التحدث عن أمور عظيمة فإنه لا يتخلى عن الاعتدال؟ إنه يقول «يجترئون أكثر على التكلم بالكلمة بلا خوف» إن كلمه «أكثر» تعني أنهم قد بدأوا الكلام بالفعل (من قبل).

«وأما قوم فعن حسد وخصام يكرزون بالمسيح وأما قوم فعن مسرة»
(١٥:١).

وما يعنيه هذا الكلام جدير بالمناقشة. حيث إن بولس كان تحت التحفظ وكان هناك كثيرون من غير المؤمنين يرغبون بحماس شديد في استثارة الإمبراطور لبدء اضطهاد، لذلك كانوا يكرزون هم أيضاً بالمسيح، لكي يزداد سخط الإمبراطور من سرعة انتشار الإنجيل فيصب كل غضبه على رأس بولس.

(وكان بولس هنا يواصل الكلام فيقول): لذلك أسفرت قيودي عن نوعين من العمل: فجماعة تشجعت جداً لهذا السبب والأخرى تشجعت بهدف تدميري فأقاموا أنفسهم للكراسة بالإنجيل. «أما قوم فعن حسد» أي حسدوا شهرتي ومثابرتي، وعن رغبة في تدميري وبروح الخصام (النزاع) يعملون معي، أو لكي يتم تقديرهم متوقعين أن يأخذوا لأنفسهم بعضاً من مجدي. «وأما قوم فعن مسرة» أي بدون رياء وبكل اجتهاد يكرزون بالمسيح.

«فهؤلاء عن تحزب ينادون بالمسيح لا عن إخلاص ظانين أنهم يضيفون إلى وثقي ضيقاً» (١٦:١).

أي أنهم ينادون بالمسيح ليس عن دوافع نقية وليس عن اهتمام للأمر نفسه بل لماذا؟ «ظانين أنهم (بذلك) يضيفون إلى وثقي ضيقاً» فإذا يظنون أنني هكذا سأقع في مخاطر أعظم، يضيفون ضيقاً إلى ضيقاتي الأخرى الكثيرة.

يا للوحشية !

يا للتحريض الشيطاني !

لقد رأوه مقيداً ومُلقى في السجن ، ومع ذلك لا يزالون يحسدونه . هم يزيدون بلاياه ويجعلونه معرضاً لغضب أعظم ، فيقول هو حسناً «ظانين» لأن النتيجة لم تكن هكذا . لقد ظنوا بهذا أنهم سيحزنونني لكنني فرحت لأن الإنجيل قد انتشر .

«وأولئك عن محبة عالمين أني موضوع لحماية الإنجيل» (١٧: ١).

ما معني «أنى موضوع لحماية الإنجيل»؟

يقصد بهذا أنهم يعدون كشف الحساب الذي يلزمني أن أقدمه لله ويساعدونني .

ما معني «لحماية»؟

لقد عُينت للكراسة ويلزم أن أعطي حساباً وإجابة للعمل الذي تعين لي ، وهم يساعدونني حتى يسهل دفاعي ، لأنه لو كان هناك كثيرون تم إرشادهم وآمنوا فإن دفاعي سيكون سهلاً . لأنه يمكن القيام بعمل جيد من دافع ليس جيداً . ومن يتصرف هكذا لا توجد مكافأة في انتظاره ، لكن هناك عقوبة تنتظره . لأنهم إذ يكرزون بالمسيح رغبة في توريث كارز المسيح في مخاطر أعظم ، فهم لن ينالوا مكافأة ، لكنهم أيضاً سيتعرضون للانتقام والعقوبة .

«وأولئك عن محبة» أي أنهم يعلمون أنه يلزموني أن أعطى حساباً عن
(الكرازة) الإنجيل.

«فماذا غير أنه على كل وجه سواء كان بعللة أم بحق يُنادى بالمسيح»
(١٨:١).

أنظر إلى حكمة بولس. فإنه لم يلمهم بشدة، بل ذكر المحصلة
فيقول: ماذا يفرق عندي سواء تمت الكرازة بهذه الطريقة أو تلك؟
«فماذا غير أنه على كل وجه سواء كان بعللة أم بحق يُنادى بالمسيح».

لم يقل هنا «لُيُنَادَى بِالْمَسِيحِ» كما يفترض البعض أنه بهذا يفتح
الطريق للهراطقات، بل قال «يُنَادَى بِالْمَسِيحِ» أي انه لم يضع قانوناً
أو يعطِ تصريحاً بالكرازة التي تفتح الباب أمام الهراطقات، ولكنه تكلم
عما هو حادث بالفعل. وحتى لو كان قد وافق على الكرازة التي كانوا
يكرزون بها فإن هذا الأمر أيضاً لن يفتح الباب أو الطريق أمام الهراطقات.
لماذا؟ لأنهم لو كرزوا بطريقة سليمة رغم أن الهدف والغرض الذي
عملوا لأجله كان فاسداً، لكن الكرازة نفسها لم تتغير، ولكنهم كانوا
مجبرين على الكرازة هكذا. لماذا؟ لأنهم لو كرزوا بطريقة مخالفة لكرازة
بولس وعلموا بتعليم غير تعليمه لما كانوا قد زادوا من سخط الإمبراطور.
لكنهم عندما روجوا لكرازته، وعلموا بنفس الطريقة وصنعوا تلاميذ كما
فعل، فقد أصبحت لهم قوة لإغاظة الإمبراطور عندما يرى جموعاً غفيرة
من التلاميذ. لكن لو كان لأحد الأغبياء الأشرار أن يقول: بالحق كان
ينبغي لهم أن يعملوا العكس فيشتتوا الذين آمنوا بالفعل بدلاً من زيادتهم

لو كانوا يريدون مضايقة الإمبراطور. فبماذا سنجيب؟

لقد تطلعوا لهذا الشيء فقط وهو كيف يورطون بولس في الخطر الحاضر ولا يدعون له مفرّاً للإفلات منه، وهكذا ظنوا أنهم بالطريقة التي يعملون بها أي الكرازة بالإنجيل سوف يوغرون صدر الإمبراطور فتنطفئ شرارة الإنجيل.

ولو قاوموا الإنجيل وعملوا ضد بولس فإنهم كانوا سيضطفنون غضب الإمبراطور ولكانوا (بذلك) سيدعون بولس يمضي بحرية ويكرز ثانية، أما بهذا السعي فقد ظنوا أنهم لو فقط دمروه، فكل شيء بالتالي سوف ينتهي. لكن لم يكن للكثيرين هذه النية (الخبیثة)، بل لبعض الأشرار فقط.

بعد ذلك قال «وبهذا سأفرح، بل سأفرح أيضاً» (تابع ١: ١٨).

ما معنى «بل سأفرح أيضاً»؟ يقصد حتى لو عملوا أكثر من هذا. لأنهم يتعاونون معي رغماً عن إرادتهم، وسينالون عقوبة عن تعبيهم، بينما أنا الذي لم أساهم في هذا بشيء سأنال مكافأة.

هل هناك ما يفوق هذه الدناءة التي للشيطان في أن يوجد وسيلة عقوبة للكرازة وانتقام من الأتعاب (فيها)؟ انظروا كم من شرور كثيرة يطعن بها ذاته! من رتب كل هذا غير الشيطان البغيض وعدو خلاصهم؟ هل ترون كيف أن الذي يشن حرباً ضد الحق لا تكون لديه قوة بل بالأحرى يجرح نفسه كمن يضرب ضد المناخس؟

«لأنني أعلم أن هذا يؤول لي إلى خلاص بطلبتكم ومؤازرة روح يسوع المسيح» (١٩:١).

لا يوجد من هو أكثر سفالة من إبليس. فهو في كل مكان يورط الذين له في أتعاب غير مفيدة ويمزقهم. وهو لا يتيح لهم الحصول على المكافآت فقط بل يعرضهم للعقوبات أيضاً. لأنه لا يأمرهم بالكراسة بالإنجيل فقط، بل وبالصوم والتبتل أيضاً، بالطريقة التي بها لن يحرمهم من مكافآتهم، بل أيضاً سينزل بهم شروراً ثقيلة. وهو يقول أيضاً في موضع آخر من جهتهم «موسومة ضمائرهم» (١ تي ٤: ٢).

لذلك أتوسل إليكم أيها الأخوة، ليتنا نشكر الله على كل شيء لأنه خفف تعبنا وزاد مكافآتنا. لأن الذين يعيشون في البتولية بينهم لن ينالوا المكافآت التي سينالها من يعيشون بيننا متعفيين في الزيجة^١، بل إن الذين يحيون في البتولية من الهرطقة سيتعرضون لدينونة الزناة. وكل هذا لا ينبع من تصرفهم بغرض مستقيم، بل كمن يلوم خلائق الله وحكمته التي لا يُنطق بها.

لذلك ليتنا لا نكون متكاسلين. إن الله أقام أمامنا جهاداً بحدود ليس فيها تعب. لكن ليتنا لا نحتقره لأجل هذا. لأنه إن كان الهرطقة يبذلون أقصى جهدهم في أتعاب غير مجدية، فأبي عذر لنا إن لم نحتمل نحن الأتعاب التي هي أقل ولها مكافأة أعظم؟ لأنه أياً من وصايا المسيح هي شاقة؟ وأيها مكررة؟ هل أنت غير قادر على أن تحيا متبتلاً؟ مسموح لك أن تتزوج. هل أنت عاجز عن أن تتجرد من كل ما تملك؟ مُتاح

١- ليس المقصود بالتعفف في الزواج الامتناع عن العلاقات الزيجية المشروعة بل عدم الانغماس فيها بإفراط.

لك أن تزود الآخرين باحتياجاتهم مما لك. دع «فضالتك لأعوازهم» (٢كو٨: ١٤). إن هذه الأشياء تبدو متعبة! فما هي؟ أقصد أن تزدي بالمال وأن تتغلب على شهوات الجسد. لكن وصاياها الأخرى لا تتطلب ثمناً أو تغصباً. أخبرني أية مشقة تكابدها في عدم التحدث بكلام شرير والامتناع عن النميمة؟ أية صرامة توجد في عدم حسد خيرات الآخر؟ أية شدة تعانيها في عدم الانجراف للمجد الباطل؟ أن تتألم وتحتمل فهذا أمر يرجع إلى القوة. إن ممارسة الفلسفة (أي الحكمة) هو أمر يرجع إلى القوة (التي للعزيمة العاملة فيها النعمة). أن تحتمل الفقر في الحياة فهذه قوة. أن تصارع مع الجوع والعطش فهذا أمر نابع من القوة. أية صرامة هناك حيث لا يوجد أي من هذه الأشياء، بل أنت تستمتع بما لك كما يليق بمسيحي؟

من هذا المصدر ينبع الحسد، بل كل الشرور الأخرى هي بالأحرى لا تنبع من مصدر آخر سوى هذا، وهو أننا نلتصق بالأرضيات. لأنه لو اعتبرت أن المال ومجد هذا العالم لا شيء فلن تنظر نظرة شريرة إلى مالكيها. لكن حيث إنك تعجب بهذه الأشياء وتعشقها وتمتدحها، فلماذا السبب يزعجك الحسد والمجد الباطل، وكلها أمور تنشأ من عشق الأرضيات. هل تغار لأن هناك شخصاً آخر غنياً؟ لا تغر، فمثل هذا الإنسان الغني محتاج للشفقة ولدموع (تنسكب لأجله). لكن إن سخرت وإن أجببت في الحال بسخرية قائلاً: لا بل أنا الذي يحتاج للدموع (لأجل فقري) وليس هو! فأنت أيضاً تحتاج لمن يبكي عليك، ليس لأنك فقير، بل لأنك تظن نفسك تعيساً. نحن نبكي لأجل الذين ليس لديهم

هموم و (مع ذلك) فإنهم متذمرون، ليس لأن لا هموم لهم بل لأنهم يظنون أن لديهم هموماً. لنفترض مثلاً أن أحدهم شفي من الحمى ولا يزال قلقاً ويتقلب وهو راقد سليماً في فراشه، ألا يبكي الإنسان عليه أكثر من الذين هم بالفعل محمومون، لأن ليس فيه مرض ومع ذلك يظن أنه مريض؟ وأنت تحتاج لمن يبكي عليك لأنك تظن أنك تعيس وليس لأجل ففرك.

لماذا تحسد الإنسان الغني؟ هل لأنه عرّض نفسه لهموم كثيرة؟ لعبودية قاسية؟ هل لأنه مربوط مثل كلب بعشرة آلاف سلسلة أقصد لأمواله؟ المساء يباغته، الليل يباغته، لكن وقت الراحة بالنسبة له هو وقت الاضطراب والخوف والألم والقلق. عندما تحدث ضوضاء (في الخارج)، يقفز في الحال (من فراشه، خوفاً على ماله). هل سلب جاره؟ ورغم أنه لم يفقد شيئاً يكون مهموماً أكثر من جاره المسلوب. لأن الإنسان المسلوب فقد ما فقدته مرة، و كابد الألم لفترة تم تخلى بعد ذلك عن همّه (بعد حين)، أما الآخر دائماً همّه معه. الليل يأتي وهو ميناء (راحة من) أتعابنا، عزاء (من) بلايانا، دواء جروحنا. لأن الذين تثقلوا بحزن مفرط غالباً ما لا يعطون آذاناً صاغية لأصدقائهم وأقاربهم والقريبين إلى قلوبهم، ومراراً لا يسمعون حتى لأبيهم عندما يريحهم بكلمات تعزية، بل يستاءون من ذات هذه الكلمات، لأن مرارة الحزن تؤذي نفوسنا بطريقة أسوأ من أي حرق. وكما أن الجسد عندما يُنهك من المصارعة ضد شدة أشعة الشمس، ثم ينقل إلى مكان فيه ينابيع كثيرة تسوده نسيمات الهواء المنعشة (لملاشاة تأثير أشعة لشمس الحارقة)، كذلك الليل فإنه يسلم نفوسنا إلى النوم (ليشفينا من جراحات النهار). بل بالأحرى

يجب أن أقول، ليس الليل أو النوم هما اللذان يعطيان هذه (الراحة) بل الله الذي يعرف جنسنا المبتلى بالتعب، فقد جلب لنا هذه (الراحة)، بينما نحن لا نشفق على نفوسنا، كما لو كنا نعادي نفوسنا، واخترنا أن نبقى أسرى لقوة تحل محل الاحتياج الطبيعي للراحة، وأقصد بها الأرق الذي يأتي من الثروة. لأنه قيل «هموم الثروة تدفع النوم بعيداً» (بن سيراخ ٣١: ١ بحسب النص). انظر كم هو عظيم اهتمام الله، لكنه لم يخضع الراحة لمشيئتنا ولا الاحتياج للنوم لاختيارنا، بل ربطهما بضروريات الحياة، حتى يعمل معنا خيراً رغماً عن إرادتنا. لأن النوم هو (شيء مغروس) في طبيعتنا. ولكننا كمبغضين أشداء لنفوسنا بنفس قدر عداوتنا واضطهادنا لآخرين قد اخترعنا طاغية أعظم من احتياج الطبيعة هذا، وهو الطغيان الذي يأتي من المال.

وعندما تشرق شمس يوم جديد، يكون هذا الإنسان في رعب من احتمال سماع أخبار سيئة عن ممتلكاته، وعندما يأتي الليل يرتعب من اللصوص. وعندما ترد على ذهنه فكرة الموت، يرتعب لا من الموت فقط بل من فكرة أنه سيترك ثروته لآخرين. وعندما يرزق بآبٍ فإن رغبته في اقتناء الثروة والممتلكات تزداد وإذا لم يكن قد رزق بآباءٍ فإن متاعبه تزداد أكثر.

هل تعتبر الذي هو عاجز عن نوال بهجة من أي جانب سعيداً؟ هل يمكنك أن تغار ممن هو في خضم العاصفة، بينما أنت مستقر في الميناء الهادئ الذي للفقير؟ بالحقيقة هذا نقص (معيب) في الطبيعة البشرية لأنها لا تقدّر جيداً ما هو لخيرها بل تستاء من نجاحها ذاته.

وكل هذا يحدث على الأرض، لكن عندما نرحل إلى السماء اسمع ما يقوله الغني الذي له خيرات كثيرة كما تقول (إذ أنني من جانبي لا أدعو هذه الممتلكات خيراً بل هي أشياء قليلة الأهمية)، إذ يهتف قائلاً «يا أبي إبراهيم ارحمني وأرسل لعازر ليبل طرف إصبعه ويبرد لساني لأنني معذب في هذا اللهب» (لوقا ١٦: ٢٤). لأنه حتى لو لم يعاني ذلك الغني شيئاً مما ذكرته، ولو أمضى كل حياته بدون مخاوف وهموم ولماذا أقول كل حياته بالحري تلك اللحظة (لأنها لحظة وحياتنا كلها ما هي إلا لحظة لو قورنت بالأبدية التي ليس لها نهاية)، لو كانت كل الأمور قد سارت بحسب رغبتك، ألا يلزم أن نرثي له لهذه الكلمات، بل بالأحرى لهذه الحالة التي آلت إليها الأمور؟ ألم تكن مائدتك فائضة بالخمور؟ الآن أنت لا تحتكم ولا على قطرة ماء وأنت في قمة احتياجاتك. ألم تهمل ذلك الفقير المملوء قروحاً؟ لكنك الآن تنتمس نظرة منه ولا أحد يعطيك هذا. إنه كان راقداً عند بابك، لكنه الآن في حضن إبراهيم. أنت كنت آنذاك راقداً تحت سقف بيتك الفخم، أما الآن تقبع في نار جهنم.

ليت الأغنياء يسمعون هذا الكلام، لا ليس الأغنياء بل قساة القلوب. لأنه لم يُعاقب لكونه غنياً، بل لأنه لم يُظهر شفقة. لأنه يمكن لمن هو غني وشفوق بأن واحد أن ينال كل خير. ولهذا السبب فإن عيني الغني لم تكونا مثبتتين على شخص آخر سوى من كان يطلب صدقته حتى يعرف من تذكره لأعماله السابقة أن عقوبته كانت عادلة. ألم يكن يوجد فقراء عديدون كانوا أبراراً غير لعازر؟ لكن ذاك الذي كان آنذاك

مطروحاً عند بابه، هو الوحيد الذي رآه ليعلمه ويعلمنا كم هو خير عظيم أن لا نضع ثقتنا (وقلوبنا) في الغنى (والمال). إن الفقر لم يعق لعازر عن الحصول على الملكوت، بينما لم يساعد الغني الآخر على تحاشي جهنم. أين الحد الذي عنده يكون الإنسان فقيراً؟ أين الحد الذي عنده يهبط الإنسان حتى إلى الفقر المدقع؟ لا يكون فقيراً من لا يملك شيئاً، بل الفقير هو الذي يشتهي أشياء كثيرة! ليس غنياً من يملك مقتنيات كثيرة، بل الغني هو من لا يقف في موقف الاحتياج إلى شيء. لأن ما المنفعة أن تمتلك العالم كله ومع ذلك تحيا في كآبة أعظم من الذي لا يملك شيئاً؟ إن استعدادات قلوب الناس وليس فيض المال أو العوز إليه هو الذي يجعل الناس فقراء أو أغنياء.

هل تود يا من أنت فقير أن تصير غنياً؟ يمكنك أن تصير هكذا بإرادتك ولا يمكن لأحد أن يعيقك. احتقر غنى العالم واعتبره لا شيئاً ولا يمكن لأحد (آنذاك) أن يعيقك. احتقر غنى العالم واعتبره لا شيئاً كما هو بالفعل هكذا. اطرح عنك شهوة المال وأنت في الحال تكون غنياً!

غني هو الذي لا يرغب في أن يصير غنياً، ومن لا يرتضي بأن يكون فقيراً (في المال) هو فقير. كما أنه معتوه من كان في كامل صحته ويندب حاله (بتوهمه أنه مريض)، وليس الذي يحتمل مرضه بخفة أكثر من الصحة السليمة^٢، كذلك أيضاً يكون فقيراً من لا يستطيع احتمال الفقر، بل في وسط غناه يظن نفسه أفقر من الفقير، وليس الذي يحتمل فقره بخفة أكثر ممن يحتملون غناهم، لأنه رجل أغني^٣.

٢- يقصد هنا أنه يحتمل مرضه كما لو كان سليم الصحة ولا يعاني مرضاً.

لكن أخبرني : لماذا تخاف الفقر؟ لماذا ترتعب منه؟ أليس لأجل الجوع؟ أليس لأجل العطش؟ أليس لأجل البرد؟ أليس لأجل هذه الأشياء؟ لا يوجد من هو أبداً في عوز لهذه الأشياء «تأملوا في الأجيال الأولى وانظروا من توكل على الرب فخزي. أو من ثبت بخشيته فأهمل. أو من استغاثه فرفضه؟» (بن سيراخ ٢ : ١٠). وأيضاً «انظروا إلى طيور السماء. إنها لا تزرع ولا تحصد ولا تجمع إلى مخازن. وأبوكم السماوي يقوتها» (مت ٦ : ٢٦). لا يمكن لأحد أن يسارع ويشير إلى شخص اتكل على الرب وهلك من الجوع والبرد. فلماذا ترتعبون من الفقر؟ لا يمكنكم أن تقولوا (لماذا). لأنه لو كان لديك أموال كافية فلماذا ترتعب منه؟ لأنه لا يوجد لديك خدم كثيرون؟ هذا تحرر من السيادة. هذه سعادة دائمة. هذا هو التحرر من الهم. هل لأن آنيتك وسريرك وأثاثك غير مصنوعة من الفضة؟ وأي تلذذ يشعر به أكثر منك من يملك هذه الأشياء؟

لا يوجد فرق على الإطلاق. إن الاستعمال هو نفس الاستعمال سواء كانت هذه المشغولات مصنوعة من الفضة أو خلافه. هل لأنك غير مُهاب من الكثيرين؟ ليتك لا تصير هكذا أبداً! لأنه أية لذة في أن يقف أحد أمامك وهو مرتعد منك؟

هل لأنك خائف من آخرين؟ لكن يمكنك أن لا تخاف. لأن «أتريد أن لا تخاف السلطان؟ أفعّل الصلاح فيكون لك مدح منه» (رو ١٣ : ٤).

٣- يبدو لي هنا أن ذهبي الغم يود القول إن الفقير الذي يحتمل فقره كما لو كان غير فقير هو أغنى من الغني الذي يستطيع التعامل مع مساوي الغنى دون أن يتضرر منه، لكن هذا الفقير أغنى روحياً.

هل هناك من يقول: لأننا قد نتعرض للازدراء فهل نعانى من الشر؟ ليس الفقر هو الذي يسبب هذا بل الشر. لأن فقراء كثيرين قضاوا كل حياتهم في هدوء، بينما الحكام والأغنياء والأقوياء أنهموا حياتهم في تعاسة أكثر من فاعلي الشر ومن قطاع الطرق ولصوص المقابر.

لأن ما الذي يجلبه الفقر في حالتك ويجلبه الغنى في حالتهم؟ لأن ما يصنعه الذين يسيئون إليك، يصنعونه بك من خلال حالتك المزرية، هم يعملونه للغني من باب الغيرة والنظرة الشريرة التي يلقونها عليه، بل إن الغني يُعامل بازدراء أكثر منك، لأن الاشتياق إلى إساءة معاملة الآخر تكون أكثر شدة في حالته. الذي يحسد يفعل كل شيء بأقصى جهده، بينما غالباً ما يشفق المُزدري بالمُزدري به وكثيراً ما يكون فقره وعوزه الشديد للقوة سبباً في إنقاذه.

ولو قلنا: أية منفعة جزيلة ستجنيها لو قتلت الفقير، لهدئنا بهذا من غضبه. لكن الحسود يجعل نفسه ضد الغني ولا يتوقف حتى يعمل ما يريد ويسكب كل سُمّه. هل ترى أن لا الفقر ولا الغنى هو خير في حد ذاته، بل هذا يتوقف على استعداداتنا للأسلوب الحسن والتعامل معهما بحكمة.

لو أن هذا تم حسناً، فلا الغنى يمكنه أن يطرحنا من المنكوت ولا الفقر يجعلنا نخيب (نقشل). بل سنحتمل الفقر بوداعة ولن نخسر من جهة التلذذ بالخيرات الآتية ولا حتى من الخيرات التي هنا على الأرض، بل سنستمتع بما هو خير على الأرض ونحصل على الخيرات السماوية التي

نتعشم الحصول عليها بنعمة ورأفة ربنا يسوع المسيح الذي له مع الآب
والروح القدس، المجد والقوة والإكرام الآن وإلى دهر الدهور آمين.

العظة الثالثة

(فيلبي ١: ١٨-٢٤)

وَبِهَذَا أَنَا أَفْرَحُ. بَلْ سَأَفْرَحُ أَيْضًا. لِأَنِّي أَعْلَمُ أَنَّ هَذَا يُؤْوِلُ لِي إِلَى خَلَاصٍ بِطَلْبَتِكُمْ، وَمُؤَاظَرَةَ رُوحِ يَسُوعَ الْمَسِيحِ، حَسَبَ انْتِظَارِي وَرَجَائِي أَنِّي لَا أَخْزِي فِي شَيْءٍ، بَلْ بِكُلِّ مُجَاهَرَةٍ كَمَا فِي كُلِّ حِينٍ، كَذَلِكَ الْآنَ، يَتَعَزَّمُ الْمَسِيحُ فِي جَسَدِي، سِوَاءَ كَانَتْ بِحَيَاةٍ أَمْ بِمَوْتٍ. (١: ١٨-٢٠).

لا شيء من الأمور المحزنة التي في هذا العالم يمكنه أن ينشب مخالبه في تلك النفس السامية التي هي بالحق تعيش بحسب الحكمة، سواء كانت هذه الأمور عداوة أو اتهامات أو نميمات أو مخاطر أو مكائد. إنها تطير لتتحصن في قلعة قوية وتكون هناك في حماية أمينة من الهجمات التي تأتيها من الأرض السفلية.

هكذا كانت نفس بولس، فهي امتلكت موضعاً أعلى من أي قلعة، إذ امتلكت مقعد الحكمة الروحية التي هي الفلسفة الحقيقية. لأن فلسفة الذين من خارج، أي غير المؤمنين، هي مجرد كلام ولهو أطفال. لكننا لا نتكلم عن هذا الآن، بل عما يختص ببولس. هذا الطوباوي كان يعاديه كل من الإمبراطور وأعداء ألداء كثيرون آخرون كانوا يؤذونه بطرق شتى،

بل وبنميمة مرة. وماذا يقول هو؟ إنه يقول: لن أحزن أو أخور تحت ثقل هذه الأمور، بل «أنا أفرح، بل سأفرح أيضاً» ليس لفترة معينة بل دائماً سأفرح لهذه الأمور. «لأنني أعلم أن هذا يؤول لي إلى خلاص» هذا الذي يحدث عندما تساهم عداوتهم أيضاً وغيرتهم من نحوي في نشر الإنجيل.

ثم أضاف قوله «بطلبتكم ومؤازرة روح يسوع المسيح حسب انتظاري ورجائي».

انظر إلى الذهن المتواضع لهذا الطوباوي. إنه كان يجاهد في الحلبة، واقترب الآن من إكليله وحقق انتصارات كثيرة، وماذا يمكن للإنسان أن يضيف لهذا؟

لا يزال يكتب إلى أهل فيلبي قائلاً «هذا يؤول لي إلى خلاص بطلبتكم» أنا الذي نلت الخلاص عن طريق إنجازات لا حصر لها. ويقول «ومؤازرة روح يسوع المسيح». إنه كما لو كان يقول: إن كنت أظن أنني جدير بصلواتكم، أظن أيضاً أنني سأكون جديراً لنعمة أكثر. لأن معنى «مؤازرة» هو هذا: إن كان الروح قد آزرني، فهو يُعطي لي بفيض أكثر. أو هو يتحدث عن نجاة «إلى خلاص» أي «سأفنت أيضاً من الخطر الحاضر كما نجوت من السابق. وعن نفس هذا الأمر يقول «في احتجاجي الأول لم يحضر أحد معي بل الجميع تركوني. لا يحسب عليهم. ولكن الرب وقف معي وقواني» (٢ تي ٤: ١٦، ١٧)، لذلك يتنبأ الآن قائلاً «بطلبتكم ومؤازرة روح يسوع المسيح. حسب انتظاري ورجائي»

(في ١: ١٩، ٢٠). لأن هذا ما أرجوه. ولكي يقنعنا بأن لا نترك الأمر كله للصلوات المرفوعة عنا ولا نساهم بشيء من عندنا، انظر كيف قدّم ما عليه، الذي هو الرجاء مصدر كل الخيرات كقول النبي «لتكن يا رب رحمتك علينا حسبما ترجيناك» (مز ٣٣: ٢٢). وكما هو مكتوب في موضع آخر «تأملوا في الأجيال الأولى وانظروا من توكل على الرب فخزي أو من ثبت بخشيته فأهمل. أو من استغاثه فرفضه؟» (بن سيراخ ٢: ١٠). وأيضاً نفس هذا الطوباوي يقول «الرجاء لا يخزي» (روه: ٥). هذا هو رجاء بولس: الرجاء بأني لن أخزي أبداً.

يقول الرسول «حسب انتظاري ورجائي أنني لا أخزي في شيء».

هل ترى كم أنه شيء عظيم أن يكون لك رجاء في الله؟ (فلسان حاله) يقول: مهما حدث فلن أخزي، فلن يسودوا عليّ «بل بكل مجاهرة كما في كل حين، كذلك الآن يتعظم المسيح في جسدي»

إنهم توقعوا أن يمسكوا ببولس في هذه المصيدة ويخمدوا الكرازة بالإنجيل كما لو كانت حيلتهم لها أية قوة. لذلك هو يقول: هذا لن يكون هكذا فلن أموت الآن «كما في كل حين كذلك الآن يتعظم المسيح في جسدي». كيف هذا؟

مراراً ما سقطت في مخاطر، عندما تخلى كل الناس عني، بل وما هو أكثر من هذا عندما خرت أنا نفسي، لأنه «كان لنا في أنفسنا حكم الموت» (٢كو ٩: ٩)، لكن الرب نجاني من كل المخاطر، كذلك الآن أيضاً يتعظم المسيح في جسدي. فماذا؟ لئلا يظن أحد ويقول: إن حكم عليك بالموت

يا بولس أفلا يتعظم المسيح؟ فيجيب بولس: نعم، أنا أعلم أنه سيتعظم، لهذا السبب لم أقل إن حياتي وحدها ستعظمه، بل موتي أيضاً. وهو يقصد الآن «بحياة» إنهم لن يقتلوني، وحتى لو فعلوا هذا فالمسيح بهذا أيضاً يتمجد. كيف هذا؟

بالحياة لأنه نجاني (من المخاطر)، لكن «بموتي» لأنه حتى الموت نفسه لا يمكنه أن يجعلني أنكره، لأن المسيح أعطاني مثل هذا الاستعداد وجعلني أقوى من الموت. فمن ناحية لأنه نجاني من الخطر، ومن ناحية أخرى لأنه لم يسمح لي أن أخاف من طغيان الموت، وهكذا يتعظم المسيح في جسدي سواء كان بحياة أو بموت. وهذا لا يقوله وكأنه كان على وشك أن يموت، لكن لئلا يتأثر البعض لموته، لأن الناس معرضون لهذا (التأثر السلبي). لكن لكي تعلموا أن كلماته هذه لا تشير إلى موت وشيك، وهو الفكر الذي يؤلمهم كثيراً، انظر كيف يريحهم من هذا الفكر وكأنه يقول لهم: «أنا أقول هذا الكلام، ليس كمن هو على وشك الموت»، لذلك أضاف في الحال «فإذ أنا واثق بهذا أعلم أنني أمكث وأبقى مع جميعكم» (في ١: ٢٥). إنه يقول «إني لا أخزي في شيء» (في ١: ٢٠)، أي أن الموت لن يخزيني، بل بالأحرى سيجلب لي ربحاً عظيماً. لماذا؟ لأنني غير خالد، لكنني سألع ببهاء أكثر مما لو كنت خالداً، لأنه لن يحدث نفس الشيء لمن هو خالد ومن هو مائت عندما يزدري بالموت إذ رد فعلهما مختلف، فإني لا أخزي في شيء لا في الحياة ولا في الموت. لأنني سأحتمل كليهما بنبلٍ سواء الحياة أو الموت، فهذا هو دور النفس المسيحية!

لكنه يضيف «بكل مجاهرة».

ألا ترى كيف أنني خالٍ تماماً من كل خزي؟ لأنه لو أن الخوف من الموت قد قلل من مجاهرتي، لكان الموت يستحق الخزي، لكن لو كان الموت قريباً مني ومع ذلك لم يرعيني فلا خزي هنا، سواء كان بحياة فلن أخزي لأنني لازلت أبشر بالإنجيل، أو بموت فلن أخزي فالخوف لن يعيقني إذ أنني لازلت أظهر نفس المجاهرة. ألم تفكروا في الأمر على أنه مخزي عندما ذكرت قيودي، لكن قيودي كانت سبباً لخير متعدد الأوجه في أنها أعطت ثقة لآخرين. لأنه أن تُقيد لأجل المسيح، فهذا ليس بخزي، لكن أن تخاف القيود التي لأجل المسيح فهذا هو الخزي.

عندما لا يوجد مثل هذا الخوف، فالقيود تكون بالأولى سبباً للجسارة. لكن حيث إنني مراراً أفلتت من المخاطر وكان هذا سبب افتخار لي أمام غير المؤمنين فلا تظنوا سريعاً أنني خزيت، إذ أن الحال ليس هكذا الآن. فالإفلات من المخاطر يعطيني جسارة لا تقل عن عدم الإفلات منها.

لاحظ كيف أنه يقدم هذا في شخصه، الأمر الذي يعمله في مواضع أخرى كما في رسالة رومية إذ يقول «لأنني لست أستحي بإنجيل المسيح» (روا: ١٦)، وأيضاً في رسالة كورنثوس الأولى يقول «فهذا أيها الإخوة حولته تشبيهاً إلى نفسي وإلى أبلوس» (١كو٤: ٦).

«سواء كان بحياة أم بموت»

لا يقول هذا كما لو كان عن جهل (لأنه علم أنه لن يموت الآن، بل بعد ذلك بفترة)، لكنه الآن أيضاً يُعد نفوسهم.

«لأن لي الحياة هي المسيح والموت هو ربح» (١: ٢١).

إنه يقصد: لأنه حتى بالموت لن أموت لأن حياتي في، إذ سيقتلونني حقاً لو كانت لديهم القوة عن طريق هذا الخوف لنزع الإيمان من نفسي. لكن طالما أن المسيح في، فحتى لو أدركني الموت، فإنني لازلت عائشاً، وفي هذه الحياة الحاضرة، ليست هذه حياتي بل حياتي هي المسيح. لذلك حيث إنه ولا في الحياة الحاضرة الأمر هكذا «فما أحياء الآن في الجسد، فإنما أحياء في الإيمان» (غلا ٢: ٢٠). كذلك أقول في تلك الحالة أيضاً «فأحيا لا أنا، بل المسيح يحيا في» (تابع غلا ٢: ٢٠). هكذا ينبغي للمسيحي أن يكون!.

يقول الرسول: أنا لا أحياء الحياة العادية.

فكيف تعيش أيها الطوباوي بولس؟ ألا ترى الشمس؟ ألا تتنفس الهواء؟ ألا تتغذى بنفس الطعام مثل آخرين؟ ألا تسير على الأرض مثلنا؟ ألا تحتاج إلى الطعام والملبس والحذاء؟ ماذا تقصد بعبارة «أحيا لا أنا»؟ كيف لا تحيا أنت؟ لماذا تفتخر بنفسك؟

لا يوجد افتخار هنا. لأنه إن كانت للحقائق تشهد له، فكيف يكون هذا افتخاراً؟ لذلك نتعلم هنا كيف أنه لا يحيا هو، لأنه هو نفسه يقول في موضع آخر «صُلب العالم لي وأنا للعالم» (غلا ٦: ١٤). اسمع

إذا كيف يقول «أحيا لا أنا» (غلا ٢: ٢٠)، وكيف يقول «لي الحياة هي المسيح» (في ١: ٢١).

أيها الأحياء إن كلمة «حياة» لها أهمية أكثر مثلها مثل كلمة «موت». توجد حياة للجسد وتوجد حياة للخطية، كما يقول هو نفسه في موضع آخر «نحن الذين متنا عن الخطية كيف نعيش بعد فيها؟» (رو ٦: ٢). إذاً يمكن أن يحيا الإنسان حياة الخطية.

أتوسل إليكم أن تنصتوا باجتهاد لئلا يضيع تعبي عبثاً. توجد حياة خالدة مع حياة أبدية سماوية «فإن سيرتنا (وطننا) نحن هي في السموات» (في ٣: ٢٠). توجد حياة للجسد والتي عنها يتكلم «به نحيا ونتحرك ونوجد» (أع ١٧: ٢٨). إذاً فهو لا ينكر أنه يحيا الحياة الطبيعية، لكنه لا يحيا حياة الخطية التي يحيها كل الناس. الذي لا يريد الحياة الحاضرة فكيف يحيها؟ الذي يُسرع إلى حياة أخرى كيف يحيا هذه الحياة؟ الذي يزدرى بالموت كيف يحيا هذه الحياة؟ الذي لا يريد شيئاً كيف يحيها؟ لأن ما هو مصنوع من الماس فحتى لو ضُرب ألف ضربة لن يتأثر أبداً بهذا الضرب، وبولس أيضاً (لن يعيره انتباهاً). ويقول «أحيا لا أنا» أي «لا يحيا الإنسان العتيق في بعد»، كما يقول أيضاً في موضع آخر: «ويحي أنا الإنسان الشقي. من ينقذني من جسد هذا الموت» (رو ٧: ٢٤). كيف يحيا من لا يعمل أي عمل من أجل الطعام، ومن أجل الملابس، ومن أجل أي من هذه الأمور الحاضرة؟ إنسان مثل هذا لا يحيا الحياة الطبيعية: الذي لا يهتم بشيء مما يقوت الحياة الحاضرة لا يحيا. نحن نحيا هذه الحياة التي لا بد أن نعمل

فيها حتى نعيش. لكن بولس لم يحيا ولم يشغل نفسه أبداً بشيء من الأشياء هنا. فكيف عاش؟ تماماً كما اعتدنا القول في الأمور العامة «إن مثل هذا الإنسان (باله) ليس معي. عندما لا يعمل شيئاً يختص بي»، أيضاً وبطريقة مماثلة «إنسان مثل هذا لا يحيا لأجلي». وفي موضع آخر يبين بولس أنه لا يلفظ الحياة الطبيعية إذ يقول «فما أحياءه الآن في الجسد، فإنما أحياءه في الإيمان، إيمان ابن الله الذي أحبني وأسلم نفسه لأجلي» (غلا ٢: ٢٠)، أي أنا أحياء نوعاً مختلفاً من الحياة الجديدة، وهو بالحقيقة ذكر كل هذه الأقوال ليريح أهل فيلبي. وكأنه يقول: لا تظنوا أنني سأحرم من هذه الحياة، لأنه حتى وأنا عائش، لم أعش هذه الحياة، بل عشت الحياة التي أرادها المسيح. أخبروني هل الذي يحتقر المال، الترف، الجوع، العطش، والأخطار، الصحة، الأمن ٠٠ يحيا هذه الحياة؟ الذي لا ممتلكات لديه هنا ويرتضي مراراً أن يتخلى عن الحياة لو طلب منه ذلك، وهو غير متعلق بها، هل هو يحيا هذه الحياة؟ لا على الإطلاق.

هذا يلزمي أن أوضحه لكم بمثال. لنتخيل أن أحدهم لديه ثروة عظيمة مع خدم كثيرين وذهب وفير ولا يستفيد من كل هذه الأشياء، فهل مثل هذا الإنسان غني لأجل كل ثروته؟ لا على الإطلاق.

لندعه يرى أولاده يبذرون ماله، يتسكعون بتكاسل، ولندعه لا يتألم عندما يُضربون، فهل ندعوه إنساناً غنياً؟ لا على الإطلاق مع أن ثروته هي ملكه.

إن بولس يقول «لي الحياة هي المسيح» فإن سألت عن حياتي (أنا بولس)، أجب إنه هو حياتي «والموت هو ربح لي» لماذا؟ لأنني سأكون موجوداً معه، حتى إن موتي هو بالأحرى انتقال إلى الحياة، الذين يقتلونني لن يعملوا لي أمراً فظيماً، (بل) هم فقط يرسلونني مباشرة (حرفياً إلى الأمام) إلى حياتي الأصلية ويحررونني من الحياة التي ليست لي. فماذا، فبينما كنت هنا، هل لم تكن حياتي للمسيح؟ نعم كانت هكذا وبدرجة عالية.

«ولكن إن كانت الحياة في المسيح هي ثمر عملي فماذا أختار؟ لست أدري» (١: ٢٢).

لئلا يقول شخص ما: إن كنت تقول إن المسيح هو حياتك فلماذا تركك هنا؟

فيجيب بولس: إن الحياة هنا (في الجسد) «هي لي ثمر عملي، حتى إنه من الممكن استخدام الحياة الحاضرة لغرض حسن بينما أنا لا أحيها (كما يعمل أهل العالم). لئلا تظنوا أن الملامة ملقاة على الحياة، لأنه إن لم نجن منفعة هنا، فلماذا لا ننتحر ولا نقتل أنفسنا (كما يقول البعض ممن هم خارجاً)؟

فيجيب بولس رداً عليهم: أبداً، فإنه مُتاح لنا أن نربح حتى هنا إن لم نعش هذه الحياة (بحسب مفاهيم أهل العالم)، بل حياة أخرى (تليق بأولاد الله).

لكن ربما من يتساءل: هل تجلب لك هذه الحياة ثماراً؟

فيجيب بولس: نعم!

فأين الهراطقة الآن؟ لينظروا الآن قوله إن حياته في الجسد هي ثمر عمله «ما أحياه الآن في الجسد، إنما أحياه في الإيمان» لذلك هو «ثمر عملي».

«فماذا اختار؟ لست أدري»

كلام مدهش!

كم كانت فلسفته عظيمة!

كيف أنه طرح عنه شهوة الحياة الحاضرة، ومع ذلك لم يُلقِ عليها ملامة! لأن بقوله «الموت هو ربح» فقد طرح عنه شهوة الحياة، لكن بقوله «الحياة في الجسد هي لي ثمرة عملي» فهنا أظهر أن الحياة الحاضرة هي أيضاً مطلوبة، إن استخدمناها كما ينبغي، إن أثمرنا، لأنها إن كانت غير مثمرة فهي لم تعد حياة. لأننا نزدري بتلك الأشجار التي لا تحمل ثمراً، ونطرحها في النار. إن الحياة ذاتها تقع ضمن الأشياء الحيادية بينما أن تحيا بطريقة حسنة أو سيئة، فهذا أمر يتوقف علينا.

إذاً نحن لا نكره الحياة، لأنه يمكننا أيضاً أن نحياها بطريقة حسنة. لذلك حتى لو أسأنا استخدامها، فنحن مع ذلك لا نلقي الملامة عليها. لماذا؟ لأن الحياة في حدها ذاتها غير ملومة، بل الملوم هو الإرادة الحرة لمن

أساءوا استخدامها. لأن الله قد جعلك حياً لكيما تحيا له ، لكنك بحياتك في الفساد والخطية ، جعلت نفسك مسئولاً عن كل ملامة (بشأنها).

أخبرني ماذا تقول (يا بولس الرسول)؟ ألا تعرف ماذا تختار؟

إن بولس هنا قد أظهر سراً عظيماً في أن رحيله كان في متناول يده ، لأنه حيث يكون الاختيار ، هناك يكون لنا سلطان. هو يقول «فماذا أختار؟ لست أدري».

هل هذا الاختيار في مقدورك؟

فيجييب: نعم ، فلو أردت ، سأطلب من الرب هذه النعمة.

«فإني محصور بين الاثنين. لي اشتها أن أنطلق وأكون مع المسيح. ذاك أفضل جداً» (١ : ٢٣).

انظر إلى حنان هذا الطوباوي ، فهو بهذه الطريقة أيضاً يريحهم (يعزيهم) ، عندما يرون أنه متحكم في اختياره ، وهذا يتم ليس بخطية إنسان (أي لا يتوقف على خطية إنسان أو كنتيجة لها) ، بل بتدبير الله. وهو (كأنه) يقول: لماذا تنتحبون لموتي؟ إنه من الأفضل جداً لي أن أعبّر إلى هناك.

ويواصل كلامه قائلاً:

«أن أنطلق وأكون مع المسيح ذاك أفضل جداً. ولكن أن أبقى في الجسد ألزم من أجلكم» (١ : ٢٤).

إن هذه الكلمات كانت تعدهم لهذا الموت عندما يحدث حتى يحتملوه

بشجاعة ، وهذا كان لتعليمهم الحكمة الحقيقية. إنه خير لي أن «أنطلق وأكون مع المسيح» لأن الموت نفسه هو شيء حيادي ، إذ الموت في حد ذاته ليس شراً ، بل الشر هو أن تُعاقب بعد الموت. وليس الموت خيراً (في حد ذاته) ، بل الخير بعد الموت هو أن نكون مع المسيح. ما يعقب الموت يكون إما خيراً أو شراً.

لذلك ليتنا لا نحزن وحسب لأجل الميت ، ولا نفرح لمجرد أننا نحيا. لكن كيف (نفرح أو نحزن)؟

لنحزن لأجل الخطاة ، ليس فقط عندما يموتون ، بل أيضاً وهم لا يزالون أحياء. لنفرح لأجل البار ليس فقط بينما هو حي ، بل أيضاً عندما يموت. لأن الخطاة أموات رغم أنهم لا يزالون أحياء (بالجسد) ، بينما الأبرار ولو أنهم أموات (بالجسد) لا زالوا أحياء (بالروح). ولنا أن نرثي للخطاة حتى وهم هنا (على الأرض) لأنهم في عداوة مع الله ، بينما الأبرار مطوبون حتى لو رحلوا إلى السماء ، لأنهم انطلقوا إلى المسيح. الأشرار حيثما وجدوا ، بعيدون عن الملك (المسيح) ، لذلك هم الذين ينبغي البكاء عليهم ، بينما البار ، سواء كان هنا (على الأرض) أو هناك (في السماء) ، فهو مع الملك ، وهناك في درجة أعلى وأقرب ، ليس في مرآة أو بالإيمان ، بل «وجهاً لوجه» (١كو١٣: ١٢).

لذلك ليتنا لا ننتحب للموتى وحسب ، بل ننتحب لمن ماتوا في الخطية ، فهم مستحقون للنحيب وقرع الصدور والبكاء. أخبرني إذاً أي رجاء لنا عندما تصطحبنا خطايانا إلى هناك حيث لا يوجد لها

غفران؟ وطالما كان الخطاة موجودين هنا، كان يوجد رجاء عظيم في أنهم سيتغيرون وأنهم سيصيرون أفضل، لكن إذ قد ذهبوا إلى الجحيم حيث لا يمكن أن توجد أبداً منفعة من الندم [لأنه مكتوب «ليس في الجحيم من يشكر» (مز: ٦: ٥)] أفلا يكونون مستحقين لنحبينا؟ لنتحب لأجل أولئك الذين رحلوا من هنا وهم في مثل هذا الحال، لنتحب لأجلهم وأنا لن أعيقكم عن ذلك لكن ليس بطريقة غير لائقة، ليس بنتف شعرنا أو تعريية أذرعنا أو تجريح وجهنا أو لبس ملابس سوداء، بل ننتحب بالروح ذارفين عليهم دموعاً حارة في هدوء. لأنه يمكننا أن نبكي بمرارة دون كل هذه المظاهر. ولا نبكي لمجرد اللهو، لأن النحيب الذي يصنعه الكثيرون لا يختلف في شيء عن اللهو. لأن الأحزان العلنية لا تنبع من تعاطف بل من مظهر، من افتخار ومجد باطل. كثير من النساء يعملن هذا كمحترفات. البكاء بمرارة والنحيب في البيت عندما لا يراك أحد، هذا هو مجال التعاطف الحقيقي، بهذا أنت تنفع نفسك أيضاً. لأن الذي يبكي على آخر بمثل هذه الطريقة، سيجتهد جداً ألا يقع في نفس الخطايا، إذ أن الخطية ستكون من الآن سبب رعب لك. ابك لأجل غير المؤمنين، ابك لأجل الذين لا يختلفون عنهم في شيء، ولأجل الذين يرحلون من هنا غير معتمدين وبدون الختم. إنهم بالحق يستحقون نحبينا وتأوهنا، إنهم خارج القصر (السماوي) مع المجرمين والمدانين «الحق أقول لك إن كان أحد لا يولد من الماء والروح لا يقدر أن يدخل ملكوت الله» (يو: ٣: ٥). ابك لأجل الذين ماتوا أغنياء ولم يفكروا في أي عزاء لنفوسهم من ثروتهم والذين كان بمقدورهم أن يزيلوا خطاياهم (بالصدقة وأعمال الرحمة) ولم يفعلوا. لنبك لأجل كل هؤلاء سراً وعلانية لكن بلياقة ووقار

وليس لكي نستعرض أنفسنا، ولنبيك لأجل كل هؤلاء ليس ليوم أو يومين بل كل حياتنا. مثل هذه الدموع تنبع من حب حقيقي. النوع الآخر من الدموع (الاستعراض) ينبع من انفعال لا معنى له. لهذا السبب تنتهي هذه الدموع بسرعة، بينما التي تنبع من مخافة الله تبقى معنا دائماً. لنبيك لأجل هؤلاء ولنساعدهم بقدر استطاعتنا، ولنفكر في تقديم بعض المساعدة لهم حتى ولو كانت ضئيلة لكن مع ذلك فلنساعدهم. كيف وبأية طريقة؟ بالصلاة والتوسل لآخرين أن يصلوا لأجلهم، باستمرار التصدق على الفقير لأجلهم. هذا العمل له بعض التعزية، إذ أسمع كلمات الله نفسه عندما يقول «سأحامي عن هذه المدينة من أجل نفسي ومن أجل داود عبدي» (٢مل ٢٠: ٦). إن كان مجرد تذكار إنسان بار له مثل هذه القوة العظيمة، فإن صنعت أعمالاً لأجل واحد، فكم لا تكون القوة أعظم؟ ليس اعتباطاً أن الرسل قد أوصوا بأن يُصنع هذا التذكار في الأسرار المقدسة (القداس الإلهي).

إنهم يعلمون أن رباً عظيماً ينتج لهم وأن منفعة عظيمة تتأتى عندما يقف الشعب كله بأيدي ضارعة في اجتماع كهنوتي وتلك الذبيحة المهيبة بادية للعيان، فكيف لا نجعل الله يستجيب لتوسلاتنا لأجلهم؟ وهذا نصنعه لأجل الذين ماتوا في الإيمان، بينما نظن أن الموعوظين غير جديرين حتى بهذه التعزية، بل هم محرومون من كل سبيل المعونة عدا وسيلة واحدة. وما هي؟ وهي أن تتصدق على الفقير لأجلهم. إن هذا العمل ينعشهم بطريقة ما. لأن الله يريدنا أن نتبادل المعونة وإلا فلماذا أمرنا بالصلاة لسلام وخير العالم؟ لماذا نصلي نيابة عن كل الناس؟ لأن

للصوص ومنتهكي حرمة القبور، السارقين، والناس المحملين بجرائم لا حصر لها يندرجون ضمن هذا العدد، ولكن نحن نصلي لأجل الكل لعلمهم يتوبون. لذلك كما نصلي لأجل أولئك الأحياء الذين لا يفرقون في شيء عن الموتى، كذلك أيضاً نحن نصلي للموتى. إن أيوب قدم ذبيحة عن أولاده وعتقهم من خطاياهم، فهو (كان) يقول «ربما أخطأ بني وجدفوا على الله في قلوبهم» (أي ١: ٥). وهكذا يقدم الإنسان لأولاده (صلوات تفيدهم وقدوة روحية تثيرهم بما يؤول لخلصهم). ولم يقل (أيوب) كما يقول كثيرون في هذه الأيام: سأترك لهم الثروة. ولم يقل: وأحصل لهم على الشرف أو يقول: سأدبر (حرفياً سأشتري) لهم وظيفة، أو يقول: سأشتري لهم أرضاً، بل قال «ربما أخطأ بني وجدفوا على الله في قلوبهم». لأنه أية منفعة هناك من هذه الأشياء؟ لا منفعة على الإطلاق في الأشياء التي تبقى هنا. إنني سأجعل (الله) ملك الكل راضياً عنهم وعندئذ لن يكونوا بعد في حاجة إلى شيء، والمزمور يقول «الرب راعي فلا يعوزني شيء» (مز ٢٣: ١). هذه ثروة عظيمة، هذا كنز. لو أن لنا مخافة الله فلن نحتاج إلى شيء، وإن لم تكن لنا هذه المخافة، فحتى لو كان لنا عرش المملكة ذاته، فنحن أفقر جميع الناس. لا يوجد شيء مماثل من يخاف الرب. لأنه قيل «مخافة الرب تفوق كل الأشياء» (بن سيراخ ٢٥: ١١ بحسب النص).

لذلك فلنحصل على هذه المخافة ولنعمل كل شيء في سبيل نوالها. لو احتاج الأمر أن نبذل حياتنا ولزم أن يُقطع جسدنا إرباً، فليتنا لا نشفق عليهما بل لنعمل كل شيء للحصول على هذه المخافة.

لأنه بهذا سنقتني أكثر من كل الناس، وسنحصل على الخيرات
الآتية في المسيح يسوع ربنا الذي له مع الآب والروح القدس،
المجد والإكرام والقوة الآن وكل أوان وإلى دهر الدهور آمين.

العظة الرابعة

(فيلبي ١: ٢٢-٣٠)

فَمَاذَا أَخْتَارُ؟ لَسْتُ أَدْرِي! فَإِنِّي مَحْصُورٌ مِنَ الْإِثْنَيْنِ: لِي اشْتِهَاءٌ أَنْ
أَنْطَلِقَ وَأَكُونَ مَعَ الْمَسِيحِ ذَاكَ أَفْضَلَ جِدًّا. لَكِنَّ أَنْ أَبْقَى فِي الْجَسَدِ أَلْزَمٌ مِنْ
أَجْلِكُمْ. فَإِذَا أَنَا وَاثِقٌ بِهَذَا أَعْلَمُ أَنِّي أَمْكُثُ وَأَبْقَى مَعَ جَمِيعِكُمْ لِأَجْلِ تَقَدُّمِكُمْ
وَفَرَحِكُمْ فِي الْإِيمَانِ، لِكَيْ يَزِدَّادَ افْتِخَارُكُمْ فِي الْمَسِيحِ يَسُوعَ فِي، بِوِاسِطَةِ
حُضُورِي أَيْضًا عِنْدَكُمْ (١: ٢٢-٢٦).

لا ليس هناك ما هو أكثر تطويلاً من روح بولس لأن لا شيء أكثر منها
نبلاً. إنني اعتدت القول: إننا جميعاً نرتعب من الموت، البعض لسبب
الخطايا الكثيرة وأنا واحد منهم، والبعض الآخر بسبب محبة الحياة
والجبن، وأنا لست من هذا الصنف أبداً. لأن الذين هم واقعون تحت
سطوة هذا الخوف هم مجرد حيوانات. إذاً فهذا (الموت) الذي نرتعب
منه كلنا هو يرجوه ويُسرع نحوه قائلاً «أن أنطلق، ذاك أفضل جداً».

ماذا تقول أيها الطوباوي؟ عندما أنت موشك أن تنتقل من الأرض إلى
السماء وتكون مع المسيح، ألا تعلم ماذا تختار؟

كلا، فهذا أبعد ما يكون عن روح بولس، لأنه لو قُدِّم مثل هذا العرض

لأي شخص بضمانات أكيدة، أفلا ينتهز في الحال هذه الفرصة ويُمسك بها؟ نعم، إذ كما أنه ليس بمقدورنا «أن ننطلق ونكون مع المسيح»، كذلك ليس بإمكاننا أن نبقى هنا حتى لو كان بإمكاننا أن ننطلق ونكون مع المسيح. لكن كلاهما كانا في مقدور بولس وروحه. إنه كان مقتنعاً (بهذا الاختيار) بمنتهى الثقة.

ماذا (تقول يا بولس)؟ هل أنت موشك أن تكون مع المسيح؟ وهل تقول «ماذا اختار، لست أدري؟». وليس هذا فقط، بل هل تختار الإقامة هنا «أن أبقى في الجسد»؟ ما هذا يا ترى؟ ألم تعيش حياة ممتلئة بالمرارة في «أسهار، غرق السفينة ثلاث مرات، في جوع وعطش، في برد وعري، في هموم وقلق»؟ «مع الضعيف تضعف وتلتهب لمن يعثر» (٢كو ١١: ٢٧-٢٩)، «في صبر كثير، في شدائد، في ضرورات، في ضيقات. في ضربات، في سجون، في اضطرابات، في أتعاب، في أسهار، في أصوام، في طهارة» (٢كو ٦: ٥، ٦)، «خمس مرات قبلت أربعين جلدة إلا واحدة، ثلاث مرات ضُربت بالعصي. مرة رُجمت. ليلاً ونهاراً قضيت في العمق. بأخطار سيول. بأخطار لصوص، بأخطار في المدينة، بأخطار في البرية، بأخطار من إخوة كذبة» (٢كو ١١: ٢٤-٢٦).

عندما ارتد كل أهل غلاطية إلى العيش بحسب الناموس، ألم تصح بصوت عالٍ قائلاً «أيها الذين تتبررون بالناموس سقطتم من النعمة» (غل ٥: ٤)، كم كان حزنك عظيماً آنذاك، أفلا تزال ترغب هذه الحياة الفانية؟ لو لم يكن قد أصابك شيء من كل هذا بل قد نجحت وكان النجاح حليفك وكنت بدون خوف وممتلئاً بهجة، ألا ينبغي لك مع ذلك

أن تسارع إلى ميناء ما خوفاً من مستقبل غير مؤكد؟ أخبرني عن أي تاجر تكون سفينته مملوءة بثروة لا حصر لها هل عندما يمكنه أن يسارع إلى الميناء ويكون في راحة يفضل أن يبقى في (عرض) البحر؟ أي مصارع عندما يمكنه أن يُتوج يفضل أن يستمر في منازلة خصمه؟ أي ملاكم عندما يمكنه أن يلبس إكليله يفضل أن يدخل الحلبة من جديد ويعرض رأسه للجروح؟ أي قائد عندما يمكنه أن يتخلص من الحرب بتقرير حسن وانتصارات (رائعة) ويمكنه أن ينعش نفسه مع الملك في قصره، لا يزال مع هذا يفضل التعب والوقوف في صفوف القتال في المعركة؟ فكيف يا من تعيش حياة ممتلئة بالمرارة لا تزال ترغب في أن تبقى هنا؟ ألم تقل أنا مرتعب «حتى بعدما كرزت للآخرين لا أصير أنا نفسي مرفوضاً» (١كو٩: ٢٧).

حتى لو كان الحاضر مملوءاً بخيرات لا حصر لها ينبغي لك أن تشتهي انطلاقك، إن لم يكن لسبب آخر، فليكن بسبب رغبتك الشديدة للقاء المسيح حبيب نفسك.

يا لروح بولس هذه! لم يكن شيء أبداً مثلها ولن يكون!

أنت تخاف المستقبل (١كو٩: ٢٧)، ومحاط بأشياء كثيرة مميتة، أفلا تريد أن تكون مع المسيح؟

فيجييب: لا، وهذا لأجل المسيح، حتى أرد له بحب أكثر أولئك الذين جعلتهم عبيده، ولكي أجعل الحقل الذي زرعته يأتي بثمر كثير (١كو٩: ٩). ألم تسمعوني عندما أعلنت أنني «غير طالب ما يوافق

نفسى» (١كو١٠: ٣٣)، بل طالب ما يوافق (يفيد) قريبي؟ ألم تسمعوا هذه الكلمات «كنت أود لو أكون أنا نفسى محروماً من المسيح» (رو٩: ٣) لكي يأتى كثيرون إليه؟ أنا الذى اخترت ذاك القدر (النصيب)، ألن أختار بالأولى هذا، أن أضرب نفسى بمسرة بهذا التأخير والتأجيل حتى يخلصوا؟

«من سينطق بأعمالك الجبارة يا رب» (مز١٠٦: ٢) لأنك لم تسمح لبولس أن يكون مخفياً، لأنك أظهرت للعالم إنساناً كهذا؟ «كل ملائكة الله تسبحك باتفاق عندما صنعت الكواكب» (أي٣٨: ٧)، وكذلك بالتأكيد عندما صنعت الشمس، لكن ليس كثيراً كما عندما أظهرت بولس للعالم كله. ببولس جعلت الأرض أكثر بهاء من السماء (المرئية)، لأنه أكثر بهاء من ضياء الشمس، فهو قد أطلق أشعة أكثر بهاءاً وقد بعث أشعة مفرحة أكثر. أي ثمر حمله هذا الإنسان لنا! ليس بازدياد قمحنا، ولا بتغذية رماننا، بل بإنتاج وتكميل ثمر القداسة، وعندما تتحطم يستعيدها دوماً. لأن الشمس ذاتها لا يمكن أن تفيد الثمار التي فسدت بينما الذين بهم أعطاب متنوعة خلصهم بولس من خطاياهم. والشمس تخلي مكانها لليل، لكن بولس ساد على إبليس (الذي هو الظلمة عينها). لا شيء أبداً أخضعه، لا شيء ساد على بولس. إن الشمس عندما تكون في كبد السماء ترسل أشعتها، بينما بولس بمجرد قيامه من تحت لم يملأ الفضاء الوسيط للسماء والأرض بالنور، بل بمجرد أن فتح فاه، ملأ الملائكة بفرح غامر. لأنه «إن كان هناك فرح في السماء بواحد يتوب» (لو١٥: ٧)، بينما هو في أول عظة اصطاد كثيرين، أفلا يملأ بالفرح القوات السماوية؟ وماذا

أقول؟ يكفي فقط أن يُذكر اسم بولس فتطفر السموات بالفرح. لأنه إن كان عند خروج إسرائيل من مصر، الجبال قفزت مثل الكباش (مز ١١٤: ١)، ففي اعتقادك كم كان الفرح عظيماً عندما صعد البشر (وعلى رأسهم بولس) من الأرض إلى السماء.

لهذا السبب «أن أبقى في الجسد ألزم من أجلكم» (١: ٢٤).

وأي عذر لنا؟ يحدث مراراً أن من يملك القليل في مدينة صغيرة يرفض أن يرحل إلى موضع آخر مفضلاً راحته هو. كان بإمكان بولس أن ينطلق إلى المسيح (الذي هو يشتهيهِ جداً) ولكنه لا يريد بل أن يظل باقياً في الحلبه لأجل الإنسان (غير المؤمن). أي عذر سيكون لنا؟

انظر إلى أعماله. لقد بيّن أن الموت كان أفضل، مقنعاً نفسه ألا يحزن، وأظهر لهم أنه لو بقى، فإنه باقٍ لأجلهم، فبقاؤه ليس نابعاً من شر الذين تآمروا ضده (بل هو ألزم من أجلكم). لقد وضح لهم سبب بقائه أيضاً حتى يؤمن إيمانهم. لأنه إن كان هذا ضرورياً فسأبقى بكل وسيلة ولن يكون مجرد بقاء، بل «وأبقى مع جميعكم» (في ١: ٢٥). لأن هذا هو معنى «وأبقى مع»، أي سأراكم. لأجل أي سبب يا ترى؟ «لأجل تقدمكم وفرحكم في الإيمان». هنا أيضاً ينهضهم لينتبهوا لنفوسهم.

يقول بولس الرسول: لو سأبقى لأجلكم، فاحرصوا (حرفياً انظروا) ألا تخزوا بقائي. عندما كنت على وشك أن أرى المسيح فضلت أن أبقى «لأجل تقدمكم». لقد اخترت أن أبقى، لأن حضوري يجعل إيمانكم وفرحكم يتقدمان. فماذا؟ هل هو بقى لأجل أهل فيلبّي فقط؟ إنه لم يبق

لأجلهم فقط، بل يقول هذا حتى يُظهر اهتمامه بهم. وكيف كان لهم أن يتقدموا في الإيمان؟ يقصد هنا أن يتقنوا أكثر مثل طير صغير في حاجة إلى أمه حتى يتكون ريشه. إن هذا دليل على حبه العظيم. وعلى هذا النمط نحن أيضاً نستنهض البعض منكم عندما نقول: إنني بقيت لأجلكم حتى أجعلكم فاضلين.

«لكي يزداد افتخاركم في المسيح يسوع في بواسطة حضوري أيضاً عندكم» (١: ٢٦).

(ها) أنتم ترون أن هذه الآية تشرح معنى «أبقى مع». انظروا تواضعه. فإذا قال «لأجل تقدمكم»، يُظهر أن هذا كان لمنفعته هو أيضاً. وهذا أيضاً ما يعملُه عندما يكتب إلى أهل رومية «أي لنتعزى بينكم» (روا: ١٢)، إذ قد قال قبلاً «لكي أمنحكم هبة روحية» (روا: ١١).

وما معنى «لكي يزداد افتخاركم»؟ هذا الافتخار كان رسوخهم في الإيمان. لأن الحياة المستقيمة هي افتخار في المسيح. وهل تقول «افتخاركم في بواسطة حضوري أيضاً عندكم»؟

فيجيب بولس: نعم «لأن من هو رجاؤنا وفرحنا وإكليل افتخارنا. أم لستم أنتم أيضاً» (١ تسس ٢: ١٩)، «لأننا فخركم كما أنكم أيضاً فخرنا» (١ كو ١٤: ١٤)، أي لكي يمكنني أن أفرح بكم فرحاً عظيماً.

كيف تقول «لكي يزداد افتخاركم»؟ إنني سأفتخر أكثر عندما تتقدمون.

«بواسطة حضوري أيضاً عندكم».

فماذا؟ هل حضر عندهم؟

ابحث أنت إن كان قد ذهب إليهم أم لا.

«فقط عيشوا كما يحق لإنجيل المسيح» (١: ٢٧).

هل ترون كيف أن كل ما قاله كان هدفه تحويلهم إلى هذا الشيء الوحيد وهو تقدمهم في الفضيلة؟

«فقط عيشوا كما يحق لإنجيل المسيح»

ماذا تعني كلمة «فقط»، سوى هذا الشيء وليس آخر سواه - أن يكون هذا هو الشيء الوحيد الذي نسعى له؟ إن كان لنا هذا، فلن يصيبنا شيء محزن .

«حتى إذا جننت ورأيتكم أو كنت غائباً أسمع أموركم» (تابع ١: ٢٧).

وهذا يقوله كما لو كان قد غير قصده ولم يعد ينوي أن يفتقدهم. فيقول: لو أن هذا حدث، فحتى في غيابي أستطيع أن أفرح (إذ) «أنكم تثبتون في روح واحد بنفس واحدة» (تابع ١: ٢٧). هذا هو الذي فوق كل شيء يوحد المؤمنين ويحفظ الحب سليماً «ليكونوا واحداً» (يو ١٧: ١١)، لأنه «إن انقسمت مملكة على ذاتها لا تقدر تلك المملكة أن تثبت» (مر ٣: ٢٤). لأجل هذا السبب فإن السيد المسيح في كل موضع ينصح تلاميذه كثيراً بأن يكونوا متفقين. والمسيح يقول «بهذا يعرف الجميع

أنكم تلاميذي إن كان لكم حب بعضاً لبعض» (يو ١٣ : ٣٥). فلا تتطلعوا مترقبين إياي، ومن ثم تنعسون انتظاراً لمجيئي وعندما ترون أنني لم آت تخورون. لأنه يمكنني ولو عن طريق الخبر أن أفرح كذلك.

ما المقصود «في روح واحد»؟

بنفس هبة النعمة، أي بالاتفاق والغيرة، لأن الروح هو واحد وهو يظهره، لأنه آنذاك يمكننا أن نثبت «في روح واحد» وأيضاً عندما يكون لنا كلنا «روح واحد».

انظر كيف أن نفوسهم رغم أنها كثيرة فقد دُعيت «نفس واحدة» وهذا كان منذ القديم، لأنه مكتوب «وكان لجمهور الذين آمنوا قلب واحد ونفس واحدة» (أع ٤ : ٣٢).

«مجاهدين معاً لإيمان الإنجيل» (تابع ١ : ٢٧)

إنه يقصد بهذا ساعدوا بعضكم البعض في جهادكم لأجل الإنجيل.

«غير مخوفين بشيء من المقاومين، الأمر الذي هو لهم بيّنة للهلاك وأما لكم فللخلاص وذلك من الله» (١ : ٢٨).

حسناً قال مخوفين، لأن هذا هو ما يصيبنا من أعدائنا، فهم فقط يخيفون. لذلك هو يقول «غير مخوفين بشيء» مهما حدث سواء أخطار أو مؤامرات. لأن هذا هو نصيب القائمين، فإن العدو لا يمكنه أن يصنع لهم شيئاً بل يخيف فقط. لأنه كان من المحتمل أنهم انزعجوا جداً عندما عانى بولس شروراً بلا حصر كهذه، وهو يقول لهم: أنا أنصحكم

ليس فقط ألا تنزعجوا بل أيضاً ألا تخافوا، بل بالأحرى أن تزددوا بهم من كل قلوبكم، لأنه لو تصرفتم هكذا ستبرهنون في الحال بهذه الوسيلة على هلاكهم وخلصكم. لأنه عندما يرون أنهم عاجزون عن إخافتكم رغم مؤامراتهم التي لا تُحصى فسيعتبرون هذا دليلاً على هلاكهم. لأنه عندما لا يسود المُضطهدون على المُضطهدين منهم، والمتآمرون على من هم هدف لمؤامرتهم والمتسلطون على من هم خاضعين لسلطانهم، ألا يدل هذا على أن هلاكهم وشيك وأن قوتهم لا شيء وأنهم هم الأضعف؟

وهو يقول «وذلك من الله» (تابع ١: ٢٨).

«لأنه قد وهب لكم لأجل المسيح لا أن تؤمنوا به فقط بل أيضاً أن تتألموا لأجله» (١: ٢٩).

مرة أخرى يعلمهم الإلتضاع بأن يحيل كل شيء إلى الله، فيقول إن الآلام لأجل المسيح هي نعمة وعطية النعمة هي هبة مجانية. إذاً فلا تخزوا من هبة النعمة، لأنها مدهشة أكثر من إقامة الموتى أو صنع المعجزات، لأنه هناك أنا مدين، أما هنا فالمسيح مدين لي. لذلك يلزمنا ليس فقط ألا نخزى بل أيضاً أن نفرح أن لنا هذه الهبة. إنه يدعو الفضائل هبات، لكن ليس بنفس الطريقة مثل الأشياء الأخرى، لأن تلك الأشياء هي من الله كلياً، لكننا في هذه لنا (أي لإرادتنا) نصيب. لكن حيث إن الدور الأعظم هنا أيضاً هو لله، لذلك فقد نسبه كله له، ليس لكي يلغي إرادتنا

الحرّة، بل ليجعلنا متضعين ومهيئين بطريقة صحيحة.

﴿إذ لكم الجهاد عينه الذي رأيتموه في﴾ (١ : ٣٠)

يقدم بولس نفسه لهم مثلاً. وهنا أيضاً يرفعهم بأن أظهر لهم في كل موضع أن جهادهم كان مثل جهاده ونضالهم كان مثل نضاله، وأنهم اتحدوا معه في تحمل التجارب. إنه لم يقل «الذي سمعتموه» بل قال «الذي رأيتموه» لأنه جاهد أيضاً في فيليبى. وبالحق هذه فضيلة فائقة. لذلك عند كتابته لأهل غلاطية قال أيضاً «أهذا المقدار احتملتم عبثاً إن كان عبثاً» (غلا: ٤). وأيضاً عند كتابته إلى العبرانيين قال «ولكن تذكروا الأيام السالفة التي فيها بعد ما أنرتم، صبرتم على مجاهدة آلام كثيرة. من جهة مشهورين (أي مشهّر بكم) بتعبيرات وضيقات ومن جهة صائرين شركاء الذين تُصرف فيهم هكذا» (عب ١٠ : ٣٢، ٣٣). وأيضاً في كتابته إلى المكدونيين، أي إلى أهل تسالونيكي قال «لأنهم هم يخبرون عنا أي دخول كان لنا إليكم» (١ تس ١ : ٩). وأيضاً «لأنكم أنتم أيها الإخوة تعلمون دخولنا إليكم أنه لم يكن باطلاً» (١ تس ٢ : ١) وبنفس الطريقة يشهد لنفس الأشياء لهم كلهم من أتعاب وجهاد. لكنكم لن تجدوا الآن مثل هذه الأشياء بيننا، فالآن يكون كثيراً لو أن واحداً عانى القليل من الخسارة في ممتلكاته بمفرده. بينما من جهة ممتلكاتهم يشهد بولس أيضاً لأعمالهم العظيمة، فيقول للبعض «لأنكم قبلتم سلب أموالكم بفرح» (عب ١٠ : ٣٤)، ولآخرين يقول «لأن أهل مكدونية وأخائية استحسنا أن يصنعوا توزيعاً لفقراء القديسين» (رو ١٥ : ٢٦)، ولغيرهم يقول «غيرتكم قد حرّضت الأكثرين» (٢ كو ٩ : ٢).

هل ترون المدح الذي كان لأناس ذلك العصر؟ لكننا نحن لا نحتمل القليل من الصفعات أو اللكمات أو الإهانة أو فقدان ممتلكاتنا. هم كانوا تلقائيين في غيرتهم وكلهم جاهدوا كشهداء، بينما نحن قد فترت محبتنا للمسيح. وأنا مُجبر أيضاً أن ألوم أموراً حاضرة، فماذا سأفعل؟ إن هذا يحدث رغماً عني. لو كنت أستطيع أن أزيلها بصمتي عن الأشياء التي عُمِلت وركوني إلى السكوت لكان يليق بي أن أكون صامتاً. لكن لو أن العكس حدث، ولم تتم إزالة هذه الأعمال، بل آلت إلى حالة أكثر سوءاً فنحن مُجبرون على الكلام. لأن الذي يوبخ الخطاة لن يتيح لهم التمادي حتى وإن لم يفعل شيئاً آخر. لأنه لا توجد نفس وقحة ومتهورة لا ترجع وتعديل عن المغالاة في أفعالها الشريرة عند سماعها من يوبخها باستمرار. حتى في النفس الوقحة هناك بعض من الحياء. لأن الله قد بذر في طبيعتنا بذار الحياء، إذ أن الخوف غير كافٍ ليأتي بنا إلى الصواب، لذلك هو أعد أيضاً طرقاً كثيرة لتجنب الخطية. ومنها على سبيل المثال: توجيه الملامة للإنسان^١، الخوف من القوانين المشروعة، محبة الصيت الحسن، الرغبة في تكوين صداقات^٢، لأن كل هذه قنوات لتحاشي الخطية. إن (الصالح) الذي لم يُعمل لأجل الله، كثيراً ما عُمِل بسبب الخزي والخجل، والذي لم يُعمل لأجل الله عُمِل لأجل الخوف من البشر.

وما نسعى إليه هو أنه: أولاً ألا نخطئ، وبعد ذلك سننجح في عمل هذا (تنفيذ وصايا الله) لأجل الله، وإلا لماذا نصح بولس أولئك الذين كانوا على وشك أن يجعلوا أعداءهم في متناول أيديهم (أي ينتقموا منهم)

١- يقصد ذهبي الغم هنا الخوف من فضيحة توجيه لائحة اتهام على الملأ.

٢- يقصد هنا تحاشي العداوات وما يترتب عليها من خطايا.

ليس بواسطة خوف الله بل بدافع الانتظار للنقمة^٣؟ ويقول بولس الرسول «لأنك إن فعلت هذا تجمع جمر نار على رأسه» (رو ١٢ : ٢٠) لأن هذه هي رغبة بولس الأولى: ينبغي أن نمارس فضيلتنا (عملياً). إذاً كما قلت توجد فينا لمسة حياة. نحن لدينا عواطف طبيعية حسنة كثيرة تؤدي إلى الفضيلة، كلنا كبشر نتحرك نحو الشفقة^٤ طبيعياً، وليس هناك شيء آخر يلازم طبيعتنا إلا الشفقة فقط. من أين يعقل لأحد أن يستفهم لماذا هذه البذار قد عُرسَتْ في طبيعتنا فوق كل شيء إذ بها نذوب لدموع الآخرين وبها نتحول إلى الرحمة ونكون مستعدين للشفقة، بل إن الشفقة مغروسة في أعماق طبيعة كل واحد مهما كان عنيفاً وقاسياً. وما العجب في هذا؟ نحن نشفق على الوحوش، فهذا الفيض من الشفقة مغروس في أعماقنا. لو رأينا شبل الأسد (ينزف دماً) فنحن إلى حد ما نتأثر، فكم بالأولى شخص من جنسنا. انظر كم من مشوهين كثيرين هناك! وهذا يكفي لأن يقودنا إلى الشفقة. لا شيء يرضي الله كثيراً مثل الرحمة. لذلك كان الكهنة والملوك والأنبياء يُمسحون بهذا، لأنه كان لهم في الزيت نوع من محبة الله للإنسان، وهم تعلموا أيضاً أن الرؤساء ينبغي لهم مشاركة أعظم في الرحمة. لقد أظهرت أن الروح (القدس) يأتي للبشر (يحل عليهم) عن طريق الرحمة لأن الله شفوق وعطوف على الإنسان. لأنه مكتوب «أنت ترحم الكل لأنك قادر على عمل كل الأشياء» (حكمة سليمان ١١ : ٢٤ بحسب النص). لأجل هذا السبب قد دُهنوا بالزيت وهو (أي الله) قد

٣- انظر (رو ١٢ : ١٩) «لا تنتقموا لأنفسكم أيها الأبياء، بل أعطوا مكاناً للغضب. لأنه مكتوب لي النقمة أنا أجازي يقول الرب».

٤- في كل ما يأتي المقصود بالشفقة الرحمة ولذا لزم التنويه.

عَيْن الكهنوت رحمة منه. والملوك مُسحوا بالزيت، ولو أراد أحد أن يمتدح الرئيس فلا يمكنه أن يذكر شيئاً يليق به مثل الرحمة. لأن الشفقة من خصائص السلطة.

اعتبر أن العالم أُقيم على الشفقة (أي بدافع منها)، وبعد ذلك اقتد بآلهك. «رحمة الإنسان على قريبه، وأما رحمة الرب فهي على كل ذي جسد» (بن سيراخ ١٣: ٨). كيف أن رحمة الرب هي «على كل ذي جسد»؟

أنت تقصد الجميع سواء كانوا خطاة أو أبراراً، كلنا نحتاج لرحمة الله، وكلنا نتمتع بها حتى لو كان هذا الشخص هو بولس أو بطرس أو يوحنا.

(وتأييداً لكلامي) اسمع لكلماتهم إذ لا حاجة هناك لكلماتي، فماذا يقول هذا الطوباوي (بولس)؟

«ولكني رُحمت لأنني فعلت بجهل» (١ تي ١: ١٣).

فماذا؟ هل بعد ذلك لم يكن هناك احتياج للرحمة بالنسبة له؟ اسمع ما يقوله «بل أنا تعبت أكثر منهم جميعهم. ولكن لا أنا بل نعمة الله التي معي» (١ كو ١٥: ١٠). وعن أبفردوتس يقول «فإنه مرض قريباً من الموت، لكن الله رحمته، وليس إياه وحده بل إياي أيضاً لئلا يكون لي حزن على حزن» (في ٢: ٢٧). وأيضاً يقول «إننا تثقلنا جداً فوق الطاقة حتى أيسنا من الحياة. لكن كان لنا في أنفسنا حكم الموت لكي لا نكون

متكلمين على أنفسنا بل على الله الذي يقيم الأموات. الذي نجانا من موت مثل هذا وهو ينجي» (٢كو١: ٨-١٠). وأيضاً قوله «فأنقذت من فم الأسد وسينقذني الرب» (٢تي٤: ١٧، ١٨). وسنجده في كل موضع يفتخر بأنه قد نجا برحمة الله. وبطرس أيضاً صار هكذا عظيماً، لأن الله قد أظهر له الرحمة. اسمع المسيح يقول له «هوذا الشيطان طلبكم لكي يغربلكم كالحنطة. ولكنني طلبت من أجلك لكي لا يفني إيمانك» (لو٢٢: ٣١، ٣٢). ويوحنا أيضاً صار هكذا عظيماً من خلال الرحمة وبالاختصار صاروا كلهم هكذا. اسمع المسيح عندما يقول «ليس أنتم اخترتموني بل أنا اخترتكم» (يو١٥: ١٦). لأننا كلنا نحتاج لرحمة الله كما هو مكتوب «رحمة الرب هي على كل ذي جسد» (سيراخ١٨: ١٣).

لكن إن كان هؤلاء الناس (المجدون) احتاجوا لرحمة الله، فماذا ينبغي للإنسان أن يقول عن بقية الناس؟ أخبرني لماذا يشرق شمس على الأشرار والصالحين (مت٥: ٤٥)؟ لو أنه منع المطر لمدة عام ألا يهلك الكل؟ وماذا لو أنه جعل المطر فائضاً؟ ماذا لو أمطر ناراً؟ ماذا لو أرسل الجراد؟ لكن ماذا أقول؟ لو كان سيفعل هذا كما عمل من قبل (الجفاف أو الطوفان) أما كان يهلك الكل؟ لو كان سيزلزل الأرض أما كان يهلك الكل؟ إنه من المناسب القول الآن «ما هو الإنسان حتى تذكره» (مز٨: ٤). لو كان له فقط أن يهدد الأرض (بكارثة كونية) لصار كل البشر في مقبرة واحدة. إنه مكتوب «هوذا الأمم كمنقطة من دلو وكغبار الميزان تحسب» (إش٤٠: ١٥). لقد كان سهلاً على الله أن يلاشي كل الأشياء ويصنعها

٥- العجيب أن الجراد اجتاح مصر وليبيا وهي ليست من المناطق المعتادة لاجتياح جحافل وأسراب الجراد الأحمر.

من جديد كسهولة قلبنا للميزان (لتنظيفه من الغبار). إذا الذي له مثل هذا السلطان علينا ويرانا نخطئ كل يوم ومع ذلك لا يعاقبنا، كيف يحتملنا هو إلا برحمته؟ والبهائم أيضاً توجد برحمته «أنت يا رب تحفظ الناس والبهائم» (مز ٣٦: ٦ بحسب النص). إنه تطلع إلى الأرض وملاها بالكائنات الحية. ولماذا؟ من أجلك.

ولماذا خلقك؟

من فيض صلاحه خلقك.

لا يوجد شيء أفضل من الزيت. إنه سبب النور، وهناك أيضاً الرحمة^٦ هي سبب النور (الروحي). فإن أظهرت شفقة لقريبك «حينئذ ينفجر مثل الصبح نورك» (إش ٥٨: ٨) كقول النبي. وكما أن الزيت الطبيعي يحوي النور^٧، فهكذا الرحمة (الصدقة) تمنحنا نوراً عظيماً وعجيباً. وبولس أيضاً ذكر كثيراً صنع هذه الرحمة. اسمعه في أحد المواضع يقول «غير أن نذكر الفقراء» (غل ٢: ١٠)، وفي مكان آخر يقول «وإن كان يستحق أن أذهب أنا أيضاً» (١ كو ١٦: ٤). اقلب صفحات الرسائل في أي موضع شئت، ستراه متلهفاً لهذا الموضوع. وأيضاً «وليتعلم من لنا أيضاً أن يمارسوا أعمالاً حسنة» (تي ٣: ١٤). وأيضاً «أن هذه الأمور هي الحسنة والنافعة للناس» (تي ٣: ٨). اسمع شخصاً آخر يقول «الصدقة تنجي من الموت» (طو ١٢: ٩). لو أزلت الشفقة (أي الرحمة) «فمن يا

٦- إن كلمة الزيت والرحمة متقاربتان في الحروف والنطق في اللغة اليونانية التي يتكلم بها ذهبي الفم وهو هنا يلعب على وتر هذا التشابه المذكور.

٧- معروف بالطبع أن المصابيح كان يتم ملؤها آنذاك بالزيت وهذا ما يعنيه ذهبي الفم هنا.

رب يثبت» (مز ١٣٠: ٣). وقيل لو دخلت «في المحاكمة مع عبدك (لن يتبرر قدامك حي)» (مز ١٤٣: ٢). «شيء عظيم هو الإنسان» (أم ٢٠: ٦ بحسب النص). لماذا؟ «وشيء مُكرم هو الإنسان الرحوم» (تابع أم ٢٠: ٦). لأن هذه هي الصفة الحقيقية للإنسان أن يكون رحوماً بل بالأولى صفة الله هي إظهار الرحمة.

هل ترى كم قوية هي رحمة الله؟ هذه الرحمة صنعت كل شيء، هذه الرحمة كونت العالم، هذه الرحمة صنعت الملائكة، وكل هذا كان من خلال الصلاح المحض. لهذا السبب أيضاً هدد بجهنم لكيما ندرك الملكوت، وسندرك الملكوت من خلال الرحمة. لماذا خلق الله كل هذه الكائنات الكثيرة؟ ألم يكن هذا بصلاحه؟ ألم يكن لمحبهته للبشر؟ لو سألت لماذا تلك الأشياء، ستجد إجابتك دائماً في صلاح الله. فلنظهر رحمة لأقربائنا (في البشرية عموماً) حتى يُظهر الله لنا رحمة. إن أعمال الرحمة لا نظهرها لهم بقدر ما ندخر منها رصيداً لأنفسنا ضد ذلك اليوم الرهيب. عندما يكون لهيب النار عظيماً، فهذا الزيت (الرحمة) هو الذي يطفئه، وهو الذي يجلب لنا النور. وهكذا بهذه الوسيلة سننجو من نار جهنم. إذ من أين سيشفق علينا ويرحمنا؟ الرحمة تأتي من الحب! لا شيء يغيظ الله كثيراً مثل أن تكون قاسي القلب. «إنسان أحضر إليه كان مدين بعشرة آلاف وزنة فتحرك بالشفقة وعفا عنه. وكان مديناً لهذا الإنسان رفيق له عليه مئة فلس، فأمسك بخناقه. لذلك أسلمه سيده إلى المعذبين حتى يوفي الفلس الأخير». ليتنا عند سماعنا هذا الكلام أن نكون رحومين لمن هم مدينون لنا بالمال أو بالخطايا. ليت لا يتذكر

أحد الشرور، إن كان على الأقل لا يرغب في أذية نفسه، لأنه لا يكدر الآخر بقدر ما يكدر نفسه. لأنه (أي الله) سينتقم (لك) منه، أما إذا لم يتصرف هكذا، بل انتقمت أنت لنفسك (ولم تنتظر انتقام الله)، فهل تطلب الملكوت بينما أنت لم تغفر لقريبك خطاياهم؟ فلنغفر لكل لثلاثي يحدث هذا لنا حتى يغفر الله لنا خطايانا، وهكذا نحصل على الخيرات المنتظرة بنعمة ورأفة ربنا يسوع المسيح الذي له مع الآب والروح لقدس المجد والإكرام الآن وكل أوان وإلى دهر الدهور آمين.

العظة الخامسة

(فيلبي ٢: ١-٤)

فَإِنْ كَانَ وَعَظٌ مَا فِي الْمَسِيحِ. إِنْ كَانَتْ تَسْلِيَةٌ مَا لِلْمَحَبَّةِ. إِنْ كَانَتْ شَرَكَةٌ مَا فِي الرُّوحِ. إِنْ كَانَتْ أَحْشَاءُ وَرَأْفَةٌ، فَتَمَمُوا فَرَحِي حَتَّى تَفْتَكِرُوا فِكْرًا وَاحِدًا، وَلَكُمْ مَحَبَّةٌ وَاحِدَةٌ بِنَفْسٍ وَاحِدَةٍ، مُفْتَكِرِينَ شَيْئًا وَاحِدًا، لَا شَيْئًا يَتَحَزَّبُ أَوْ يُعْجَبُ، بَلْ بِتَوَاضُعٍ، حَاسِبِينَ بَعْضُكُمُ الْبَعْضَ أَفْضَلَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ. لَا تَنْظُرُوا كُلُّ وَاحِدٍ إِلَى مَا هُوَ لِنَفْسِهِ، بَلْ كُلُّ وَاحِدٍ إِلَى مَا هُوَ لِآخَرِينَ أَيْضًا. (في ٢: ١-٤).

لا يوجد من هو أفضل وأكثر حناناً من المعلم الروحي، فمثل هذا الإنسان يفوق حنانه حنان أي أب طبيعي. انظر فقط كيف أن هذا الطوباوي يتوسل إلى أهل فيلبي فيما يختص بالأشياء التي كانت تؤول لمنفعتهم. ماذا يقول في نصحه لهم من جهة الاتفاق الذي يسبب كل الخيرات؟ انظر كيف باجتهاد وحمية وبتعاطف كثير يتحدث قائلاً «فإن كان وعظ ما في المسيح» أي إن كان لكم تعزية في المسيح، كما لو كان يقول: لو تعملون أي اعتبار لي، لو كان لكم أي اهتمام بي، لو نلتم أي خير على يدي - افعلوا هذا. نحن نستخدم هذا النمط من الاجتهاد

عندما نطلب أمراً نفضّله فوق كل شيء آخر. لأنه لو لم نكن نفضّله على كل شيء آخر، ما كنا نرغب في نواله في مكافأتنا عن كل الأشياء.

نحن في الواقع نفكر الناس بمطالبنا الجسدية، فمثلاً لو كان الأب يقول (لابنه): لو كنت تتذكر الاكرام الذي حظيت به مني (كل هذه السنين)، لو كان لديك أي ود نحوي، لو كنت تتذكر أنني أطعمتك، لو كنت تتذكر عطفني عليك فلا تكن في عداوة مع أخيك، أي أنني أسألك المقابل لكل هذه الأشياء. لكن بولس لم يتصرف هكذا، فهو لم يذكرنا بشيء جسدي، بل كان ما ذكرنا به هو إحسانات روحية. أي لو أردتم أن تعطوني راحة، أو عزاء حب، لو أردتم أن تظهروا شركة في الروح، لو كان لكم أحشاء ورأفة فتمموا فرحي.

«إن كانت أحشاء ورأفة».

إن بولس يتحدث عن اتفاق تلاميذه كرافة نحوه، وهكذا يُظهر أن الخطر كان شديداً لو كانوا بغير اتفاق. لو استطعت أن أحصل على راحة منكم، لو استطعت أن أحصل على أية تعزية من حبكم، لو استطعت أن أشارك معكم في الروح، لو أمكن أن تكون لي رفقة معكم في الرب، لو أمكن أن أجد راحة وشفقة على أيديكم، فأظهروا بحبكم، المقابل لكل هذا. كل هذا قد ربحته، لو أحببتم بعضكم البعض.

«فتمموا فرحي» (٢: ٢)

لكي لا يبدو الإرشاد (النصح) وكأنه قد أسدي لمن لا يزالوا ناقصين،

انظر كيف أنه لم يقل «فرحوني» بل قال «تمموا فرحي»، أي لقد بدأت
بغرس الفرح في، لقد أعطيتموني بالفعل قدرًا من الطمأنينة، لكنني أرغب
في الوصول إلى الكمال.

قل ماذا تريد؟ هل ننجيك من المخاطر؟ هل نسدد لك شيئاً من
احتياجاتك؟

ليس هكذا، بل ما أريده هو «أن يكون لكم فكر واحد ولكم محبة
واحدة» (١:٢).

انظروا كيف يكرر نفس الشيء بسبب محبته العظيمة «حتى تفتكروا فكراً
واحداً، أو بالأحرى حتى تكونوا متفقين» لأن هذا أكثر من أن يكون لهم
فكر واحد.

«ولكم محبة واحدة»

أي لا تدعوا الأمر فقط من جهة الإيمان وحده، بل أيضاً في كل الأمور
الأخرى. لأنه قد يكون لنا الفكر الواحد ولكن بدون المحبة.

«ولكم محبة واحدة» أي تحب وتُحب على السواء.

لا تتمتع بحب كثير وتُظهر حباً أقل لكي لا تكون جشعاً حتى في هذا
الأمر. بل لا تدع نفسك تعاني من هذا.

ثم أضاف قوله «بنفس واحدة» أي مخصصين بنفس واحدة، أجساد
الكل، ليس في الجوهر لأن هذا مستحيل، بل في الغرض والقصد. لتتبع

كل الأشياء كما من نفس واحدة.

ما المقصود «بنفس واحدة»؟

إنه يوضح هذا الأمر عندما يقول «مفكرين شيئاً واحداً» (تابع ٢: ٢).
ليت ذهنكم يكون واحداً كما لو من نفس واحدة.

«غير عاملين شيئاً بتحزب» (٢: ٣).

أخيراً يطلب هذا منهم ويخبرهم عن الطريقة التي يتم بها هذا «غير عاملين شيئاً بتحزب أو بعجب (أي بانتفاخ ومجد باطل) فهذا كما أقول دائماً هو سبب كل الشرور. من هنا تأتي الحروب والمنازعات. من هنا تأتي الغيرة والخصومات. إنه من هنا يبرد الحب، عندما نحب مديح الناس، عندما نكون عبيداً للإكرام الذي يأتي من كثيرين، لأنه لا يمكن للإنسان أن يكون عبداً للمدح (الذي يأتي من الناس) ويكون أيضاً عبداً حقيقياً لله.

فكيف سنهرب من المجد الباطل (العجب)؟ لأنك لم تخبرنا بعد بطريقة الهروب. استمع إذاً لما يلي ذلك:

«بل بتواضع حاسبين بعضكم البعض أفضل من أنفسهم» (تابع ٢: ٣)

كم تمتلئ هذه الكلمة الشاملة الجامعة للخلاص التي قدمها في هذه الآية بحكمة حقيقية. إنه يقصد: لو اعتبرت أن الآخر أعظم من نفسك وأقنعت ذاتك بهذا. بل وأكثر من هذا، إذا لم تقل هذا فقط، بل كنت مقتنعاً به جداً، حينئذ تقدم أنت له الإكرام، وإن قدمت له الإكرام فلن

تستاء عند رؤيتك الآخرين يكرمونه. فلا تظنه مجرد أعظم من نفسك بل أفضل، حيث أن الأفضل يعني سموً أعظم جداً، ولذلك لن تظنه شيئاً غريباً أو مؤلماً لو رأيته مُكرّماً. بل حتى لو عاملك بازدراء، احتمال هذا بنبل لأنك قد اعتبرته أعظم من نفسك. مع أنه يسبك، اخضع له. مع أنه يسئ إليك، احتمله في صمت. لأنه ما أن تتيقن النفس تماماً أن الآخر أعظم، فإنها لن تغضب أبداً من سوء معاملته ولا حتى تحسده، لأن لا أحد يحسد من هو أسوأ منه، إذ كل ما هو سامي ينتمي له.

إذاً هو هنا يعلم أحد الأطراف أن يكون فكره هكذا. لكن عندما الآخر أيضاً الذي يتمتع بمثل هذا الإكرام منك يتأثر هكذا من ناحيتك، فإن جداراً (أو سوراً) مضاعفاً من الحلم سوف يقام بينكما (انظر في ٤ : ٥). إذ عندما تعتبره هكذا جيداً بالإكرام وهو بالمثل يعتبرك هكذا جيداً بالإكرام، فلا يمكن لشيء مؤلم أن ينشأ بينكما، لأنه إن كان هذا التصرف عندما يظهره أحدهما يكفي لملاشاة كل نزاع، فمن يكسر السلام عندما يظهره كلاهما؟ ولا حتى الشيطان نفسه يستطيع هذا.

إن الدفاع (عن السلام في العلاقات مع الآخرين) ثلاثي (الجدران) ورباعي بل ومتعدد، لأن الرأفة الإنسانية هي أساس كل الخيرات، ولكي تتعلم هذا، استمع للنبي وهو يقول «لأنك لا تسر بذبيحة وإلا فكنت أقدمها. بمحرقة لا ترضى. ذبائح الله هي روح منكسرة. القلب المنكسر والمنسحق يا الله لا تحتقره» (مزا ٥١ : ١٦، ١٧). ليس مجرد التواضع، بل التواضع الشديد. كما في حالة الأجساد ما هو مكسور (من المرض) لن يقوم ضد ما هو متين (سليم)، بل مهما كانت الأمراض التي

تعاني منها هذه الأجساد (المنهكة من الأمراض) ذاتها، فإنها ستختار الموت عن أن تهجم على الآخر (السليم)، كذلك أيضاً النفس (المنكسرة) حتى لو عانت من المرض (الإساءة)، فإنها ستختار دائماً أن تموت عن أن تنتقم لنفسها بالهجوم (على من أساء إليها).

إلى متى نتباهى هكذا بطريقة موجبة للسخرية؟

لأنه كما نضحك عندما نرى الأطفال ينتصبون وينظرون بغطرسة أو عندما نراهم يمسكون بالحجارة ويرمونها، هكذا أيضاً غطرسة الناس تنتمي لعقلية صيبانية وذهن غير ناضج. «لماذا يتكبر التراب والرماد؟» (سير ١٠: ٩). هل أنت متكبر أيها الإنسان؟ ولماذا؟ أخبرني ما هو الريح (من وراء هذا التكبر)؟ من أين لك أن تتكبر على من هم من نفس جنسك؟ ألا تشاركهم نفس الطبيعة؟ ونفس الحياة؟ ألم تنل إكراماً مساوياً (لهم) من الله؟

لكن هل أنت حكيم؟ ينبغي أن تكون شاكراً لا أن تكون متكبراً. إن الغطرسة هي أول أعمال نكران الجميل لأنها تنكر هبة النعمة. الذي يتكبر، فإنه يتكبر كما لو كان قد تفوق بقوته الذاتية، والذي يظن أنه هكذا متفوق (بقوته الذاتية)، هو غير شاكر لمن أسبغ عليه هذا الشرف. هل لك أي فضل؟ كن شاكراً لمن أعطاه لك.

استمع لما قاله يوسف وما قاله دانيال. إذ عندما أرسل الملك ليوسف وفي محضر كل حاشيته سأله بخصوص الأمر الذي كان المصريون أكثر الناس براعة فيه، تخلى عن مجال منافستهم، عندما كان على وشك أن

يسحب منهم كل شيء وتخلي عن ظهوره أحكم من المنجمين والسحرة والعرافين وكل حكماء ذلك الزمان وعن كونه مجرد شاب في العبودية والأسر، فماذا قال عندما جاء أمام فرعون؟ هل قال: نعم أنا أعلم التفسير؟ بل ماذا قال؟ بينما (حرفياً عندما) لم يلزمه أحد، قال بدافع من روحه النبيلة «أليست الله التعابير؟» (تك ٤٠: ٨).

انظر كيف أنه مجّد في الحال ربه، لذلك فإنه قد تمجد. وهذا أيضاً ليس أمراً زهيداً. لأن الذي أظهره الله له كان شيئاً أعظم جداً مما لو تفوق هو نفسه (في مجال تفسير الأحلام). لأنه بين أن كلماته كانت جديدة بالتصديق وكانت برهاناً عظيماً جداً على ألفته مع الله. لأنه لا يوجد شيء أعظم مثل أن تكون صديقاً حميماً لله. والكتاب يقول «لأنه إن كان إبراهيم قد تبرر بالأعمال فله فخر، ولكن ليس لدى الله» (رو ٤: ٢). لأنه إن كان الذي مُنح نعمة يجعل افتخاره بالله في أنه محبوب منه لأن خطاياهم قد عُفرت، أيضاً الذي يصنع لله شيئاً يفتخر به، لكن ليس أمام الله كما الآخر (لأن افتخارنا هو برهان على ضعفنا الشديد)، فالذي قد نال حكمة من الله (وليس فقط غفراناً)، كم يكون جديراً بالإعجاب؟ لقد مجد الله وتمجد منه، لأن الله يقول «إنني أكرم الذين يكرمونني» (١ صم ٢: ٣٠).

وأيضاً استمع لدانيال والذي لم يكن أحد أحكم منه (في عصره) والذي يقول الله عنه «هل أنت أحكم من دانيال؟» (حز ٢٨: ٣ بحسب النص). فدانيال هذا عندما رأى أن كل الحكماء في بابل وأيضاً المنجمين والسحرة والعزمين، لن يتوقف الأمر عند سجنهم بل سيتم قتلهم جميعاً، تقدم إلى

الملك وأعد الحل لسؤاله ، ولم يأخذ الكرامة لنفسه بل نسب الأمر كله لله وقال «أما أنا أيها الملك فلم يُكشف لي هذا السر لحكمة في أكثر من كل الأحياء» (دا ٢ : ٣٠). و«حينئذ خر نبوخذ نصر على وجهه وسجد لدانيال وأمر أن يقدموا له تقديماً وروائح سرور» (دا ٢ : ٤٦). ألا ترى تواضعه؟ ألا ترى روحه النبيلة؟ ألا ترى عادة المسكنة هذه؟

اسمع الرسولين وهما يقولان «لماذا تشخصون إلينا كأننا بقوتنا أو تقوانا قد جعلنا هذا يمشي» (أع ٣ : ١٢) ، وكذلك «نحن أيضاً بشر تحت الآلام مثلكم» (أع ١٤ : ١٥). فإن كانوا هكذا قد رفضوا الإكرام المقدم لهم ، وهم لسبب تواضعهم وقوة المسيح صنعوا أعمالاً أعظم من أعمال المسيح (انظر يوح ١٤ : ١٢) ، ألا نفعل هكذا نحن التعساء والبؤساء الذين لا يمكننا طرد البعوض فكم بالأحرى الشياطين؟ نحن الذين لا قوة لنا لإفادة إنسان واحد ، فكم بالأحرى العالم كله ، ومع ذلك نظن أن الشيطان نفسه لا يبارينا في هذا المجال.

لا يوجد شيء هكذا غريباً على نفس المسيحي مثل التكبر ، أقول الكبرياء لا الجسارة أو الشجاعة ، لأن هذه من نفس الجنس ، لكن هذه شيء وتلك شيء آخر ، كذلك أيضاً التواضع شيء والدناءة والتملق والمداهنة شيء آخر.

إن أردتم فسوف أعطيكم أمثلة لهذه الصفات . لأن هذه الأشياء المتناقضة يبدو أنها موضوعة بجانب بعضها بطريقة ما كما الأشواك للورد والقمح والزوان (حرفياً الزغل). لكن بينما يسهل خداع الأطفال ،

فإن الذين هم رجال بالحق والتمرسون في الزراعة الروحية يعرفون كيف يفصلون حقاً ما هو جيد عما هو رديء. دعوني أضع أمامكم أمثلة لهذه الصفات من الكتاب.

ما هو النفاق والدناءة والمداهنة؟ لقد تملق صيبا داود تملقاً غير ملائم ونمّ سيده (مفيبوشيث) كذباً (٢صم ١٦: ١-٣). أختيتوفل تملق أبشالوم بالأكثر (٢صم ١٧: ١-٤). لكن داود لم يكن هكذا، بل كان متواضعاً. لأن المخادعين متملقون كما عندما يقول «أيها الملك عش إلى الأبد» (دا ٢: ٤). وأيضاً أي نوع من المنافقين يكون السحرة.

سنجد في حياة بولس الرسول الكثير من الأمثلة في سفر الأعمال لنقدمها. فعندما تنازع مع اليهود لم يتملقهم، بل كان متضعاً (لأنه عرف كيف يتحدث بشجاعة) كما عندما يقول «أيها الرجال الإخوة، مع أنني لم أفعل شيئاً ضد الشعب أو عوائد الآباء أسلمت مقيداً من أورشليم إلى أيدي الرومانيين» (أع ٢٨: ١٧). وكون هذه الكلمة ناتجة عن إتضاع، اسمع كيف يوبخهم بعد ذلك بقوله «حسناً كلم الروح القدس آباءنا بإشعياء النبي قائلاً اذهب إلى هذا الشعب وقل ستسمعون سمعاً ولا تفهمون وستنظرون نظراً ولا تبصرون» (أع ٢٨: ٢٦).

هل ترون شجاعته؟ انظروا أيضاً شجاعة يوحنا المعمدان أمام هيرودس عندما قال له «لا يحل لك أن تكون لك امرأة أخيك فيلبس» (مر ٦: ١٨). هذه كانت جسارة، لقد كانت شجاعة!

لم تكن هكذا كلمات شمعي عندما قال لداود «أخرج، أخرج يا رجل

الدماء» (٢صم ١٦: ٧)، ومع أنه هو أيضاً تكلم بجسارة، لكن هذه لم تكن شجاعة بل وقاحة وقلة حياء ولساناً بلا لجام. وإيزابل أيضاً وبخت ياهو عندما قالت «يا قاتل سيده» (٢مل ٩: ٣١)، لكن هذه كانت وقاحة وليست شجاعة.

وإيليا أيضاً وبخ آخاب، لكن هذه كانت جسارة وشجاعة إذ قال «لم أكر إسرائيل بل أنت وبيت أبيك (مكدرين إسرائيل)» (١مل ١٨: ١٨). وأيضاً إيليا تكلم بجسارة مع الشعب كله وقال «حتى متى تعرجون بين الفرقتين» (١مل ١٨: ٢٣). هكذا كان التوبيخ بجسارة وشجاعة. هذا أيضاً ما فعله الأنبياء، أما الكلام الآخر فكان وقاحة.

إن أردتم أن تتروا كلمات فيها إتضاع وعدم مدهانة، فاسمعوا بولس وهو يقول «وأما أنا فأقل شيء عندي أن يُحكَم في منكم أو من يوم بشر، بل لست أحكم في نفسي أيضاً. فإني لست أشعر بشيء في ذاتي، لكني لست بذلك مبرراً» (١كو ٤: ٣، ٤). هذا نابع من روح الذي يصير مسيحياً. وأيضاً قوله «أيتجاسر منكم أحد له دعوى على آخر أن يُحاكم عند الظالمين وليس عند القديسين؟» (١كو ٦: ١).

أتريدون رؤية تملق اليهود الأغبياء؟

اسمعوهم وهم يقولون «ليس لنا ملك إلا قيصر» (يو ١٤: ١٥).

أتريدون رؤية التواضع؟

اسمع بولس أيضاً عندما يقول «لسنا نكرز بأنفسنا، بل بالمسيح

يسوع رباً ولكن بأنفسنا عبيداً لكم من أجل يسوع» (٢كو ٤: ٥).

أتريدون رؤية كلاً من التملق والوقاحة؟ الوقاحة في حالة نابال (١صم ٢٥: ١٠)، والتملق في حالة أهل زيف (١صم ٢٣: ٢٠)، الذين تعمدوا خيانة داود.

أتودون رؤية الحكمة (١صم ٢٦: ٥-١٢) وليس التملق؟ تأملوا داود عندما كان شاول في متناول يده ولم يقتله. هل ترون نفاق من قتلوا إيشبوشث الذين قتلهم داود أيضاً؟

ولتلخيص كل هذا نقول إن الوقاحة تظهر عندما يهيج المرء ويسب أو يسئ لغيره بغير مبرر، إما بأن ينتقم لنفسه أو يهينه ويظلمه. لكن الشجاعة والجسارة هي عندما نتجاسر على مواجهة الأخطار والميتات، ونزدري بكل الصداقات والعداوات من أجل ما يرضي الله.

وأيضاً تكون الوضاعة والتملق عندما نتودد لآخر ليس لأجل غاية مستقيمة، بل لكي نحصل منه على شيء من أمور هذه الحياة (الفانية). أما التواضع فهو عندما يعمل المرء هذا من أجل الأشياء التي ترضي الله، فينزل عن مستواه الاجتماعي ليؤدي عملاً عظيماً ويثير الإعجاب. طوبى لنا لو علمنا هذه الأشياء وعملناها. لأنه لا يكفي لنا أن نعرفها فقط، فالكتاب يقول «لأن ليس الذين يسمعون الناموس هم أبرار عند الله بل الذين يعملون بالناموس هم يبررون» (رو ٢: ١٣). نعم المعرفة ذاتها تدين، عندما تكون بدون فعل أعمال الفضيلة.

لذلك حتى نفلت من الدينونة ، لبيتنا نجد في إثر ممارسة وصايا الله ، لكيما
نحصل على الخيرات الموعودة لنا بنعمة ومحبة ربنا يسوع المسيح آمين.

العظة السادسة

(فيلبي ٢: ٥-٨)

فَلْيَكُنْ فِيكُمْ هَذَا الْفِكْرُ الَّذِي فِي الْمَسِيحِ يَسُوعَ أَيْضاً: الَّذِي إِذْ كَانَ فِي صُورَةِ اللَّهِ، لَمْ يَحْسِبْ خُلْسَةً أَنْ يَكُونَ مُعَادِلاً لِلَّهِ، لِكِنَّهُ أَخْلَى نَفْسَهُ، آخِذاً صُورَةَ عَبْدٍ، صَائِراً فِي شَبْهِ النَّاسِ. وَإِذْ وُجِدَ فِي الْهَيْئَةِ كَانَسَانٍ، وَضَعَ نَفْسَهُ وَأَطَاعَ حَتَّى الْمَوْتِ، مَوْتِ الصَّلِيبِ. (في ٢: ٥-٨).

إن ربنا يسوع المسيح عندما يحث تلاميذه على أعمال عظيمة فإنه يضع أمامهم نفسه والآب والأنبياء كأمثلة، كما عندما يقول «لأنهم هكذا فعلوا بالأنبياء الذين كانوا قبلكم» (مت ٥: ١٢)، وأيضاً قوله «إن كانوا قد اضطهدوني فسيضطهدونكم» (يو ١٥: ٢٠)، وأيضاً قوله «تعلموا مني لأنني وديع ومتواضع القلب» (مت ١١: ٢٩)، وأيضاً «كونوا رحماء كما أن أباكم (السمائي) أيضاً رحيم» (لو ٦: ٣٦).

هذا أيضاً ما صنعه الطوباوي بولس، ففي حثه لهم على التواضع قدم لهم المسيح. وهو لا يفعل هذا هنا فقط، بل أيضاً عندما يتحدث عن المحبة تجاه الفقير، يتكلم بنفس الطريقة إذ يقول «فإنكم تعرفون نعمة ربنا يسوع المسيح أنه من أجلكم افتقر وهو غني لكي تستغنوا

أنتم بفقره» (٢كو٨: ٩). لا شيء يثير النفس العظيمة والمتفلسفة حتى تعمل الأعمال الصالحة مثل معرفتها أنها تتشبه بالله. أي تشجيع معادل لهذا؟ لا شيء.

وهذا يعلمه بولس جيداً، لذلك عندما يحثهم على التواضع يتوسل إليهم أولاً، وبعد ذلك يقول ليرهبهم «حتى تثبتوا في روح واحد» (في١: ٢٧)، ويقول أيضاً «الأمر الذي هو لهم بينة للهلاك وأما لكم فللخلاص» (في١: ٢٨). وأخيراً يقول هذا «فليكن فيكم هذا الفكر الذي في المسيح أيضاً. الذي إذ كان في صورة الله لم يحسب خلسة أن يكون معادلاً لله، لكنه أخلى نفسه آخذاً صورة عبد صائراً في شبه الناس» (في٢: ٥-٧).

أتوسل إليكم أن تصغوا وتستنهضوا أنفسكم. لأنه كما أن السيف الحاد ذي الحدين، حيثما يسقط يقطع بسهولة كل شيء يصادفه، لأنه حاد من كل جانب ولا شيء يمكنه أن يحتمل حدته، هكذا أيضاً كلام الروح (انظر عب٤: ١٢؛ رؤ١٦: ١٦)، إذ بهذه الكلمات صرع (الروح القدس) أتباع آريوس السكندري وبولس الساموسطي ومارسيلوس الغلاطي وسابيلْيوس ٠٠ وبالاختصار كل الهرطقة.

إذا أفيقوا أنفسكم لتتنظروا منظراً هكذا عظيماً، جيوشاً كثيرة جداً تسقط بضربة واحدة، لئلا تفلت منكم روعة هذا المنظر. لأنه إن كانت المركبات التي تتنافس في سباق الخيل لا يوجد شيء ممتع أكثر من أن يصطدم أحدهم بها ويقلبها مع سائقها، ثم يتقدم بمفرده إلى الهدف

وينتهي السباق وسط التصفيق الحاد الذي يبلغ عنان السماء كما لو كان بتلك الفرحة والتصفيق يكتسح الأرض كلها، فكم بالأولى ستكون المسرة هنا أعظم عندما نهدم بنعمة الله في الحال ومعاً كل التجمعات والدسائس الشيطانية لكل هذه الهرطقات سوياً مع كل مدبريها؟.....^١

اسمع للنبي أيضاً وهو يدعو «ملاك المشورة العظمى» (إش ٩: ٦ بحسب الترجمة السبعينية). فهل ملاك المشورة العظمى ليس هو نفسه عظيماً؟ الإله القدير (نفس العدد السابق) هل هو نفسه صغير وليس عظيماً؟ أية وضاعة وخسة تكون لهؤلاء الناس عندما يقولون إنه إله بدرجة أقل. إنني أكرر كلامهم مراراً لكيما تتجنبوهم أكثر. في اعتقادهم أنه لكونه إلهاً أقل لم ينتهز لنفسه فرصة أن يشابه الإله الأعظم! فأخبروني الآن، لو كان هو الأقل كما يقولون، أدنى من الآب في القدرة، فكيف يمكنه أن ينتزع لنفسه معادلة الآب (في القدرة)؟ لأن من له طبيعة أدنى لا يمكنه أن يقتحم مجال من هو أعظم. وعلى سبيل المثال لا يستطيع الإنسان أن يدعي لنفسه إمكانية أن يصير معادلاً للملاك في الطبيعة، وحتى لو رغب الحصان، في أن يعادل الإنسان في طبيعته فلن يستطيع.

ولكن بالإضافة إلى كل هذا، سأقول هذا أيضاً. ما الذي يقصده بولس بهذا المثال؟ بالتأكيد أن يقود أهل فيلبي إلى التواضع. فلأي غرض قدم هذا المثال؟ لأن من يريد أن يحث على التواضع لن يتكلم هكذا «كن متواضعاً واعتبر نفسك أقل مما أنت عليه من كرامة فعلية، لأن من هو

١- في الحقيقة اضطرت هنا لحذف عدة صفحات لم أترجمها لأن فيها يتحدث زهي الفم عن هرطقة سابيلوس وماركيان وماني وركز بالأكثر على بدعة أريوس وفند العديد من حججه، وهذا موضوع خارج عن نطاق شرح وتطبيقات الرسالة التي نحن بصدد ها.

عبد لم يقم ضد سيده، فاقتد به».

يمكن لأي شخص أن يقول إن هذا ليس أتضاعاً بل وقاحة.

تعلموا ماذا يكون التواضع يا من لكم كبرياء شيطانية! فماذا يكون

التواضع؟

هو أن تكون متضعاً بالذهن. من يضع ذاته هو المتضع بالذهن، وليس من هو وضيع أصلاً. انتبهوا إليّ لأشرح ما أقول: الذي هو متضع الذهن، عندما يكون في مقدوره أن يتكبر لم يفعل بل اتضع، أما الذي هو متضع لكونه لم يستطع أن يكون متكبراً فهو ليس متضعاً بعد. فمثلاً لو أن الملك يُخضع نفسه لموظف عنده، فإنه يكون متضعاً لأنه نزل من مستواه الأعلى، لكن لو أن الموظف تصرف هكذا، فلن يكون متضعاً. كيف؟ لأنه لم يُخفض نفسه من أي مستوى عالي. لا يمكن أن تظهر العقلية المتضعة ما لم يكن في مقدورنا أن نعمل العكس. لأنه لو كان ضرورياً لنا أن نتضع ولو رغماً عن إرادتنا، فهذا السمو لا يأتي من الروح أو الإرادة بل عن ضرورة. إن هذه الفضيلة دُعيت العقلية المتضعة، لأنها هي أتضاع للذهن. هل نظن أنه ينبغي لنا أن نمدحه على عدله من لم يكن في مقدوره أن يسلب خيرات الآخرين وبقي قانعاً بخيراته؟ لا أظن هذا. ولماذا؟ لأن مدح حرية الاختيار قد أبطل عن ضرورة. إن كان الذي لم يكن في مقدوره أن يعتصب العرش ويصير ملكاً، وبقي مجرد مواطن عادي، فهل نمدحه على هدوئه؟ لا أظن. نفس القاعدة تنطبق هنا، لأن المدح أيها الحمقى لا يُعطي لمجرد الامتناع، بل لأداء الأعمال الصالحة، لأن الأعمال السابقة

هي في الواقع خالية من الملامة لكنها لا تشترك في المدح، بينما يليق ثناء الأعمال الأخرى. كذلك لاحظ أن المسيح يعطي الثناء على هذا الأساس عندما يقول «تعالوا يا مباركي أبي رثوا الملكوت المعد لكم منذ تأسيس العالم، لأنني جعت فأطعمتموني، عطشت فسقيتموني» (مت ٢٥: ٣٤، ٣٥). لم يقل السيد المسيح «لأنكم كنتم غير جشعين، لأنكم لم تسرقوا، فهذه أمور تافهة»، بل قال لأنكم «رأيتموني جوعاناً فأطعمتموني». من على الإطلاق مدح أصدقاءه أو أعداءه بهذه الطريقة؟ لم يُمدح أحد أبداً هكذا ولا حتى بولس. لماذا نقول بولس؟ لأنه لا أحد أبداً قد مُدح ولو كان شخصاً عادياً كما تمدح المسيح لأنه لم يأخذ بالقاعدة^٢ التي لم تكن قانونه.

أن تبدي إعجابك لأعمال كهذه (أي تستحسن مثلاً من لم يسرق) فأنت تقدم دليلاً على إثم كثير. لماذا؟ لأن هذا التصرف هو موضع ثناء من الأشرار لمن يسرق لو توقف عن السرقة، لكنه ليس كذلك بين الصالحين (انظر أف ٤: ٢٨ حيث قيل «لا يسرق السارق فيما بعد بل بالحري يتعب عاملاً الصالح بيديه»^{١٠٠}). لأن من لم يلتزم (طوعاً) بقاعدة (أن لا يسرق مثلاً) وبكرامة (مركز) لم يكن يستحقها (وغير مدعو لها)، فهل يكون جديراً بالمدح؟ أي غباء يكون هذا؟ أتوسل إليكم أن تصغوا، لأن المناقشة طويلة.

أيضاً من منا على الإطلاق سيحث على التواضع على أسس كهذه؟

٢- وهي عدم المدح لمن تحاشى صنع الشر، بل يُمدح فقط من عمل الخير.

الأمثلة (المعطاة) ينبغي أن تكون أعظم من الموضوع الذي نحث عليه، لأن لا أحد سيتأثر بما هو غريب عن الموضوع. فمثلاً عندما أراد السيد المسيح أن يقودنا إلى تقديم الخير لأعدائنا، قدم مثلاً عظيماً بل قدم لنا مثال أبيه «الذي يشرق على الأشرار والصالحين، ويمطر على الأبرار والظالمين» (مت ٥: ٤٥). وعندما اقتادنا إلى تحمل الظلم قدم نفسه مثلاً بقوله «تعلموا مني لأني وديع ومتواضع القلب» (مت ١١: ٢٩)، وأيضاً قوله «إن كنت وأنا السيد والمعلم قد عملت هذه الأعمال فكم بالأولى أنتم؟» (انظر يوحنا ١٣: ١٤).

انظر أيضاً ما يقوله بعد المثال «بل بتواضع حاسبين بعضكم البعض أفضل من أنفسهم». يقول الرسول «حاسبين» لأنه كما أنكم واحد في الجوهر والإكرام الذي يأتي من الله، فهذا يعني أن الشرف الذي تحصلون عليه هو نفس الشرف الذي يناله كل واحد. أما في حالة من هم أعظم وأقل، فإنه لم يقل «حاسبين» بل قال «أكرمواهم أكثر من أنفسكم» كما يقول في موضع آخر «أطيعوا مرشديكم واخضعوا لهم» (عب ١٣: ١٧).

في ذلك الموقف يكون الخضوع ناتجاً عن طبيعة الحالة (التي تحكم العلاقة بين المرشد ومن يتلقى منه الإرشاد)، أما في هذا الموقف فهو راجع لحكمنا (وتقديرنا). فيقول الرسول «حاسبين بعضكم البعض أفضل من أنفسهم» كما فعل المسيح أيضاً (إذ أخلى ذاته بينما هو معادل للآب).

إن بولس عندما يحض على الاتضاع لم يقدم أبداً الأقل كمطيع للأعظم. لو كان يحث العبيد على طاعة ساداتهم لكان يمكنه أن يقول هكذا، لكن عندما يحث الحر على طاعة (نظيره) الحر، فلأجل ماذا

يمكنه أن يخضع خضوع عبد لسيدته؟ هل هو خضوع الأقل للأعظم؟ لم يقل الرسول «ليخضع الأقل للأعظم» بل قال «يا من أنتم متساوون في الكرامة اخضعوا» «حاسبين بعضكم البعض أفضل من أنفسهم». فلماذا لم يقدم ولو طاعة الزوجة كمثال فيقول «كما تطيع الزوجة زوجها، هكذا أنتم أيضاً أطيعوا (بعضكم البعض)». فإن كان لم يقدم (كمثال) الحالة التي فيها مساواة وحرية، لأن الخضوع في هذه الحالة طفيف، فكم بالأولى لا يقدم خضوع العبد (كمثال)؟

لقد قلت سابقاً أن لا أحد يمتدح إنساناً لمجرد امتناعه عن الشر ولا حتى يذكره أبداً. من يرغب في مدح إنساناً على العفة لن يمدحه لأنه امتنع عن الزنا، بل لأنه امتنع عن زوجته، لأننا لا نعتبر الامتناع عن الشر أمراً جديراً بالثناء إذ سيكون هذا مثيراً للسخرية.

قلت إن «صورة العبد» كانت صورة كاملة وليس بأقل من ذلك (أي ليست وهمية). كذلك فإن صورة الله تامة أيضاً وليست بأقل من ذلك. لماذا لم يقل «الذي صنَع في صورة الله» بل قال «الذي إذ كان في صورة الله؟» هذا نفس المعنى مثل قوله «أكون الذي أكون» (خر ٣: ١٤).

إن (كلمة) «صورة» تتضمن عدم التغيير بقدر ما هي صورة. يستحيل أن الأشياء ذات الجوهر الواحد يكون لها صورة شيء آخر (مخالف)، إذ لا إنسان له صورة ملاك ولا وحش له صورة إنسان. فكيف يكون للابن (صورة مختلفة عن الآب)؟

بالنسبة لحالنا، حيث إننا بشر مُكونين من طبيعة مركبة، الصورة

تنتمي إلى الجسد، أما في حالة الطبيعة البسيطة وغير المركبة بالكلية، فالصورة تنتمي إلى الجوهر. لكن لو جادلت بأنه لا يتحدث عن (الله) الآب لأن الكلمة أُستخدمت بدون أداة تعريف^٣، فهذا هو المعنى المقصود في أماكن كثيرة رغم أن الكلمة أُستخدمت بدون أداة تعريف. ولماذا أقول في مواضع كثيرة؟ لأنه في هذا الموضوع بالذات يقول «لم يحسب خلصة أن يكون معادلاً لله» مستخدماً كلمة الله بدون أداة تعريف ولو أنه يتحدث عن الله الآب.

سأضيف تفسيراً من عندي لكنني أخشى أن أُغرق أذهانكم، وبينما نتذكر ما قيل لدحض الهرطقة، فلنقتلع في غضون ذلك الأشواك وبعد ذلك نلقي البذار الجيدة عقب اقتلاع البذور (الردئية). وقد أعطيت الأرض راحة قليلة لكي تنال بتخلصها من الشر البذار الإلهية بفضيلة تامة.

فلنقدم الشكر لله لما قيل، ولننتوسل إليه أن يمنحنا الحذر والتحفظ من ذلك لكي نبتهج نحن وأنتم ويخزي الهرطقة. لننتوسل إليه أن يفتح فمنا لما يتبع هذا لكي بنفس الحماس نقدم وجهات نظرنا. لنتضرع إليه أن يمنحنا حياة جديدة بالإيمان لكي نحيا لمجده ولكي لا يُجذف على اسمه بسببنا. لأنه مكتوب «الويل لكم إذ بسببكم يُجذف على اسم الله» (انظر إش ٥٢: ٥). لأنه لو كان لنا ابن (بالجسد) وبسببه جُدف علينا، فإننا نلفظه علانية ونبتعد عنه ولن نقبله، فكم بالأولى الله عندما يكون له عبيد ناكرين للجميل يسبونونه ويسيتون إليه، فإنه يبتعد عنهم ويبغضهم؟

٣- هذه الأمور تظهر بوضوح في النص اليوناني فقط.

ومن سوى إبليس والشياطين سيمتلكون من يبغضهم الله ؟ ومن تأخذه الشياطين، أي رجاء للخلاص يتبقى له وأي عزاء له في الحياة ؟

طالما نحن في يد الله فلا أحد يخطفنا منه (انظر يوحنا ١٠: ٢٨)، لأن تلك اليد قوية، لكن عندما نسقط بعيداً عن تلك اليد وتلك المعونة، حينئذ نكون قد ضعنا، حينئذ نكون معرضين (للخطر) ومهيأين للسقوط مثل «حائط مائل وسياج متداعي» (مز ٦٢: ٣). عندما يكون الحائط ضعيفاً سهل للكل أن يقوضوه. لا تظن أن ما أنا مزعم أن أقوله يشير إلى أورشليم فقط، بل يشير إلى كل البشر. وماذا قيل عن أورشليم؟ [لأنشدن عن حبيبي نشيد محبي لكرمه كان لحبيبي كرم على أكمة خصبة. نقبه ونقى حجارتها وغرسه كرم سورق وبنى برجاً في وسطه ونقر فيه أيضاً معصرة فانتظر أن يصنع عنباً فصنع عنباً رديئاً. والآن يا سكان أورشليم ورجال يهوذا احكموا بيني وبين كرمي. ماذا يصنع أيضاً لكرمي وأنا لم اصنعه له لماذا إذ انتظرت أن يصنع عنباً صنع عنباً رديئاً. فالآن أعرفكم ماذا اصنع بكرمي انزع سياجه فيصير للرعي اهدم جدرانها فيصير للدوس. واجعله خراباً لا يقضب ولا ينقب فيطلع شوك وحسك وأوصي الغيم أن لا يمطر عليه مطراً. إن كرم رب الجنود هو بيت إسرائيل وغرس لذته رجال يهوذا فانتظر حقاً فإذا سفك دم، وعدلاً فإذا صراخ. (إش ٥: ١-٧). ٤.] هذا الكلام قيل أيضاً عن كل نفس، لأنه عندما عمل الله للإنسان الذي يحبه كل ما هو ضروري له، وقد صنع الإنسان شوكاً بدلاً من العنب، فإنه سينزع سياجه ويهدم جدرانها، وسنصير للرعي (والدوس).

٤- مما هو جدير بالذكر أن اقتباسات ذهبي الفم من الترجمة السبعينية، لكن حينما أجده متقرباً في المعنى والمبنى مع النص البيروتي فإني تسهيلاً على القارئ أسجل النص البيروتي وهذا ما فعلته هنا.

واسمع ما يقوله نبي آخر في مراثيه «لماذا هدمت جدرانها فيقطفها كل عابري الطريق. يفسدها الخنزير من الوعر ويرعاها وحش البرية» (مز: ٨٠: ١٢، ١٣). إنه يتحدث في الموضع السابق عن ميديه وبابل (اللتين داستا أورشليم)، هنا لم يقل عنهما شيئاً، لكن الخنزير ووحش البرية هو إبليس وكل جنوده لأن الشراسة والنجاسة هما من ميوله. لأن الكتاب عندما أراد أن يرينا ضراوته يقول «كأسد زائر يجول ملتماً من يبتلعه هو» (١ بطه: ٨). وعندما يريد الكتاب إظهار طبيعته السامة والمميتة والمهلكة يدعوه حية وعقرباً فيقول «لتدوسوا الحيات والعقارب وكل قوة العدو» (لو: ١٠: ١٩). وعندما يريد أن يمثل قوته والسم الذي له يدعوه تنيناً كما يقول «هذا التنين الذي خلقتة ليلعب فيه» (مز: ١٠٤: ٢٦). والكتاب في كل موضع يدعوه تنيناً وحيّة متحوية وأفعى (صل) (انظر مز: ٧٤: ١٣، ١٤). إنه حيوان من ثنيات كثيرة ومتغير في حيله، وقوته عظيمة وهو يحرك كل الأشياء ويزعج كل الأشياء ويقلبها رأساً على عقب (إش: ٢٧: ١؛ ٥١: ٩؛ حز: ٢٩: ٣؛ ٣٢: ٢). لكن لا تخش ولا تخف، انظر فقط، فإنه سيكون كعصفور، إذ يقول الكتاب «وتدوسون على الحيات والعقارب» لو شئنا سيجعله الله مدوساً تحت أقدامنا.

انظر أي احتقار بل أي بؤس أن نرى من قد أعطي لنا أن ندوسه تحت أقدامنا واقفاً الآن فوق رؤوسنا. ومن أين يكون هذا؟ من ذواتنا. لو اخترنا يصبح هو عظيماً، ولو أردنا يصبح هو ضعيف القوة. لو انتبهنا

٥- يبدو لي أن هذا اختيار غير موفق للشاهد ولو كان قد عرض الآية «وظهرت آية أخرى في السماء هوذا تنين عظيم أحمر له سبعة رؤوس و عشرة قرون و على رؤوسه سبعة تيجان (رؤ: ١٢: ٣)، أو الآية «فطرح التنين العظيم الحية القديمة المدعو إبليس والشيطان الذي يضل العالم كله طرح إلى الأرض و طرحت معه ملائكته» (رؤ: ١٢: ٩)، لكن أفضل.

لأنفسنا ووقفنا مع ملكنا فإن إبليس سوف يسحب نفسه ولن يكون أقوى (حرفياً أفضل) من طفل صغير في حربه معنا (ضدنا). عندما نقف بعيداً عن ملكنا، فإنه ينتفخ بشدة ويطلق أصواتاً مرعبة ويصرّ بأسنانه لأنه يجدنا بدون معونتنا العظمى. لن يقترب إلينا إلا إذا سمح الله له، لأنه إن كان لم يجرؤ على الدخول في قطيع الخنازير إلا بسماع الله، فكم بالأولى نفوس الناس. لكن الله يسمح له إما بتأديبنا أو قصاصنا أو بجعلنا مرضيين أكثر كما في حالة أيوب. هل ترى أنه لم يأت إليه ولا جرؤ على الاقتراب منه بل ارتعب وارتجف؟

ولماذا أتكلّم عن أيوب؟ عندما قفز على يهوذا، لم يجرؤ على الإمساك به كلياً إلا بعد أن بتره المسيح من الجماعة المقدسة. في الواقع لقد هاجمه من خارج، لكن لم يجرؤ على دخوله إلا عندما رآه قد قطع من القطيع المقدس، فهجم عليه بشراسة أكثر مما للذئب ولم يتركه إلا بعد قتله بموت مضاعف.

إن هذه الأشياء قد كتبت لإنذارنا. ما المنفعة من معرفتنا أن واحداً من الاثنى عشر كان خائناً؟ ما المنفعة؟ ما الربح؟ إنه ربح كثير. لأنه عندما نعلم من أين وصل إلى هذه المشورة المميّنة، نكون على حذر حتى لا نعاني نحن أيضاً مصيره. من أين وصل هو إلى هذا؟ من محبة المال، فهو كان لصاً، ولأجل ثلاثين من الفضة خان سيده. كان يهوذا سكراناً جداً بهذا الهوى حتى خان رب العالم لأجل ثلاثين من الفضة. أي شيء يمكن أن يكون أسوأ من هذا الجنون؟ إن المسيح الذي لا شيء يعادله أو يساويه إذ «كل الأمم كلا شيء قدامه» (إش ٤٠: ١٧)، سلمه يهوذا بثلاثين من

الفضة. في الواقع إن محبة المال لها قوة فظيعة، ومرعبة فهي تضع النفس خارجاً عن طورها. لا يخرج الإنسان عن طوره بالسُّكر مثلما بحبه للمال، ولا يخرج عن طوره بالجنون والعتة مثلما في محبته للمال. أخبرني لماذا خانته؟

إنه دعاك يا يهوذا عندما كنت إنساناً مغموراً وغير معروف، وجعلك واحداً من الاثني عشر وأعطاك نصيباً في تعليمه ووعدك بأشياء حسنة لا تُحصى وجعلك تصنع معجزات وكنت مشاركاً لنفس المائدة ونفس الرحلات ونفس الصحبة ونفس المعاملة مثل الباقين. ألم تكن هذه أشياء كافية لردعك؟ لأي سبب خنته؟ لماذا أسلمته أيها الشرير؟ بل أي خير لم تنله على يده؟ إنه علم ما يدور في ذهنك ومع ذلك لم يتوقف عن القيام بمسئوليته (من نحوك).

لقد قال لك مراراً «واحد منكم يسلمني» (مت ٢٦: ٢١)، ومراراً أشار إليك، ومع ذلك أبقى عليك، ورغم أنه علم أنك أنت الذي ستسلمه لم يطردك من الجماعة. وهو أيضاً احتملك وأكرمك وأحبك كتلميذ حقيقي وكواحد من الاثني عشر وأخيراً أخذ منشفةً واتزر وببيديه الطاهرتين غسل رجليك النجستين، وبالرغم من هذا لم ترتدع. كنت تسرق من مال الفقراء ومع ذلك احتملك حتى لا تنزلق إلى خطية أعظم. لا شيء (من كل هذا) أقنعتك (وردعك). أما كنت تتغير بهذا العطف نحوك وبهذه الأعاجيب وهذه التعاليم لو كنت وحشاً أو حجراً؟ ومع أنك كنت هكذا متوحشاً، لكنه دعاك أيضاً وبأعمال عجيبة اجتذبك أنت الذي كنت عديم الإحساس أكثر من الحجر. لكن لا شيء من كل هذا جعلك أفضل.

ربما قد تندهش لمثل هذا الحمق الذي للخائن، لذلك فإن الذى تسبب فى سقوطه مخيف. لقد صار هكذا من الطمع، من محبة المال. اقطع هذا الهوى، لأنه يلد هذه الأمراض، إنه يجعلنا غير أنقياء وجاهلين بالله رغم أننا ننال على يديه آلاف الإحسانات. إنني أتوسل إليك، اقطع هذا الداء، إنه ليس داءً عادياً، إنه يعرف كيف يلد ألف ميتة مهلكة. لقد رأينا مأساته. لنخف لثلاثا نسقط نحن أيضاً في نفس الشباك. لأن هذا مكتوب حتى لا نعاني نحن أيضاً من نفس البلايا. لذلك سرده كل الإنجيليين حتى يردعونا. فلنهرب (بعيداً) عنه.

إن الطمع ليس عبارة عن حب مال كثير فقط، بل هو حب المال بصفة عامة. إنه طمع خطير أن نرغب في أكثر مما نحتاج. هل كانت وزنات ذهب (كثيرة) هي التي دفعت (حرفياً أقتعت) الخائن (لتسليمه)؟ لقد خان سيده لأجل ثلاثين من الفضة. ألا تذكر ما قلته من قبل إن الطمع لا يظهر في أخذ الكثير، بل بالأحرى في أخذ أشياء تافهة؟ انظر كم هي بشعة تلك الجريمة التي اقترفها لأجل قليل من الذهب، لا ليس للذهب، بل لقطع فضية. لا يمكن أبداً لإنسان طماع أن يرى وجه المسيح! هذا واحد من الأشياء المستحيلة. إنه أصل كل الشرور. وإن كان الذي له شر واحد قد سقط من ذلك المجد، فأين سيقف الذي يحمل معه أصل كل الشرور؟ من هو عبد للمال لا يمكن أن يكون عبداً حقيقياً للمسيح. المسيح نفسه قد أعلن أن هذا الشيء مستحيل. فهو يقول «لا يقدر أحد أن يخدم سيديين. لا تقدرون أن تخدموا الله والمال» (مت ٦: ٢٤). لأن المال يضع علينا أوامر مضادة (لوصايا المسيح). فالمسيح يقول «أشفق على الفقير»

والمال يقول «حتى لو كان عارياً جرده مما له». يقول المسيح «أفرغ نفسك مما لك» والمال يقول «خذ أيضاً ما هو ليس لك». هل ترى التضاد؟ كيف لا يمكن أن يطيع الإنسان كليهما بسهولة، بل لابد له أن يحتقر أحدهما؟ فهل يحتاج هذا إلى دليل؟ كيف ذلك؟ ألا نرى في كل عمل أن المسيح يُحتقر والمال يُكرم؟ ألا ترى أن الكلمات نفسها مؤلة فكم بالأولى الفعل ذاته؟ لكنه لا يظهر هكذا مؤلاً في واقعه لأننا مصابون بالمرض. لو أن النفس متطهرة ولو قليلاً من المرض طالما إنها باقية هنا (في الكنيسة) يمكنها أن تُحسن الحكم، لكن عندما ترحل إلى موضع آخر وتُصاب بالحمى وتنهمك في لذة الشيء فإنها تفقد رؤيتها الواضحة وتحكم حكماً فاسداً. المسيح يقول «كل واحد منكم لا يترك جميع أمواله لا يقدر أن يكون لي تلميذاً» (لو ١٤: ٢٣)، والمال يقول «انهب الخبز من الجائع». المسيح يقول «اكس العريان» (إش ٥٨: ٧)، والمال يقول «لا تشفق على الذين هم لك ولو رأيت أباك وأمك في عوز ازردي بهما».

أنا أعلم أن كثيرين يسمعون هذا الكلام ويتألمون، وأنا لست أقوله وأنا غير متألم. لكن لماذا اضطر لقول هذا الكلام؟ إنني أود أن يكون الكلام المختص بالملكوت هو حديثي الدائم ويكون أيضاً كلامي عن الراحة وماء الراحة والمراعي الخضراء كما يقول الكتاب «في مراع خضر يسكنني. على ماء الراحة يوردني» (مز ٢٣: ٢). كنت أود الحديث عن الموضوع الذي منه «يهرب الحزن والتنهيد» (إش ٥١: ١١). كنت أود الحديث عن مسرات كوننا مع المسيح ولو أنها مسرات تفوق كل تعبير وفهم، لكنني كنت سأحدث عنها على قدر قوتي. لكن ما عساي

أفعل؟ يستحيل الكلام فيما يختص بمملكة لمن هو محموم ومريض إذ يلزمنا الحديث عن الصحة (والشفاء من المرض أولاً). لا يمكننا الحديث عن التكريم لمن أحضر إلى المحاكمة، لأن رغبته في ذلك الوقت قاصرة على الفكك من الحكم والعقوبة والقصاص فإذا لم يصنع له هذا، فكيف سيتحقق الآخر؟ إنني لأجل هذا السبب أداوم الحديث عن هذه الأمور لكيما نعبر في الحال إلى المواضيع الأخرى. لأجل هذا السبب يهدد الله بجهنم لكي لا يسقط أحد فيها ولكي نحصل على الملكوت. لأجل هذا السبب نحن أيضاً نذكر جهنم دوماً حتى ما ندفعكم تجاه الملكوت، و عندما نكون قد هذبنا أذهانكم بالخوف يمكننا أن نأتي بكم إلى التصرف بما يليق بالملكوت. لذلك لا تستاءوا من ثقل كلماتي، لأن ثقل الكلمات يعطي الفرصة لنفوسنا لتفر من الخطية. لذلك ليتنا لا نهرب من ثقل الكلام ولا من الضرب الذي يسببه، فإن الضرب لا يوضع على الإنسان حتى يكسر النفس إلى أجزاء بل ليقومها. نحن بنعمة الله نعرف كيف نضرب الضربة التي لا تهشم الإناء بل تهذبه (تصلقه) وتقومه وتجعله أهلاً لاستخدام السيد (الرب) وتقدمه متألئاً في المتانة ومصنوعاً بمهارة أمام يوم نهر النار وتقدمه بدون الحاجة إلى كومة الحريق (المعدة لإبليس وجنوده). لأنه إذا لم نعرض أنفسنا للنار هنا، فإنه يلزمنا الاحتياج أن نحرق هناك، ولا يمكن أن يكون بخلاف ذلك «لأنه بنار يُستعلن يوم الرب» (١كو٣: ١٣). من الأفضل لكم أن تحترقوا قليلاً بكلماتنا عن أن تحترقوا إلى الأبد في ذلك اللهب. ينبغي بالحق أن نُنقع من الأسفار المقدسة، لكن حيث أن البعض يناقش (ويحاجج) فإننا قدمنا عدة براهين لهذا السبب. ولاشيء يمنع أن أذكرها الآن. فما هي؟

الله عادل، وكلنا نعتترف بهذا سواء كنا يونانيين أو يهوداً، هراطقة أو مسيحيين. لكن كثيراً من الخطاة ماتوا دون عقوبة (أرضية)، بينما أبرار كثيرون ماتوا بعد أن عانوا من أشياء محزنة كثيرة. فلو كان الله عادلاً (وهو حقاً عادل) فأين سيكافئ بالخير واحداً وبالعقوبة آخر، إن لم يكن هناك جهنم وإن لم تكن هناك قيامة؟ لذلك ردوا لهذا السبب دوماً لهم ولأنفسكم، فلا يتيح لكم هذا عدم تصديق موضوع القيامة، وكذلك ينتبه غير المؤمنين بالقيامة لحياتهم بكل حرص حتى ينالوا السعادة الأبدية التي نتمنى أن نكون كلنا جديرين بها بنعمة ورأفة ربنا يسوع المسيح الذي له مع الآب والروح القدس المجد والإكرام الآن وكل أوان وإلى دهر الدهور آمين.

العظة السابعة

(فيلبي ٢: ٥-١١)

فَلْيَكُنْ فِيكُمْ هَذَا الْفِكْرُ الَّذِي فِي الْمَسِيحِ يَسُوعَ أَيْضًا: الَّذِي إِذْ كَانَ فِي صُورَةِ اللَّهِ، لَمْ يَحْسِبْ خُلْسَةً أَنْ يَكُونَ مُعَادِلًا لِلَّهِ. لَكِنَّهُ أَخْلَى نَفْسَهُ، آخِذًا صُورَةَ عَبْدٍ، صَائِرًا فِي شِبْهِ النَّاسِ. وَإِذْ وُجِدَ فِي الْهَيْئَةِ كَانَسَانِ، وَضَعَ نَفْسَهُ وَأَطَاعَ حَتَّى الْمَوْتِ مَوْتَ الصَّلِيبِ. لِذَلِكَ رَفَعَهُ اللَّهُ أَيْضًا، وَأَعْطَاهُ اسْمًا فَوْقَ كُلِّ اسْمٍ لِكَيْ تَجْتَنُّوا بِاسْمِ يَسُوعَ كُلَّ رُكْبَةٍ مِمَّنْ فِي السَّمَاءِ وَمَنْ عَلَى الْأَرْضِ وَمَنْ تَحْتَ الْأَرْضِ، وَيَعْتَرِفَ كُلُّ لِسَانٍ أَنَّ يَسُوعَ الْمَسِيحَ هُوَ رَبُّ لِمَجْدِ اللَّهِ الْآبِ. (فِي ٢: ٥-١١).

لقد ذكرت وجهات نظر الهرطقة^١ ويليق بنا الآن أن نذكر وجهة نظرنا. هم قالوا إن الكلمات «لم يحسب خلسة» هي كسب غير شرعي، ونحن برهنا أن هذا الكلام عادم وسقيم تمامًا، لأن لا أحد سيبحث آخر على التواضع على أسس مثل هذه ولا أحد يمدح الله بهذه الطريقة أو حتى يمدح إنسانًا، فما هو المعنى أيها الأحباء؟ انتبهوا لما أقوله الآن.

حيث إن كثيرًا من الناس يظنون أنه عندما يكونون متضعين فإنهم

١- يقصد بهذا ما ذكره في العظة السابقة والذي قمنا بحذفه لأنه لا يفيد القارئ العادي روحياً.

سيحرمون من حقهم الواجب ويتم احتقارهم، ولكي يزيل بولس هذا الخوف ويبين أنه لا يجب أن نتأثر هكذا (بالمفاهيم الخاطئة)، يقول إن الله الابن الوحيد، الذي كان في صورة الله ولم يكن أبداً أقل من الآب بل كان معادلاً له «لم يحسب خلسة أن يكون معادلاً لله».

والآن اعلّموا ماذا يعني هذا الكلام. إن ما يسرقه الإنسان ويأخذه رغم أنه ليس من حقه فإنه لا يجرواً أن يتخلى عنه لئلا يفقده ويسقط من ملكيته بل يظل ممسكاً به دوماً. إن الذي يملك قدراً من الكرامة الطبيعية لا يخشى أن ينزل عن (مستوى هذه) الكرامة، لكونه متأكداً أن لا شيء من هذا النوع (التحقيق) سيحدث له. وكمثال فإن أبشالوم اغتصب الحكم ولم يجسر بعد ذلك على التخلي عنه. فلنأخذ أيضاً مثلاً آخرًا. لو أخذ إنسان أي شيء عنوة فإنه يتمسك به بشدة لأنه لو سلّمه لغيره سيفقده في الحال.

فماذا لنا أن نقول؟ نقول إن الابن لم يخش أن يتنازل (حرفياً ينزل) عن حقه (الطبيعي) لأنه لم يعتقد أن الألوهية شيء يُغتصب. إنه لم يكن يخشى أن يجرده أحد من هذه الطبيعة أو ذلك الحق (الطبيعي)، لذلك هو أخلى نفسه واثقاً أنه سيأخذه ثانية. لقد أخفاها عالماً أنه ما كان يُجعل أدنى^٢ بتصرفه هكذا. لهذا السبب لم يقل بولس إنه «لم يختطف» بل قال «لم يحسب خلسة». إنه لم يملك هذه المنزلة بالاغتصاب، بل كانت حقاً طبيعياً له وليست شيئاً مُنعماً به عليه، بل هي دائمة ومصونة له. لذلك لم يخش أن يأخذ صورة من هو أدنى. إن مغتصب الملك يخشى

٢- أي يصير في مستوى أقل من مركزه.

أن يترك الرداء الأرجواني (ولو) في الحرب، بينما الملك (الشرعي) يفعل هذا بمنتهى الأمان. لماذا هذا؟ لأنه ممسك بالسلطة (شرعاً) وليس عن طريق الاغتصاب.

لم يرفض السيد المسيح أن يخلي ذاته (من مجد الألوهية) كمن هو مغتصب لها حيث إنها له بالطبيعة، فلا يمكن أن تُنزع منه لذلك أخفاها. لم يغتصب هو هذه المساواة مع الله بل هي له بالطبيعة، لذلك «هو أخلى ذاته». أين هم الذين يؤكدون أنه كابد إكراهاً وأنه كان مُخضعاً؟ فالكتاب يقول «إنه أخلى ذاته ووضع نفسه وصار طائعاً حتى الموت». كيف أخلى ذاته؟ بأن أخذ «صورة عبد صائراً في شبه الناس ووجد في الهيئة كأنسان».

إنه مكتوب «أخلى نفسه» إشارة إلى النص القائل «حاسبين بعضكم البعض أفضل من أنفسهم» لأنه لو كان مخضعاً ولم يختر هذا بمحض إرادته ومشيئته الحرة، ما كان هذا يُعتبر عمل تواضع. لأنه لو كان عليه أن يتصرف هكذا وهو لا يعلم لكان هو ناقصاً. إن لم يكن يعلم هذا لكان قد انتظر حتى وقت التنفيذ، إذاً هو لم يكن يعرف التوقيت. لكن لو علم أن عليه أن يتصرف هكذا ومتى يلزم هذا فلماذا أذعن أن يكون خاضعاً؟

فيجييون: ليبيين سمو الآب.

لكن هذا لا يبين سمو الآب، بل يبين تدنيه (أي تدني الابن عن الآب). ألا يكفي اسم الآب ليبين أفضلية الآب؟ لأنه ما عدا الأبوة

(كصفة) فالابن له نفس الصفات كلها. لأن هذه الصفة (الأبوة) لا يمكن أن تعبر من الآب إلى الابن.

فماذا يقول الهرطقة؟

إنهم، (أقصد بهم الماركسيانيين) يقولون: انظر إنه لم يصر إنساناً.

لكن لماذا (تقولون هذا)؟

لأنه كان «صائراً في شبه الناس».

لكن كيف يمكن لأحد أن يكون «صائراً في شبه الناس»؟ هل بأن يرتدي خيالاً؟ لكن هذا طيف وليس أبداً شبه إنسان، لأن شبه الإنسان هو إنسان آخر غيره. وبماذا تجيب على يوحنا عندما يقول «الكلمة صار جسداً» (يو: ١٤). بل بولس الطوباوي نفسه يقول في موضع آخر «في شبه جسد الخطية» (رو: ٨: ٣).

«وإذ وجد في الهيئة كإنسان» (في ٢: ٨).

يقول الهرطقة: أنظر إنه يقول «في الهيئة» و«كإنسان». أن تكون «كإنسان» وأن تكون إنساناً «في الهيئة» ليس معناه أن تكون بالفعل إنساناً أن تكون إنساناً في الهيئة ليس معناه أن تكون إنساناً بالطبيعة.

انظر بأية مهارة أنا أرسى ما يقوله أعداؤنا لأن هذا نصر باهر وكسب عظيم عندما لا نخفي ما يبدو أنه حججهم القوية. لأن هذا خداع أكثر منه انتصار.

فماذا يقولون؟ دعوني أكرر حججهم. أن تكون إنساناً، في الهيئة ليس هو أن تكون إنساناً بالطبيعة، وأن تكون كإنسان وفي هيئة إنسان فليس معنى هذا أن تكون إنساناً. وهكذا أن تأخذ شكل العبد ليس معناه أن تأخذ طبيعة العبد.

إذاً هنا يوجد عدم ثبات، فلماذا لا تحلون أولاً هذه المعضلة؟ لأنه كما تظنون أن هذا يناقضنا، كذلك نحن نقول إن القول الآخر يناقضكم.

إنه لم يقل «كصورة عبد» ولا قال «في شبه صورة عبد» ولا قال «في هيئة صورة عبد» بل قال «أخذاً صورة عبد». فماذا يكون هذا؟ لأنه يوجد تناقض.

لا يوجد أي تناقض. حاشا لله! إنها حجتهم المثيرة للسخرية. فهم يقولون: إنه أخذ صورة العبد عندما منطقت نفسه بالمنشفة وغسل أرجل تلاميذه.

هل هذه هي صورة العبد؟ لا، فهذه ليست صورة العبد بل عمله. عمل العبد شيء، وأن تأخذ صورة العبد شيء آخر لماذا لم يقل إنه قام بعمل العبد، الأمر الذي كان أوضح؟ لكن الكتاب لم يضع أبداً كلمة «عمل» بدلاً من كلمة «صورة» لأن الفرق عظيم بين الكلمتين. لأن الصورة تجسم الطبيعة بينما «عمل» تجسم فعلاً (يتم تأديته). ونحن أيضاً في الكلام العادي لا نستخدم أبداً كلمة «صورة» على أنها «عمل». وبالإضافة إلى هذا بحسب منطقهم إنه ولا حتى أخذ عمل عبد ولا حتى منطق نفسه، لأنه إن كان الأمر كله مجرد خيال، فلن تكن هناك حقيقة. إن

لم تكن له يدان حقيقتان فكيف غسل أقدامهم؟ إن لم يكن له حقوان حقيقيان فكيف منطق ذاته بمنشفة؟ وأي نوع من اللباس كان يلبس؟ لأن الكتاب يقول «وأخذ ثيابه» (يو ١٣: ١٢). إذا ولن يكون العمل قد تم، بل كان الأمر كله خداعاً ولا حتى هو غسل أرجل تلاميذه، لأنه إن كانت تلك الطبيعة غير المادية لم تظهر، فهو إذاً لم يكن في الجسد. فمن الذي غسل أرجل التلاميذ؟

إن الكتاب يقول إنه «أخلى نفسه». أخبرني كيف أخلى نفسه؟ ماذا كان إخلاؤه؟ ماذا كان تصاغره (تواضعه)؟ هل كان لأنه أجرى معجزات؟ لكن بولس وبطرس عملاً معجزات، حتى هذا الأمر لم يكن وقفاً على الابن فقط. فما هو معنى «صائراً في شبه الناس»؟ إن له أشياء كثيرة تنتمي لنا وأشياء أخرى لا تنتمي لنا. فمثلاً هو لم يولد نتيجة زواج ولم يخطئ. هذه تنتمي له وليس لإنسان. لم يكن هو ما في الظاهر (لنا) فقط، بل كان أيضاً (هو) الله. كان يبدو أنه إنسان (وحسب) لكن لم يكن يشبه جموع الناس، لأنه كان يشبههم في الجسد. لذلك هو يقصد أنه لم يكن مجرد إنسان، فقال «في شبه الناس». لذا لثلا عندما تسمع أنه أخلى نفسه، تظن أن شيئاً من التغيير والتدني والخسارة قد حدث هنا، فإنه يقول (ما معناه): بينما هو بقي على ما كان عليه (من ألوهية) فإنه أخذ ما لم يكن له، وإذا صار جسداً، بقي إلهاً من حيث إنه كان الكلمة (يو ١٤: ١٤).

إذاً في هذا كان مثل (شبه) إنسان، ولأجل هذا السبب يقول بولس «في الهيئة» ليس بأن طبيعته انحطت، وليس بأن أي تشويش نشأ،

بل هو صار إنساناً في الهيئة. لأنه عندما قال إنه «أخذ صورة عبد» فإنه تجاسر على قول هذا القول (إذ وجد في الهيئة كإنسان) أيضاً، إذ رأى أن القول الأول (أخذ صورة عبد) سيبكم المعترضين. لأنه عندما يقول «في شبه جسد الخطية» لا يقول إنه لم يكن له جسد، بل إن ذلك الجسد لم يخطئ، بل كان مشابهاً لجسد الخطية. مشابهاً في ماذا؟ مشابهاً في الطبيعة وليس في الخطية، وبناءً على ذلك كانت نفسه مشابهة للنفس الخاطئة.

إذاً كما في الحالة السابقة فإن تعبير المشابهة أستخدم لأنه لم يكن مساوياً في كل شيء، كذلك أيضاً هنا يوجد تشابه، لأنه لم يكن مساوياً في كل شيء مثل كون ولادته تمت بغير زواج وكونه بلا خطية وكونه لم يكن مجرد إنسان. وحسناً قال بولس «كإنسان» لأنه لم يكن إنساناً ضمن كثيرين، بل كان واحداً من بين كثيرين. إن الكلمة الذي هو الله لم ينحط إلى إنسان ولا تغير جوهره، بل ظهر كإنسان ليس ليخدعنا بشبح، بل ليعلمنا التواضع. لذلك عندما يقول «كإنسان» فهذا هو ما يقصده (تعليمنا التواضع)، إذ يدعوه إنساناً أيضاً في موضع آخر عندما يقول «يوجد إله واحد ووسيط واحد بين الله والناس، الإنسان يسوع المسيح» (١ تي ٢: ٥).

على هذا النمط يوجد الكثير لنقوله ضد هؤلاء الهرطقة. ينبغي لي أن أتحدث الآن ضد من ينكر أنه أخذ نفساً (بدعة أبوليناريوس). لو أن «صورة الله» هو إله كامل، كذلك فإن «صورة العبد» هي «عبد كامل». وأيضاً ضد الآريوسيين. هنا فيما يختص بلاهوته، لا نعود نجد تعبير

«هو صار»، «هو أخذ» بل نجد «أنه أخلى نفسه أخذاً صورة عبد صائراً في شبه الناس». أما فيما يختص ببشريته، نجد أنه «أخذ، صار» هو صار إنساناً، هو أخذ شكل العبد، هو كان في البدء. لذلك ليتنا لا نخلط أو نقسم الطبائع. يوجد إله واحد، يوجد مسيح واحد، ابن الله. وعندما أقول «واحد» أعني اتحاداً وليس اختلاطاً، الطبيعة الواحدة لم تتحلل إلى الأخرى بل كانت متحدة بها.

«وضع نفسه وأطاع حتى الموت وموت الصليب» (تابع في ٢: ٨)

ربما هناك من يقول: انظروا إنه صار مطيعاً اختيارياً، إنه لم يكن مساوياً لمن أطاعه.

يا لكم من معاندين وغير حكماء!

إن هذا التصرف لا يقلل أبداً من مكانته. لأننا نحن أيضاً نصير مطيعين لأصدقائنا ومع ذلك فهذا لا يؤثر على تساويننا معهم. إنه صار مطيعاً كابن لأبيه، ولم يسقط بذلك في حالة العبودية، بل بهذا التصرف بالذات حفظ بنوته الفريدة بهذا التكريم العظيم للآب. إنه أكرم الآب (بطاعته له) ليس لكي تزدروا به، بل لكي بالأولى تُعجبوا به وتتعلموا من هذا التصرف أنه بإكرامه للآب، كان فوق كل شيء آخر ابناً حقيقياً. لم يكرم أحد الله هكذا. كما كان سموه، هكذا تطابق مع سموه التواضع الذي مارسه. وكما هو أعظم من الكل، ولا يوجد أحد مساو له، كذلك هو في تكريمه لأبيه، فاق الكل، ليس عن إلهام ولا كرهاً، بل هذا أيضاً جزء من سموه.

بل إن الكلمات تجعلني عاجزاً (عن التوصيف الصحيح). بالحق إنه أمر عظيم لا يُعبّر عنه أنه صار عبداً، وكونه جاز الموت هو شيء أعظم، بل لا يزال هناك شيء أعظم وأكثر غرابة، لماذا؟ ليست كل الميتات متشابهة، إذ يبدو أن موته كان أكثر الميتات الفاضحة، إذ هو موت مملوء خزيًا ولعنة لأنه مكتوب «ملعون كل من عُلق على خشبة» (غلا: ٣: ١٣)؛ تث ٢١: ٢٣). لأجل هذا السبب فإن اليهود أيضاً اشتاقوا جداً لقتله بهذه الطريقة، ليجعلوه تعبيراً، حتى إذا لم يبتعد عنه أحد بسبب موته، فعلى الأقل فإن طريقة موته تجعله يتراجع (عن تبعيته). لأجل هذا السبب صُلب معه لسان وهو في الوسط حتى يشاركهما سمعتهما الردية ولكي يتم قول الكتاب «وأحصي مع أئمة» (إش ٥٣: ١٢) ...^٣ «لذلك رَفَعَهُ اللهُ أَيْضاً، وَأَعْطَاهُ اسْماً فَوْقَ كُلِّ اسْمٍ. لِكَيْ تَجْثُوثَ بِاسْمِ يَسُوعَ كُلِّ رُكْبَةٍ مِمَّنْ فِي السَّمَاءِ وَمَنْ عَلَى الْأَرْضِ وَمَنْ تَحْتَ الْأَرْضِ، وَيَعْتَرِفَ كُلُّ لِسَانٍ أَنَّ يَسُوعَ الْمَسِيحَ هُوَ رَبُّ لِمَجْدِ اللهِ الْآبِ. (في ٩: ١١-١١)»

فلنسأل الهرطقة: لو أن هذا قيل عن واحد لم يتجسد، لو قيل عن الله الكلمة (قبل تجسده)، فكيف رفعه الله؟ هل كما لو كان أعطاه شيئاً أكثر مما هو له قبلاً؟ إذاً (لو نال شيئاً لم يكن له قبلاً) لكان هو ناقصاً في هذه النقطة وجُعل كاملاً لأجلنا. لأنه لو لم يكن قد عمل أعمالاً صالحة لنا، لما كان قد نال هذا الإكرام (المذكور هنا)!

«وأعطاه اسماً»

يقول الهرطقة: انظر ها أنت نفسك تقرّ أنه قد أعطاه اسماً. إذاً فهو

٣- تم هنا حذف فقرة فيها استرسال على نفس الكلام السابق.

لكن كيف، لو أنه ناله كما يليق به، هل يوجد هنا ما يدل على أنه ناله بالنعمة وكهبة؟ وكون أنه «اسماً فوق كل اسم» فلنرى من أي نوع هذا الاسم؟ يقول النص «لكي تجثو باسم يسوع كل ركبة».

يفسر الهراطقة الاسم على أنه مجد. إذاً هذا المجد هو فوق كل مجد، وبالاختصار هذا المجد هو أن يسجد له الكل!

لكنكم جعلتم أنفسكم بعيدين جداً عن عظمة الله يا من تظنون أنكم تعرفون الله كما يعرف هو نفسه، ومن هذا يتضح كيف أنكم منحرفون جداً عن أفكار الله الصحيحة. وهذا يتضح من هنا. أخبروني هل هذا مجد؟ لذلك قبل خلق البشر والملائكة ورؤساء الملائكة لم يكن هو في مجده. هل يكون هذا هو المجد الذي فوق كل مجد (لأن هذا هو الاسم الذي «فوق كل اسم»)، فمع أنه كان في مجده من قبل، لكن كان في مجد أدنى من هذا. إذاً لأجل هذا فقد صنع الأشياء الكائنة حتى يُرفع إلى المجد، ليس من ذات صلاحه، بل لأنه احتاج المجد منا!

ألا تنظر حماقتهم؟ ألا تنظر عدم تقواهم؟ إن كانوا قد قالوا هذا عن ذاك الذي تجسد، لهذا السبب كان الله مُحَقَّاً إذ سمح الله الكلمة أن يقال هذا عن جسده. إن هذا الكلام لا يمس طبيعته الإلهية، لكنه يتفق تماماً مع التدبير.

ماذا تعني عبارة «ممن في السماء ومن على الأرض ومن تحت الأرض»؟

إنها تعني العالم كله والملائكة والبشر والشياطين، أو تعني كلاً من الأحياء الأبرار والخطاة.

«ويعترف كل لسان أن يسوع المسيح هو رب لمجد الله الآب»
(في ٢: ١١).

أي أنه يجب على الكل أن يقول هذا. وهذا مجد للآب.

هل ترون كيف أنه عندما يتمجد الابن، فإن الآب كذلك يتمجد؟ كذلك أيضاً عندما يُزدرى بالابن، يُزدرى بالآب كذلك. إن كان هذا هو الحال معنا حيث الفرق عظيم بين الآباء والأبناء (لأنهم ليسوا واحداً من حيث الكيان)، فكم بالأولى من جهة الله حيث لا فرق (بين الآب والابن من حيث الكيان) يحدث أن الإكرام والإهانة تعبر من الواحد للآخر. إن خضع العالم للابن فهذا مجد للآب. وكذلك عندما نقول إن الابن كامل وغير محتاج لشيء وليس أدنى من الآب فهذا مجد للآب الذي ولد مثل هذا الابن. هنا أيضاً دليل عظيم على قوته وصلاحه وحكمته أنه ولد من هو ليس أدنى منه أبداً لا في الحكمة ولا في الصلاح. عندما أقول إنه ولده فهو ليس أقل منه في الجوهر بل مساو له وليس من جوهر آخر، ففي هذا أيضاً أعجب من الله لقوته وصلاحه وحكمته أنه أظهر لنا من نفسه آخرًا مثله تماماً فيما عدا أنه ليس الآب.

لذلك ليتنا نؤمن بمجده، ليتنا نحيا لمجده، لأن الواحدة لا فائدة لها بدون الأخرى، فعندما نمجده بالحق دون أن نعيش بالحق، إذاً فنحن على الأخص نهينه لأننا اعتبرناه معلماً وسيداً لنا ومع ذلك نحتقره ولا

نخاف البتة من منبر الدينونة المخيف ذاك. ليس بمستغرب أن غير المؤمنين يعيشون في النجاسة، فهذا أمر لا يستحق مثل هذه الدينونة. لكن أن يعيش المسيحيون الذين شاركوا في مثل هذه الأسرار العظيمة والذين استمتعوا بمجد عظيم جداً هكذا في النجاسة، فهذا أسوأ شيء وهو أمر غير محتمل (على قلب الله).

إذ أخبرني: كان السيد المسيح مطيعاً إلى المنتهى، لذلك هو نال الإكرام الذي من فوق، لقد صار عبداً بينما هو رب الكل رب كل الملائكة وكل الآخرين. لذلك ليتنا نحن أيضاً لا نفترض أننا نزلنا عما يحق لنا عندما نضع أنفسنا، لأنه هكذا سُرفِع بالأكثر وأنداك سنصبح محط الإعجاب عن جدارة...^٤

أنه لا يمكن لنا أن نحصل على المجد بأية طريقة أخرى سوى بالهرب منه، فطالما نحن نجد في إثره يهرب هو منا، لكن عندما نهرب منه فإنه يتعقبنا. لو أردت أن تتمجد لا تشبه المجد، وإن أردت أن تكون سامياً لا تجعل نفسك سامياً. لا تمجد ذاتك حتى يمجّدك آخر، إذ الذي يمجّد نفسه لا يمجّده آخرون، والذي يضع نفسه بنفسه لا يضعه آخرون (بأن يذلوه). إن الكبرياء شر عظيم، ومن الأفضل للإنسان أن يكون أحمق عن أن يكون متكبراً. اسمع للحكيم يقول «أرأيت رجلاً حكيماً في عيني نفسه، الرجاء بالجاهل أكثر من الرجاء به» (أم ٢٦: ١٢).

هل ترى كيف أنه لم يكن اعتباراً أنني قلت إن الشر الذي أتحدث

٤- هنا للاختصار تم حذف فقرة يستطرد فيها ذهبي الغم عن الشيطان الذي رفع نفسه فلن. وأبشالوم الذي تجبر فهلك، بينما داود المتضع نجا، وتكلم أيضاً عن الفريسي الذي أهلكه كبريائه بينما العشار نجا بتواضعه.

عنه (الكبرياء) هو أسوأ من الحق، لأنه مكتوب «الرجاء بالجاهل أكثر من الرجاء به»؟ لذلك يقول بولس أيضاً «لا تكونوا حكماء عند أنفسكم» (رو: ١٦: ٢). كم هي عظيمة الأشياء التي يجلبها لنا الاتضاع. ماذا تود أن يكون لك؟ حُلم؟ تحرر من الغضب؟ محبة للآخرين؟ يقظة؟ انتباه؟ كل هذه الأشياء الحسنة تنبع من الذهن المتضع، وعكسها ينبع من الكبرياء، إذ يلزم للمتكبر بالضرورة أن يكون وقحاً، مناكفاً، غضوباً، حقوداً، محبباً للشجار، حيواناً أكثر منه إنساناً.

هل أنت قوي وتفتخر بقوتك؟ ينبغي لك بالأولى أن تتضع لأجل هذا. لماذا تفتخر لأجل العدم؟ لأن الأسد نفسه أشجع منك، والخنزير البري أقوى، وأنت لا تعادل حتى ذبابة مقارنة بهم. اللصوص أيضاً وسارقو المقابر بل وعبيدك، حتى لو كانوا أغبياء هم أقوى منك. فهل هذا موضوع لائق للافتخار؟ ليتك تذوب خجلاً! °

إن الذي يرتفع بذهنه فوق كل الناس هو أيضاً أسوأ من كل الحيوانات غير العاقلة. لذلك نعلم أنه بدون الفضيلة فإننا نكون أدنى حتى من الحيوانات غير العاقلة ذاتها، لذلك فلندرب أنفسنا على الفضيلة حتى نصير بشراً، بل بالأحرى ملائكة، وحتى نستمتع بالخيرات الموعودة بنعمة وراقة ربنا يسوع المسيح الذي له مع الآب والروح القدس القوة والمجد والإكرام الآن وكل أوان وإلى دهر الدهور آمين.

° على نفس النسق تحدث ذهبي الفم عن كيف أن من يتباهون بجمالهم يوجد من الحيوانات والطيور من هو أجمل منهم، ومن لهم أصوات جميلة ومن قاموا برحلات كثيرة يوجد في الطيور من يفوقونهم، وكذلك الذين يتباهون بصحتهم أو يبنمون بها فوق كل شيء آخر، بينما الطيور التي ليس لها مخازن تتمتع بسلام وراحة بال بل وصحة أفضل، وبهذا يتبين ذهبي الفم أن كل هذه الأشياء هي لا شيء ولا تستحق أبداً التباهي.

العظة الثامنة

(فيلبي ٢: ١٢-١٨)

إِذَا يَا أَحِبَّائِي، كَمَا أَطَعْتُمْ كُلَّ حِينٍ، لَيْسَ كَمَا فِي حُضُورِي فَقَطْ، بَلِ
الآنَ بِالْأُولَى جِدًّا فِي غِيَابِي، تَمَّمُوا خَلَاصَكُمْ بِخَوْفٍ وَرِعْدَةٍ، لِأَنَّ اللَّهَ هُوَ
الْعَامِلُ فِيكُمْ أَنْ تُرِيدُوا وَأَنْ تَعْمَلُوا مِنْ أَجْلِ الْمَسْرَةِ. افْعَلُوا كُلَّ شَيْءٍ بِلا
دَمْدَمَةٍ وَلَا مُجَادَلَةٍ، لِكَيْ تَكُونُوا بِلا لُومٍ، وَبِسَطَاءٍ، أَوْلَادًا لِلَّهِ بِلا عَيْبٍ
فِي وَسْطِ جِيلٍ مُعْوَجٍّ وَمَلْتَوِ، تُضِيئُونَ بَيْنَهُمْ كَأَنْوَارٍ فِي الْعَالَمِ. مُتَمَسِّكِينَ
بِكَلِمَةِ الْحَيَاةِ لِافْتِحَارِي فِي يَوْمِ الْمَسِيحِ بِأَنِّي لَمْ أَسْعَ بِإِطْلًا وَلَا تَعَبْتُ بِإِطْلًا
(١٦-١٢: ٢).

إن النصائح التي نعطها يلزم أن تكون مصحوبة باستحسانات لأنها
هكذا تصير مقبولة أيضاً عندما نشهد لمن ننصحهم بقدر الغيرة التي
أظهرها هم أنفسهم كما فعل بولس هنا. ولاحظ بأي فطنة فريدة يقول
«إِذَا يَا أَحِبَّائِي». إنه لم يقل مجرد كلمة «أطيعوا» إلا بعد أن امتدحهم
بهذه الكلمات «كَمَا أَطَعْتُمْ كُلَّ حِينٍ». أي لست أوصيكم أن تقتدوا
بآخرين، بل بأنفسكم «لَيْسَ كَمَا فِي حُضُورِي فَقَطْ، بَلِ الآنَ بِالْأُولَى جِدًّا
فِي غِيَابِي» ولماذا بالأولى جداً في غيابي؟

نعم، ربما بدا أنكم عملتم كل شيء في ذلك الوقت بدافع من الاحترام لي ومن باب الخجل، لكنه لن يكون هكذا لو برهنتم الآن على أنكم تسعون باجتهاد أكثر (في غيابي)، فيبين هذا أنكم لم تكونوا تعملون شيئاً بدافع من الاحترام لي بل تعملونه من أجل الله.

أخبرني ماذا تريد يا بولس؟

أريد ألا تعملوا بدافع من الاحترام لي، بل «تمموا خلاصكم بخوف وورعة» لأنه يستحيل لمن يعيش خلواً من المخافة أن يقيم أي نموذج سام أو مرتفع القدر. وهو لم يقل فقط «بخوف» بل «وبرعة» والتي هي درجة متقدمة من الخوف.

وبولس كان له مثل هذا الخوف، ولذلك قال أنا أخاف لئلا «بعدهما كرزت للآخرين أصير أنا نفسي مرفوضاً» (١كو٩: ٢٧). لأنه إن كان بدون الخوف لا يمكن أبداً للأمر الدنيوية أن تتم فكم بالأولى الروحية، إذ أريد أن أعرف من تثقف بدون خوف؟ ومن نبغ في فن بدون خوف؟ لكن عندما لا يكون الشيطان كامناً في الطريق، فإن التكاسل يكون هو العقبة الوحيدة التي تعترضنا، فكم بالأولى يلزمنا خوف كثير لكي نسيطر على التكاسل الذي هو مغروس بالطبيعة فينا، وحيث هناك حرب شرسة ومعوقات عظيمة تعترضنا فكيف يمكن أن يكون هناك احتمال للخلاص بدون خوف؟

وكيف يمكن لهذا الخوف أن يتولد فينا؟ لو فقط راعينا أن الله موجود في كل مكان ويسمع ويرى كل شيء، وليس فقط ما يُسمع ويقال، بل

كل ما هو خفي في القلب وفي أعماق النفس «مميز أفكار القلب ونياته»
(عب: ٤: ١٢). لو أننا هيأنا أنفسنا هكذا لن نقول أو نفكر أبداً فيما هو شر.

أخبرني: لو كان لك أن تقف دوماً بالقرب من شخص رئيس، ألا تقف هناك بخوف؟ فكيف وأنت واقف في حضرة الله تضحك وتقف بتهاون ولا تشعر بخوف ورعدة؟ ليتك لا تستهين أبداً بأمهاله لأن طول أناته إنما تقتادك إلى التوبة. عندما تأكل اعلم أن الله حاضر وكذا عند نومك أو عند إذعانك لأية شهوة أو عندما تسرق آخر أو تنغمس في الترف أو أياً كان الشيء الذي تصنعه، وبذلك لن تسقط في الضحك أو تغضب أو تهتاج.

إن المهندس المعماري ولو أنه خبير ومتمكن من عمله، ومع ذلك يقف «بخوف ورعدة» لثلا يسقط عليه المبنى. وأنت أيضاً آمنت وعملت أعمالاً حسنة كثيرة وصعدت عالياً (في الفضيلة) فأمن نفسك وكن خائفاً وأنت واقف، وداوم السهر لثلا تسقط. لأن الشرور التي تهدف إلى طرحك متنوعة وكثيرة (أف: ٦: ١٢).

«أعبدوا الرب بخوف وهللوا له برعدة» (مز: ٢: ١١)

كيف يتفق التهليل مع الرعدة؟

نعم هذا هو بالتأكيد التهليل الوحيد (القانوني)، لأنه عندما نؤدي بعض الأعمال الحسنة وكما يليق بمن يعملون كل شيء «برعدة» حينئذ

فقط نتهلل.

«تمموا خلاصكم بخوف ورعدة»

إنه لم يقل «اعملوا» بل قال «تمموا» أي اعملوا باجتهاد ومثابرة كثيرة، لكن إذ قال «بخوف ورعدة» انظر كيف أنه يريحهم من القلق، إذ ماذا يقول؟

«لأن الله هو العامل فيكم»

لا تخافوا لأنني قلت «بخوف ورعدة». إنني لم أقل هذا بهدف أن تستسلموا للقنوط وأن تفترضوا أن الفضيلة إلى حد ما يصعب إدراكها، بل قلت هذا لكيما أقودكم إلى السعي إليها ولكي لا تضيعوا نفوسكم في مساع باطلة، فإن كان الحال هكذا، فإن الله سيعمل كل شيء. تشجعوا «لأن الله هو العامل فيكم». فإن كان هو العامل فمن واجبنا أن نقدم ذهنًا مصممًا وعاقداً النية وغير مترaxي «لأن الله هو العامل فيكم أن تريدوا وأن تعملوا».

(ربما هناك من يقول) إن كان الله هو العامل فينا أن نريد فكيف تنصحنا أنت؟ لأنه إن كان الله نفسه يعمل فينا أيضاً الإرادة، فإن الكلمات التي تقولها لنا «كما أطعتم» هي بلا معنى، لأننا لم «نطع» (من ذواتنا) فباطلاً تقول «بخوف ورعدة» لأن الكل هو من الله.

(يجيب الرسول بالقول) لم يكن من أجل هذا أنني قلت «لأن الله هو العامل فيكم أن تريدوا وأن تعملوا» بل كان قصدي هو أن أريح قلوبكم.

لا تخافوا، فأنتم لستم مقهورين، فكلما من الرغبة القلبية وإتمامها هما عطية منه، لأنه عندما تكون لنا رغبة، آنذاك هو يستزيدها. فمثلاً أنا أريد أن أعمل عملاً ما صالحاً، الله صنع العمل الصالح ذاته، وبواسطة العمل الصالح صنع أيضاً المشيئة. أو أن الرسول يقول هذا بدافع من فيض تقواه، كما عندما يعلن أن أعمالنا الحسنة هي عطايا النعمة. لذلك عندما يدعو هذه الأعمال (الصالحة) عطايا، فإنه لا يضعنا خارج نطاق الإرادة الحرة، بل يمنحنا الاختيار الحر. لذلك عندما يقول «العامل فينا» فإنه لا يحرمنا من الإرادة الحرة بل يبين أنه بالتصرف المضبوط نزيد جداً إخلاصنا في الإرادة.

هل أعطيت صدقة؟ هذا التصرف مدعاة لأن يزيد تحريضك على العطاء. هل رفضت أن تعطي؟ إنك بهذا تصير أكثر حيداناً عن الصدقة. هل ترى كيف أنه لا يحرمنا من إرادتنا الحرة؟

«افعلوا كل شيء بلا دممة ولا مجادلة» (في ٢ : ١٤)

إن إبليس عندما يجد أن لا مقدرة له لأن يبعدها عن عمل الصواب، فإنه يرغب في إفساد مكافأتنا بوسائل أخرى. لأنه قد انتهز الفرصة ليدس الكبرياء أو المجد الباطل، وإن لم يفلح شيء منهما، يدس حينئذ التذمر (الدممة) وإن لم يكن التذمر فإنه يدس الظنون (الردية).

لذا انظر كيف أن بولس أزال كل هذه الأشياء، فهو قال كل ما قاله عن موضوع التواضع ليطرح الكبرياء، وقال عن المجد الباطل «ليس كما في حضوري فقط» وهو هنا يتحدث عن «الدممة (التذمر) والمجادلة».

لكني أريد أن أعرف: لماذا كان الرسول معنياً في حالة أهل كورنثوس باستئصال هذا الدافع الشرير فذكرهم بالإسرائيليين، أما هنا فلم يقل شيئاً من هذا القبيل، بل اكتفى بالتوصية فقط؟

لأن بالنسبة لأهل كورنثوس فإن البلية قد حدثت بالفعل، لهذا السبب كان هناك احتياج لمزيد من الانتهاز القاسي والصارم، ولكنه هنا يقدم نصائح ليمنع حدوثه.

كذلك أيضاً عند كتابته للعبرانيين قدم لهم مثال عيسو قائلاً «الذي لأجل أكلة واحدة باع بكوريته» (عب ١٢: ١٦)، وأيضاً (ذكر) قوله «إن ارتد لا تُسر به نفسي» (عب ١٠: ٣٨). كان يوجد بين أهل كورنثوس العديد ممن كانوا متهمين بالزنا، لذلك قال «أن يذلني إلهي عندكم إذا جئت أيضاً وأنوح على كثيرين من الذين أخطأوا من قبل ولم يتوبوا عن النجاسة والزنا والعهارة التي فعلوها» (٢كو ١٢: ٢١).

«لكي تكونوا بلا لوم وبسطاء» (في ٢: ١٥).

أي بلا لوم وأنقياء، لأن التذمر ليس وصمة هينة. وماذا تعني عبارة «بلا مجادلة»؟ هل الجدل حسن أم غير حسن؟

يقول الرسول: لا تجادلوا حتى لو كان الأمر (الصادر إليكم) شاقاً أو متعباً أو أياً كانت صفته مهما كان.

لم يقل الرسول (أن يفعلوا كل شيء) «حتى لا يُعاقبوا» لأن العقاب محفوظ للشيء (الردي)، وهذا أمر أوضحه في رسالة كورنثوس، لكنه هنا

لم يقل شيئاً من هذا القبيل، بل يقول:

«لَكِي تَكُونُوا بِلَا لَوْمٍ، وَبُسْطَاءَ، أَوْلَادًا لِلَّهِ بِلَا عَيْبٍ فِي وَسْطِ جَيْلٍ مُعْوَجٍ
وَمُلْتَوِ، تُضِيئُونَ بَيْنَهُمْ كَأَنْوَارٍ فِي الْعَالَمِ. مُتَمَسِّكِينَ بِكَلِمَةِ الْحَيَاةِ
لِإِفْتِحَارِي فِي يَوْمِ الْمَسِيحِ» (في ٢: ١٥، ١٦).

هل ترى كيف أنه يعلم هؤلاء ألا يتذمروا؟ لذلك فإن التذمر قد ترك للعبيد الخبثاء والأشرار. لأنه أخبرني أي نوع من البنين يكون ذاك الذي يتذمر دوماً بأنه يعمل في مصالح أبيه و(في الوقت نفسه) يعمل لأجل ذات منفعته؟ فيقول له بولس: إنك تكذب لنفسك ولأجل نفسك تدخر. يحق له أن يتذمر من يرى آخرين يستفيدون من تعبته ويجنون ثمرة كفاحه، لكن الذي يكثر لنفسه لماذا يتذمر؟ هل لأن ثروته لا تزيد؟ لكنها في واقع الأمر تزيد. لماذا يتذمر الذي يعمل عن إرادة حرة وليس عن قسر؟ من الأفضل للإنسان أن لا يعمل شيئاً عن أن يعمل بتذمر، لأن التذمر سيفسد الفعل (الحسن) ذاته.

ألا تلاحظ أنه حتى في وسط عائلاتنا نقول دائماً هذا القول «كان من الأفضل ألا تعمل هذه الأشياء أبداً عن أن تعملها بتذمر؟ ونحن كثيراً ما فضلنا أن نحرم نفوسنا من خدمات الشخص المدين لنا عن أن نخضع نفوسنا لقرع تدمره. لأن التذمر أمر لا يُحتمل ويفوق التجديف، وإلا لماذا على هؤلاء الناس أن يدفعوا عقوبة هكذا صارمة؟ إن التذمر برهان على عدم العرفان، المتذمر هو غير شاكر لله، ومن هو غير شاكر يصير بالتالي مجدفاً. كانت توجد في ذلك الوقت متاعب متواصلة ومخاطر بلا انقطاع ولم تكن هناك هدنة، بل وكانت هناك فظائع لا تُعدّ تضغط عليهم من

كل جانب ، لكننا الآن نحيا في سلام عميق وهدوء تام!

فلماذا تتذمر؟ هل لأنك فقير؟ إذاً فكر في أيوب. هل لأن المرض من نصيبك؟ فكر أيضاً في أيوب وما صار إليه في مرضه الطويل. هل لأن ابنك مات؟ فماذا لو فقدت كل أولادك عن طريق بلية شديدة كما حدث لأيوب؟ وماذا أقول؟ هل أنت نفسك تلقيت أمراً بذبح ابنك وتقديمه محرقة مثل رئيس الآباء الطوباوي، فبماذا كنت ستشعر بينما أنت تقيم المذبح وتضع الحطب عليه وتربط الصبي؟

١٠٠٠ وبينما كان أيوب يُهاجم من كل جانب بطوفان مثل هذا حيث هاجت حوله عاصفة مخيفة وغيوم وأمطار وبروق ورياح عاتية ، فقد بقي هو غير متأثر، جالساً وسط هذه الموجة الكبيرة والتي هي هكذا مخيفة وعاتية كما لو كان في هدوء تام، ولم يتفوه أبداً بكلمة تذر. وهذا حدث قبل عطية النعمة (في العهد الجديد) وقبل أن يقال^٢ أي شيء يختص بالقيامة والجحيم والعقوبة والنقمة.

أما نحن فإننا نسمع الأنبياء والرسل والإنجيليين يتحدثون إلينا بأمثلة لا حصر لها ماثلة أمامنا، وتم تعليمنا بأخبار القيامة ومع ذلك نضمّر التذمر، مع أنه لا يمكن لإنسان القول إن بلاياه قد وصلت إلى مستوى بلايا أيوب. لأنه لو فقد واحد ماله لكنه لم يفقد كل بنيه وبناته ، أو لو حدث له أن أخطأ (ولذلك يُعاقب)، لكن أيوب فقد كل بنيه

١- تحدث ذهبي الفم هنا بإسهاب عما عاتاه أيوب من أمراض وتعبيرات من زوجته وأصحابه مع أنه إنسان بار، ورغم كل هذا لم يتذمر، وأثرنا الاختصار لأنه هذا الكلام موجود في شرحه لسفر أيوب وقد سبق ترجمته.

٢- يرجح كثير من علماء الكتاب المقدس أن سفر أيوب هو أول سفر كتب في العهد القديم.

وبناته فجأة وفي أثناء ذبائحه وعباداته التي كان يقدمها لله (بانتظام). ولو حدث لإنسان أن يفقد كل ما هو له بضربة واحدة، ولكنه مع ذلك لم يُصَب بقروح رديئة في كل جسده، ولا وجد من يوبخه ويؤذي نفسه كأصحابه، الأمر الذي كان أسوأ من كل بلاياه مجتمعة^٣.

لو أننا قلبنا على الدوام هذه المواضيع في أذهاننا، ولو وزناها جيداً فلا يمكن لداء في هذا العصر الحاضر أن يزج سلامنا عندما نشخص لهذا الشجاع الذي له نفس من الماس وتلك الروح التي لا تُخترق كالنحاس. إذ هو كما لو كان محاطاً بجسد من نحاس أو حجر، فقابل كل الأحداث بروح نبيلة وعزم ثابت.

لذلك إذ نضع هذه الأمور في بالنا فلنعمل كل شيء بلا تذر أو جدال. هل أمامك عمل حسن وهل تتذمر؟ ولماذا؟ هل أنت مجبر عليه؟ يقول بولس الرسول (هنا): أنا أعلم جيداً أن كثيرين حولك يدفعونك إلى التذمر. وهذا الأمر أشار إليه قائلاً: «في وسط جيل معوج وملتو». لكن ما يستحق الإعجاب هنا هو أننا لا نستسلم لمثل هذه المشاعر عندما نكون واقعين تحت السخط المر. لأن النجوم تنير في الليل وتلمع في الظلام ولا يتأذى بهاؤها بل تلمع بالأكثر، لكن عند مجيء النور لا تعود تلمع هكذا. وهكذا أنت أيضاً تظهر ببريق أعظم عندما تتمسك بالاستقامة في وسط المعوجين. وهذا ما يستحق إعجابنا أن يكون الإنسان بلا لوم، ولقد قرر بولس هذا الأمر مقدماً لكي لا يشددوا على هذا العذر (أنهم كانوا

٣- استرسل ذهبي الغم بعد ذلك في فقرة تيرهن من واقع حال أيوب معنى هذه العبارة ولذلك تم حذفها منعاً للإطالة.

مجبرين على فعل الشرور بسبب الجيل المعوج من حولهم).

ما المقصود بعبارة «متمسكين بكلمة الحياة»؟

أي معينين للحياة ومن ضمن الذين يربحون الخلاص.

انظر كيف يلحق الرسول في الحال المكافأة التي في الانتظار.

ما المقصود بعبارة «كلمة الحياة»؟

أي لكم بذرة الحياة، عهد (عربون) الحياة. ماسكين الحياة ذاتها، لكم في أنفسكم بذرة الحياة. وهذا هو ما يدعوه «كلمة الحياة» وبالتالي فإن كل الباقيين (غير الماسكين بها) أموات.

«لافتخاري»

ما هذا؟

فيجيب: أنا أيضاً أشارك في أعمالكم الصالحة. كم هي عظيمة فضيلتكم من حيث إنها لا تنجيكم فقط بل أيضاً تجعلني مشهوراً. إنه نوع غريب من الافتخار أيها الطوباوي بولس فأنت تجلد وتُطرد وتُشتتم من أجلنا. لذلك يضيف قوله «في يوم المسيح بأني لم أسع باطلاً ولا تعبت باطلاً» (تابع في ٢: ١٦).

«لكنني وإن كنت انسكب» (في ٢: ١٧)

لم يقل الرسول «وإن كنت أموت أيضاً» ولم يستخدم أيضاً نفس هذا

التعبير لكنه كتب إلى تيموثاوس قائلاً «فإني الآن أُسكب سكيباً».

هو يعزيهم هنا من جهة موته ويعلمهم أن يحتملوا بفرح الموت الذي هو لأجل المسيح، فيقول: أنا أصير كما لو كنت تقدمة وذبيحة.

يا لهذه النفس الطوباوية!

تقديمه لله، يدعوه ذبيحة. (حقاً) إنه من الأفضل أن تقدم نفساً عن أن تقدم ثيراناً.

يقول الرسول: لذلك إن كان هناك شيء فوق هذه التقدمة، فإنني أفرح إذ أضيف موتي كتقدمة.

لأن هذا هو ما يشير إليه عندما يقول «وإن كنت أنسكب أيضاً (أي أموت) على ذبيحة إيمانكم وخدمته، أسرّ وأفرح معكم. وبهذا عينه كونوا أنتم مسرورين أيضاً وافرحوا معي» (في ٢: ١٧، ١٨).

لماذا تفرح معهم؟

هل ترى أنه يريد أن يُظهر لهم أن من واجبهم أن يفرحوا؟

لذلك من ناحية أنا أفرح لكوني جُعلت تقدمة، ومن ناحية أخرى أنا أفرح معكم لكوني قدمت ذبيحة. وبهذا عينه كونوا أنتم مسرورين أيضاً لأنني قُدمت (انسكبت). افرحوا معي أنا الذي أفرح لنفسي.

لذلك فإن موت البار ليس هو موضوع دموع، بل للفرح. لو فرح الأبرار (لموتهم) ينبغي لنا أن نفرح معهم، لأنه ليس من اللائق أن نبكي، بينما

سيحتج أهل فيلبي : لكننا نشاق إلى عشرتنا المعتادة معك .

هذا مجرد عذر وحجة ، وكون الأمر هكذا ، لاحظ ما يوصي به «كونوا أنتم مسرورين أيضاً وافرحوا معي» .

هل تفتقدون عشرتكم المعتادة؟ لو كنتم أنفسكم أيضاً معنيين بالبقاء هنا كان معكم الحق فيما تقولونه ، لكن إن كان بعد فترة قصيرة ستلحقون بمن رحل ، فما هي العشرة التي تطلبونها (وتتباكون عليها)؟ لأن الإنسان يفتقد عشرة آخر لو قطع عنه إلى الأبد ، لكن إن كان قد ذهب إلى نفس الطريق الذي سوف تذهب إليه فأى عشرة تشاق إليها؟ لماذا لا ننتحب على كل من هم مسافرون إلى بلاد أجنبية؟ ألا نتوقف عن البكاء بعد اليوم الأول أو الثاني؟

لو اشتقت إلى عشرتك المعتادة ، ابكِ إلى هذا الحد فقط (يوماً أو يومين) ، وبولس الرسول يقول : إنه ليس شراً أن أتألم بل أنا أيضاً أفرح في زهابي إلى المسيح . وأنتم ألا تفرحون (لفرحي)؟ «افرحوا معي» .

ليتنا نحن أيضاً نبتهج عندما نرى إنساناً باراً يموت وأيضاً نفرح (له) أكثر مما عندما يموت أحد الأشرار المتهورين ، لأنه سينال مكافأة أتعبه ، لكن قد يقال : ربما كان هذا الشرير سيتغير لو عاش . لكن الله يستحيل أن يأخذ نفساً لو كان لها بالفعل أي توقع في التغيير (نحو الأحسن) .

لذلك ليتنا نوقف حدة حزننا ونقطعه وليت صوت النحيب يتوقف

ولنشكر الله على كل حال ولنعمل كل شيء بلا تذرر ولنتشجع ولنصبح
سبب مسرة لله في كل شيء حتى ننال الخيرات الآتية بنعمة ورأفة ربنا
يسوع المسيح الذي له مع الآب والروح القدس القوة والمجد والإكرام الآن
وكل أوان وإلى دهر الدهور آمين.

العظة التاسعة

(فيلبي ٢: ١٩-٣٠)

عَلَى أَنِّي أَرْجُو فِي الرَّبِّ يَسُوعَ أَنْ أُرْسَلَ إِلَيْكُمْ سَرِيعاً تَيْمُوثَاوُسَ لِكَيْ تَطِيبَ نَفْسِي إِذَا عَرَفْتُ أَحْوَالَكُمْ. لِأَنَّ لَيْسَ لِي أَحَدٌ آخَرَ نَظِيرُ نَفْسِي يَهْتَمُّ بِأَحْوَالِكُمْ بِإِخْلَاصٍ، إِذِ الْجَمِيعُ يَطْلُبُونَ مَا هُوَ لِأَنْفُسِهِمْ لَا مَا هُوَ لِيَسُوعَ الْمَسِيحِ. (٢: ١٩-٢١).

لقد قال بولس الرسول: «إن أموري قد آلت أكثر إلى تقدم الإنجيل، حتى إن وثقي صارت ظاهرة في المسيح في كل دار الولاية»، وأيضاً قال: «لكنني وإن كنت انسكب أيضاً على ذبيحة إيمانكم وخدمته». وبهذه الكلمات قواهم.

ولربما ظنوا أنه كلماته السابقة قد قيلت لمجرد تعزيتهم، فماذا فعل؟ قال لهم (هنا) إنه يرسل إليهم تيموثاوس لأنهم اشتاقوا لسماع كل ما يختص به. ولماذا لم يقل «لكي تعرفوا أحوالي» بل قال «لكي أعرف أحوالكم»؟ لأن أبفروتس قد أخبرهم بأحواله قبل وصول تيموثاوس. لذلك بعد قليل يقول «ولكنني حسبت من اللازم أن أرسل إليكم أبفروتس أخي» (في ٢: ٢٥)، لأنني (والكلام لبولس الرسول) أريد أن

أعرف أحوالكم. لأنه من المحتمل أن أبفرودتس قد بقى فترة طويلة أثناء مرضه. لذلك يقول الرسول «أريد أن أعرف أحوالكم».

هنا يُظهر الرسول أنه يلزمهم أن يبتهجوا لقيوده وبتكليفوا معها، لأنها ولدت فيه بهجة عظيمة، لأن عبارة «لكي تطيب نفسي» تشير (ضمناً) كما طابت لكم.

آه!، أي اشتياق كان لبولس من جهة المكدونيين! وهو يظهر نفس الاشتياق لأهل تسالونيكى عندما يقول «وأما نحن أيها الإخوة فإن قد فقدناكم ساعة بالوجه لا بالقلب اجتهدنا أكثر باشتهاء كثير أن نرى وجوهكم» (١ تس ٢: ١٧). وهنا يقول «أرجو أن أرسل إليكم تيموثاوس حتى أعرف أحوالكم» الأمر الذي هو برهان على الاهتمام الزائد، لأنه عندما لم يستطع هو نفسه أن يكون معهم، فإنه أرسل تلاميذه إذ لم يستطع أن يبقى ولو لوقت قليل بدون أن يعرف أحوالهم. لأنه لم يتعلم كل الأشياء باعلان الروح، وعن هذا يمكن أن نرى سبباً ما، لأنه لو اعتقد التلاميذ أنه يعلم كل شيء بالاعلانات من الروح القدس لكانوا قد فقدوا كل معنى للخزي، لكن الآن نتيجة لعدم المعرفة فقد كان من السهل جداً تقويمهم^١. و يجذب انتباههم بدرجة عالية بقوله «لكي تطيب نفسي» ويجعلهم أكثر غيرة، لكي عند مجيء تيموثاوس سوف يعرف احوالهم مباشرة منه. ويبدو أنه تصرف شخصياً بطريقة مباشرة عندما أجل ذهابه

١- هذه الجملة غامضة ولكن يبدو أن معناها أنه حينما يعلم التلاميذ أن بولس لا يعرف دواخلهم يسهل عليهم الظهور أمامه، الأمر الذي يعطيه فرصة لتقويمهم وفي نفس الوقت يخجلون من أنفسهم كلما أشار إلى عيب دون أن يحدد أحداً منهم بالاسم، بينما لو عرفوا أن كل خفاياهم مكتشفة ومعروفة له، لن يتجاسروا على الظهور أمامه، الأمر الذي يجعلهم مع الوقت يفقدون الخزي والتبكتيت من ضمائرهم نتيجة الخطايا التي يفتقرونها لعدم وجود من يرشدهم ويقومهم.

إلى كورنثوس حتى يتوبوا، لذلك كتب قائلاً «إني إشفافاً عليكم لم آت إلى كورنثوس» (٢كو ١: ٢٣)، لأنه محبته ظهرت ليس فقط في إخبارهم بحاله، بل أيضاً في رغبته لمعرفة حالهم، لأن هذا هو دور النفس التي تهتم بآخرين وتعتني بهم وتجاهد دائماً لأجلهم. وفي نفس الوقت أيضاً فقد أكرمهم بإرساله تيموثاوس.

ماذا تقول يا بولس؟ هل سترسل تيموثاوس؟ ولماذا؟ «لأنه ليس لي أحد آخر نظير نفسي يهتم بأحوالكم بإخلاص» (في ٢: ٢٠).

ألم يكن لديه آنذاك أحد آخر من الذين كانوا معه؟ لا أحد نظيري، أي له اشتياقات (من نحوكم) ويهتم بكم كما أفعل أنا. ويقصد هنا: لا أحد سيختار بسهولة أن يقوم بمثل هذه الرحلة الطويلة لأجل هذا الغرض. فتيموثاوس هو الوحيد معي الذي يحبكم كما أنا. لأنني قد أرسلت آخرين، لكن لم يكن هناك أحد مثله. إذا فهذا هو الاهتمام المشابه أن يحب التلاميذ كما يحبهم المعلم. ويقول الرسول (هنا) «يهتم بأحوالكم بإخلاص» أي كأب، «إذ الجميع يطلبون ما هو لأنفسهم لا ما هو ليسوع المسيح» أي يطلبون راحتهم وأمنهم. ونفس هذا الكلام كتبه إلى تيموثاوس.

لكن لماذا يذكر أشياء كهذه؟

ليعلمنا نحن سامعيه ألا نسقط في شيء شبيه، وليعلم سامعيه (بصفة عامة) ألا يستعفوا من التعب، لأن الذي يسعى لأن يستعفي من التعب لا يطلب ما هو للمسيح بل ما هو لنفسه. ينبغي لنا أن نكون مستعدين

لمواجهة كل تعب وكل ضيقة.

«وأما اختباره فأنتم تعرفون أنه كولد مع الأب خدم معي لأجل الإنجيل» (في ٢: ٢٢).

وهذا الكلام لا أقوله (أنا بولس) عشوائياً «فأنتم تعرفون أنه كولد مع أب خدم معي لأجل (انتشار الإنجيل)».

إذاً هو يقدم لهم تيموثاوس لكي يحظى بإكرام جليل منهم. وهذا أيضاً يفعله عندما يكتب إلى أهل كورنثوس فيقول «لا يحتقره أحد لأنه يعمل عمل الرب كما أنا أيضاً» (١كو١٦: ١٠ ، ١١).

ولم يقل الرسول هذا كاهتمام (زائد) منه بتيموثاوس، بل لكي ينال الذين يستقبلونه مكافأة عظيمة.

«هذا أرجو أن أرسله أول ما أرى أحوالي حالاً» (في ٢: ٢٣).

أي عندما أرى موقفي وأية نهاية ستؤول إليها أموري.

«وأثق بالرب أنني أيضاً سأتي إليكم سريعاً» (في ٢: ٢٤)

لذلك لست أرسله كما لو كنت أنا نفسي لن آتي، بل لكي أتشجع عندما أعلم أحوالكم، ولكي في نفس الوقت لا أكون غير عارف بها.

يقول الرسول «وأثق بالرب». انظر كيف يجعل كل الأمور تعتمد على الله ولا يتحدث بشيء من عنده. أي (بتعبير آخر) هذه إرادة الله.

«ولكنني حسبت من اللازم أن أرسل أبفروتس أخي والعامل معي»
(في ٢: ٢٥).

وهو يرسل أبفروتس أيضاً بنفس التزكية (حرفياً الاستحسانات) كتيموثاوس، لأنه قد امتدح تيموثاوس لسببين: أولاً أنه يحبهم وهذا واضح في قوله «يهتم بأحوالكم بإخلاص». وثانياً أنه قد تزكى في الإنجيل.

ولنفس السبب وبنفس المقاييس امتدح هذا الإنسان (أبفروتس)،
وكيف؟

بدعوته أخاً وعاملاً معه. ولم يتوقف عند هذه النقطة بل أيضاً قال «المتجند معي» وأظهر كيف أنه شاركه في أخطاره وشهد له بنفس الصفات التي شهدها لنفسه. لأن عبارة «متجند معي» أكثر عمقاً من «عامل معي»، لأنه ربما كان قد ساعده في أمور هادئة لكن ليس في الحروب والأخطار، إنما في قوله «المتجند معي» شهد له بهذا أيضاً.

«ورسولكم والخادم لحاجتي»

أي أنا أعطيك من هو لكم، إذ أرسل من هو لكم (ومنكم)، أو ربما الذي هو معلمكم. ويضيف أيضاً أشياء تختص بحبه (لهم) بقوله:

«إذ كان مشتاقاً إلى جميعكم ومعموماً لأنكم سمعتم أنه كان مريضاً. فإنه مرض قريباً من الموت، لكن الله رحمه وليس إياه وحده بل إياي أيضاً لئلا يكون لي حزن على حزن» (في ٢٦: ٢، ٢٧).

هنا يهدف بولس الرسول إلى نقطة أبعد موضحاً أن أبفروتس أيضاً كان يعي جيداً أنه كان محبوباً منهم. وهذا ليس أمراً هيناً من جهة الحب. وبولس يقول: أنتم تعلمون كيف أنه كان مريضاً واغتم لأنه لم يركم بعد شفائه ليزيل الحزن الذي سببه مرضه لهم. وهنا أيضاً يعطي سبباً آخر لإرسال أحد إليهم متأخراً جداً، ليس عن تقصير بل إنه احتفظ بتيموثاوس لأنه لم يكن آخر سواه، وأبفروتس بسبب مرضه. بعد ذلك يُظهر أن هذا المرض كان طويلاً وصعباً بقوله «إنه مرض قريباً من الموت».

انظر كم كان بولس متشوقاً لأن يبعد عن تلاميذه كل هاجس في أن عدم مجيئه لم يكن بسبب أنه ازدري أو استخف بهم. لأنه ليس ثمة شيء له قوة لأن يجتذب التلميذ نحو معلمه مثل اقتناعه أن اهتمامات معلمه العظمى موجهة له وأنه مملوء غمّاً لأجله، لأن هذا هو دور المحبة الفائضة.

يقول الرسول «لأنكم سمعتم أنه كان مريضاً. فإنه مرض قريباً من الموت»، ولكن كوني (أنا بولس) لا أقدم عذراً (تافهاً)، اسمع ما يلي ذلك. «لكن الله رحمه».

٤- ما تحته خط ورد هكذا في النص الإنجليزي That is, this despondency I now cast off ، وغير واضح ترابطه من جهة المتكلم وموقعه في سياق النص.

فماذا نقول أيها الهرطوقي؟ إنه مكتوب هنا أن رحمة الله استعادت وأعادت ثانية من كان على وشك الرحيل (الموت). ولكن لو كان العالم شراً، فليس من الرحمة أن تترك إنساناً في الشر.

إن إجابتنا للهرطوقي سهلة، لكن بماذا سنجيب المسيحي؟ لأنه ربما قد يسأل ويقول: إن كان لا بد للإنسان أن يرحل ويكون مع المسيح وذاك أفضل جداً، فكيف قال بولس هنا إنه قد نال رحمة؟ إنني أسأل لماذا يقول الرسول نفسه «أن أبقى في الجسد ألزم من أجلكم»؟

لأنه كما كانت هناك ضرورة له (أن يبقى في الجسد)، كذلك أيضاً كانت هناك ضرورة لهذا الإنسان الذي سيرحل فيما بعد إلى الله بمزيد من الغنى الفائض والדالة الأعظم. وهذا سيحدث فيما بعد (لو بقيت لمزيد من الوقت في الجسد)، حتى لو لم يتم الآن^٢، لكن ستنتهي تلك النفوس الراححة (التي كانت ترحب وهي على الأرض) بالنسبة لهؤلاء الذين رحلوا إلى هناك.

إن بولس يتحدث في مواضع كثيرة بحسب العادات الشائعة لدى سامعيه وليس دائماً بما يتوافق مع حكمته السماوية، لأنه كان يكلم أناساً خائفين من الموت، ثم يبين أنه كيف أنه قدّر أبفروتس، ومن ثمّ يجلب له الاحترام بقوله إن بقاءه كان مفيداً جداً له، وأن الرحمة التي أظهرت لأبفروتس وصلته هو أيضاً. علاوة على هذا، وبعيداً عن هذا الكلام، فإن الحياة الحاضرة هي خير، وإن لم تكن هكذا، فلماذا يربط بولس

٢- هذه العبارة غامضة والضمير ورد في الإنجليزية it، ومن غير الواضح أن الذي سيتم هنا هل هي الرحمة أم الرحيل من العالم.

بين الموت الذي في غير أوانه وبين العقوبة كما عندما يقول «من أجل هذا فيكم كثيرون ضعفاء ومرضى وكثيرون يرقدون» (١ كو ١١: ٣٠). لأن الحياة الآتية ليست هي مجرد أفضل من وضع شرير (الحياة الأرضية)، فإذ أنها (أي الحياة الآتية) ليست (فقط) حسنة، بل هي (أيضاً) أفضل من وضع حسن^٣.

«لئلا يكون لي حزن على حزن»

لئلا يكون لي حزن على موته مضافاً إلى الحزن الذي نشأ من مرضه. بهذا يظهر كيف أنه يقدر أبفروتس كثيراً.

«فأرسلته إليكم بأوفر سرعة» (في ٢: ٢٨).

ما المقصود بأكثر سرعة؟ أي بدون تسويق وبدون تأجيل وبمنتهى السرعة، وأمرته أن يطرح كل شيء جانباً ويمضي إليكم حتى تتخلصوا من الغم، لأننا لا نبتهج عند سماعنا عن صحة من نحبههم بقدر ما يكون عندما نراهم وخصوصاً بالأكثر عندما يحدث الشفاء على عكس التوقع كما كان الحال بالنسبة لأبفروتس.

«فأرسلته إليكم بأوفر سرعة حتى إذا رأيتموه تفرحون أيضاً وأكون أنا أقل حزناً» (في ٢: ٢٨).

كيف أقل حزناً؟ لأنه لو فرحتم، أنا أيضاً أفرح، وهو (أبفروتس) أيضاً يفرح لفرحكم، وأنا سأكون «أقل حزناً».

٣- يبدو هنا أن ذهبي الغم يريد القول إن الحياة الآتية هي أفضل من حياة الجسد التي هي حسنة وليست شريرة. أي هي أفضل من شيء فاضل وليست أفضل من شيء شرير.

لم يقل الرسول «بلا حزن» بل قال «أقل حزناً» ليبين أن نفسه لم تخلُ أبداً من الحزن، لأنه هو الذي قال «من يضعف وأنا لا أضعف، من يعثر وأنا لا ألتهب» (٢كو١١: ٢٩). متى يمكن لمثل هذه النفس أن تكون خالية من الحزن؟ أي أنني قد طرحت الآن هذا اليأس^٤.

«فاقبلوه في الرب بكل فرح وليكن مثله مكرماً عندكم» (في ٢: ٢٩).

«في الرب»

إما أنه يقصد اقبلوه روحياً وبغيرة كثيرة، أو بالأحرى اقبلوه بما يرضي الرب، اقبلوه بطريقة تليق بقديسين، نحن يجب أن نقبل القديسين بفرح. وكل هذا يفعله لأجلهم وليس لأجل من يرسلهم، لأن فاعل العمل الصالح ينال ربحاً أعظم من الذي تلقى هذا العمل الصالح.

«وليكن مثله مكرماً عندكم»

أي اقبلوه كما يليق بقديسين.

«لأنه من أجل عمل المسيح قارب الموت مخاطراً بنفسه لكي يجبر نقصان خدمتكم لي» (في ٢: ٣٠).

لقد أرسل هذا الشخص من قبل مدينة فيلبي، وأنه كخادم لبولس ربما أتى معه ببعض المعونة، لأن بولس يُظهر في نهاية الرسالة أنه أتى إليه أيضاً بمال عندما يقول «إذ قبلت من أبفروتس الأشياء التي من

٤- ما تحته خط ورد هكذا في النص الإنجليزي That is, this despondency I now cast off ، وغير واضح ترابطه من جهة المتكلم وموقعه في سياق النص.

عندكم» (في ٤: ١٨). إذاً من المحتمل أن أبفروتس عند وصوله إلى مدينة روما وجد بولس في خطر عظيم جداً، حتى أن كل من كانوا معتادين أن يترددوا عليه، كانوا عاجزين عن زيارته بأمان، بل إن ترددهم عليه كان يعرضهم للخطر، الأمر الذي كان معتاداً حدوثه أساساً في الأخطار العظيمة والسخط الشديد للملوك (لأنه عندما يستاء الملك من أحد ويُلقى في السجن وتوضع عليه حراسة مشددة، فإن خدامه أيضاً يُمنعون عن الدخول وربما هذا قد حدث لبولس) وأن أبفروتس لكونه يتميز بالنبل فقد ازدري بكل المخاطر حتى إنه دخل إليه وخدمه وصنع له كل ما يحتاجه. لذلك قدم حقيقتين بهما حاز احترامهم، الأولى يقول بولس عنها إنه في مخاطرته لأجله جازف حتى قارب الموت، والثانية أنه في معاناته هكذا كان يمثل مدينتهم، حتى إن مكافأة مجازفته ستُحسب لمدينته كما لو كانت المدينة قد أرسلته كسفير لها، حتى إن نوعاً من القبول والاستحسان لما قد فعله يمكن أن يُدعى بالأولى مشاركة في الأشياء التي تجاسر عليها. وهو لم يقل «من أجلي» بل أضاف تأكيداً أكثر لكلماته بقوله «من أجل عمل المسيح» لأنه عمل ليس من أجلي بل من أجل الله أنه «قارب الموت مخاطراً بنفسه» فماذا؟ فإنه بفضل عناية الله لم يمت، مع أنه لم يعتبر حياته شيئاً وعرض نفسه لأي ألم يمكن أن يحل به في سبيل أن لا يرجع عن خدمتي. وإن كان قد عرض نفسه للموت في سبيل أن يخدم بولس، فكم بالأولى سيحتمل هذا من أجل الإنجيل، أو بالأحرى الموت لأجل بولس هو أيضاً موت لأجل الإنجيل. لذلك ليتنا عندما نرى القديسين في خطر ألا نعتبر حياتنا شيئاً، لأنه يستحيل بدون مجازفة أن نُؤدي أي عمل نبيل، لأن الذي يولي اهتماماً

شديداً لأمنه هنا، حتماً سيسقط من الأمن الآتي.

«لكي يُجبر نقصان خدمتكم لي» (تابع في ٢: ٣٠).

ما هذا؟ إن المدينة لم تكن حاضرة، لكن بإرسالها أبفروتس أتمت من خلاله كل خدمة لي. لذلك هو جبر (كَمَل) نقصان خدمتكم لي، حتى إنه لهذا السبب أيضاً يستحق أن يتمتع بإكرام جليل، إذ كل ما يجب أن تفعلوه، قد فعله أبفروتس نيابة عنكم. وهو يُظهر هنا أن هناك أيضاً خدمة سابقة أداها من كانوا يعيشون في أمن لمن كانوا في خطر، لأنه هكذا يتحدث عن النقص ونقص الخدمة. هل ترى روح الرسول؟

إن هذه الكلمات لا تنبع من كبرياء بل من اهتمامه العظيم بهم، لأنه يدعو الأمر «خدمة»، «نقصاً» حتى لا ينتفخوا بل يتضعوا ولا يظنوا أنهم صنعوا أمراً ما عظيماً، بل يكون لهم ذهن متضع. لأننا نحن مدينون للقديسين بدين ولسنا نمنّ عليهم معروفاً. لأن كما أنه واجب على من هم في سلام ولا يشاركون في الحرب أن يتكفلوا بطلبات من هم في جبهة القتال (لأنهم يحاربون عنهم)، كذلك الأمر هنا أيضاً. لأنه لو لم يكن بولس يبشر (بالإنجيل)، من كان سيلقيه في السجن؟

لذلك يلزمنا أن نخدم القديسين. لأنه أليس من السخافة أن نزود الملك الأرضي بكل ما يحتاجه من طعام ولباس، ليس بحسب احتياجه الشخصي (فقط)، بل (أيضاً) بفيض (لجنوده)، بينما عندما ينخرط (تابعو) ملك السموات ويحاربون أعداء أكثر شراسة جداً (لأنه مكتوب «مصارعتنا ليست مع لحم ودم» أف ٦: ١٢) ألا نمدّه بسرعة بالضروريات؟

أية حماقة هذه؟ يا لهذا الجحود! أي حب دنيء للربح!

لكن كما هو ظاهر فإن الخوف من الإنسان له تأثير علينا أعظم من خوفنا من الجحيم والعذابات الآتية. لأجل هذا السبب بالحق فإن كل الأمور انقلبت رأساً على عقب، لأن الشئون السياسية تتم يومياً بهمة عظيمة، ويلزم ألا يُترك منها أمر دون إتمام، بينما لا يوجد أبداً أي اهتمام بالأمر الروحية، بل الأشياء المطلوبة منا عن ضرورة وعن إجبار. كما لو كنا عبيداً ورجماً عن إرادتنا نتمها بهمة شديدة، بينما تلك التي تُطلب منا من أذهان راضية وكما من أناس أحرار، ففيها أيضاً تقصير وعجز.

لست أتكلم ضد الكل بل عن المقصرين من جهة هذه الإمدادات. ألم يكن بإمكان الله أن يجعل هذه المساهمات إجبارية؟ لكنه لم يتصرف هكذا لأن اهتمامه الأكثر هو لك أكثر من الذين تعضدهم بمعونتك. لذلك هو لم يُردك أن تساهم عن ضرورة (إجبار) إذ آنذاك لن توجد مكافأة، ولكن كثيراً من الواقفين هنا أقل مستوى من اليهود. انظر كم هي عظيمة الأشياء التي أعطاها اليهود: العشور وأبكار الثمار ٠٠ وأيضاً عشور أخرى والشيكل للهيكل واللاويين، ولم يقل كم أشياء كثيرة يأخذون، لأنه كلما أخذوا أكثر، كلما كانت المكافأة أعظم. إنهم لم يقولوا (عن رجال الدين) إنهم نالوا الكثير، إنهم شرهون، وهي الكلمات التي أسمعها الآن من البعض. وبينما هم العلمانيين من جانبهم يبنون البيوت ويشترون العقارات ولا يظنون أنهم عملوا شيئاً (خطأً)، لكن لو أن الكاهن لبس ثياباً أبهى من المعتاد، وكان له أكثر مما هو ضروري لقوته أو كان لديه

خادم حتى لا يجبر نفسه على التصرف بطريقة لا تليق (في بعض شئونه)
فإنهم يعدون هذا من باب الغنى (الذي لا يجوز له)!

إلى أي مدى ستمتد حماقتنا؟ ألا يكفي لعقوبتنا أننا لا نعمل عملاً صالحاً، حتى (حرفياً بل) يلزمنا أن نضيف لها عقوبة الكلام الأثيم؟ لأنه لو كان ما لديه هو من عطايك فإنك تكون قد خسرت مكافأتك بتوبيخه عما أعطيته له. وبالاختصار لو أعطيته فلماذا توبخه؟ لقد شهدت لفقره منذ قليل بقولك إن ماله كان من عطايك، فلماذا توبخه (تعايره)؟ . ما كان لك أن تعطيه إن كنت قد نويت أن تتصرف هكذا. لكن هل تتكلم هكذا عندما يعطي آخر (غيرك شيئاً للكاهن)؟ فهذا بالأولى محزن بالأكثر، لأنه بينما أنت نفسك لم تعطه، تلوم لأجل الأعمال الحسنة التي يقوم بها شخص آخر. كم مكافآت عظيمة تظن أنه سينالها من ينطبق الكلام عليهم هكذا؟ إنهم يعانون هكذا من أجل الله. لماذا وكيف؟ لأنهم لو أرادوا لامتنهوا لأنفسهم أية حرفة حتى لو كانوا لم يأخذوها عن أجدادهم. لأنني اسمع كثيرين يتحدثون هكذا عشوائياً عندما نقول إن شخصاً ما فقير. إنهم يقولون (عن كاهن ما): لو أراد لكان يمكنه أن يصير غنياً. وبعد ذلك يضيفون بسخرية أن أباه وجدته (لم يكونا أغنياً)، ولست أعلم (أنا يوحنا) من كان هكذا (حتى لا يظن أحد أنني أتكلم عليه)، لكن الآن انظر أي رداء يرتدي!

لكن أخبرني (من فضلك): هل يلزم (للكاهن) أن يخرج عرياناً؟ إذا أنتم بدأتهم بأسئلة مدققة على هذه النقاط، لكن انظر لئلا تتحدث هكذا ضد نفسك. واسمع لنصيحة المسيح القائل «لا تدينوا لكي لا تُدانوا»

(مت ٧: ١). كان يمكنه بالحق لو أراد أن يمتهن حرفة أو يعمل في التجارة وما كان بالتأكيد سينقصه شيء، لكنه لم يرد.

ربما هناك من يقول: فماذا ربح هنا؟ أخبرني ما الذي ربحه؟ هل هو يلبس ثياباً حريرية؟ هل هو يشق طريقه بافتخار في أحد ميادين روما وسط جيش من التابعين؟ هل هو يمتطي حصاناً؟ هل يبني بيوتاً وهو لديه ما يسكن فيه؟ لو تصرف هكذا فأنا أيضاً ألومه ولا أشفق عليه، بل أعلن أنه غير جدير بالكهنوت. لأنه كيف يمكنه أن ينصح آخرين ألا ينفقوا وقتهم في النوافل ذاك الذي لا يمكنه أن ينصح نفسه؟ لكن لو كان لديه مورد كافٍ (يغطي احتياجاته) فهل هو بذلك يخطئ (لو تصرف هكذا)؟ هل تريده أن يحيا متشرداً ويشحذ؟ ألسنت أنت كتلميذ له ستخزي (من شحاتته)؟ هل لو أن والدك بالجسد تصرف هكذا، أما كنت تظن هذا شيئاً مخزياً؟ لو أن أباك الروحي أجبر على أن يتصرف هكذا أما كنت ستخفي رأسك، بل وتعتقد أنك تغوص في الأرض (خزياً). إنه مكتوب «إهانة الأب هي تعبير للأولاد» (بن سير ٣: ١١ بحسب النص). لكن ماذا؟ هل عليه أن يموت من الجوع؟ هذا لم يكن يليق بإنسان تقي لأن الله لا يريد هذا.

لكن ما الذي يفلسفه (منتقدو الكاهن) في الحال؟ إنهم يقولون مكتوب «لا تقتنوا ذهباً ولا فضة ولا نحاساً في مناطقكم ولا مزوداً للطريق ولا ثوبين ولا أحذية ولا عصا» (مت ١٠: ٩، ١٠)، بينما هؤلاء لهم ثلاثة أو أربعة ثياب، وأسرتههم مفروشة حسناً.

إنني مجبر الآن أن أتنهّد تنهيدة مرّة ولو لم يكن لاثقاً لبكيت أيضاً!
ولماذا؟ لأننا نفحص بفضول كثير في قذى الآخريّن، بينما لا نفطن إلى
الخشب الذي في عيوننا!

أخبرني لماذا لا تقول هذا الكلام لنفسك؟

ستكون الإجابة: لأن الأمر صادر فقط لمعلمينا.

إذاً عندما يقول بولس «إن كان لنا قوت وكسوة، فلنكتف بهما»
(١ تي ٦: ٨)، فهل يقول هذا فقط للمعلمين؟

كلا على الإطلاق، بل يقوله لكل الناس، وهذا واضح لو قرأنا الأعداد
السابقة، إذ ماذا يقول «التقوى مع القناعة فهي تجارة عظيمة. لأننا لم
ندخل العالم بشيء وواضح أننا لا نقدر أن نخرج منه بشيء» (١ تي ٦: ٦،
٧)، ثم أضاف في الحال قوله «فإن كان لنا قوت وكسوة فلنكتف بهما.
وأما الذين يريدون أن يكونوا أغنياء فيسقطون في تجربة وفخ وشهوات
كثيرة غبية ومضرة» (١ تي ٦: ٨، ٩).

أنتم ترون أن هذا الكلام قيل لكل وكيف أنه عندما يقول أيضاً
«لا تصنعوا تدبيراً للجسد لأجل الشهوات» (رو ١٣: ١٤). ألا يقول
هذا بصورة مطلقة لكل؟ وماذا عندما يقول «الأطعمة للجوف والجوف
للأطعمة، والله سيبيد هذا وتلك» (١ كو ٦: ١٣)، أو ماذا عندما يقول
«أما المتنعمة فقد ماتت وهي حية» (١ تي ٥: ٦)، وهو هنا يتحدث عن
الأرملة، فهل الأرملة معلّم؟ ألم يقل هو نفسه «ولكن لست آذن للمرأة أن

تعلم ولا تتسلط على الرجل» (١٢: ٢).

لأنه إن كانت الأرملة في العمر المتقدم (والكبيرة تحتاج لرعاية أكثر) وطبيعة المرأة أيضاً (لأن جنس المرأة لكونه ضعيفاً يكون في احتياج لإنعاش أكثر)، فإن كان حيث هناك التقدم في السن والطبيعة (الضعيفة) لم يسمح لها الرسول أن تحيا في التنعم، بل أيضاً يقول إنها ماتت، لأنه لم يمنع مجرد حياة التنعم فقط، بل قال «المتنعمة ماتت وهي حية» وبهذا قطعها، لأن الميتة هي مقطوعة، فأى تساهل يكون لمن يعمل هذه الأشياء التي عوقبت عليها أيضاً من هي امرأة وفي نفس الوقت متقدمة في السن؟

لكن لا أحد يعطي اهتماماً لهذه الأشياء ولا أحد يفحصها. وأنا اضطررت أن أقول هذا الكلام ليس رغبة مني في أن أخلص الكهنة من هذه التهم بل إشفافاً مني عليكم. إنهم في الواقع لم يعانوا أي ضرر على يديك، حتى لو تم اتهامهم عن عدل وحق بكونهم جشعين هكذا في الربح، لأنه سواء تكلمت أو امتنعت فإنهم حتماً سيعطون حساباً للديان، وهكذا لم تضرهم كلماتك أبداً. لكن لو أن كلماتك فضلاً عن ذلك كانت غير صحيحة، فإنهم من جانبهم يربحون من هذه الاتهامات الباطلة، بينما أنتم تؤذون نفوسكم بهذه الوسائل. لكن ليس الأمر هكذا معكم، إذ سواء كانت اتهاماتكم صحيحة أو باطلة فإن كلامكم عنهم بالسوء يؤذيكم. وكيف هذا؟ لو أن اتهاماتكم صادقة ففي إدانتكم لمعلميكم وقلبيكم للترتيب تفعلون هذا لأذيتكم. لأنه إن كان يجب علينا ألا ندين أحداً فكم بالأولى معلماً. لكن لو كان الاتهام باطلاً، فإن العقوبة والجزاء يكون غير

محتمل لأن «كل كلمة بطالة ستعطون عنها حساباً» (مت ١٢: ٣٦). لذلك لأجلكم أنا أتكلّم هكذا وأتعب. لكن كما قلت لا أحد (له أن) يستقصي هذه الأشياء، لا أحد يشغل نفسه بها، لا أحد يتشاور مع نفسه عن أي من هذه الأشياء. هل تريدون أن أضيف المزيد؟ يقول السيد المسيح «من لا يترك جميع أمواله لا يستحقني» (لو ١٤: ٣٣؛ مت ١٠: ٣٧). وماذا عندما يقول «عسير على الغني أن يدخل ملكوت السموات؟» (مت ١٩: ٢٣؛ مر ١٠: ٢٤)، وماذا عندما يقول أيضاً: «ويل لكم أيها الأغنياء لأنكم قد نلتم عزاءكم» (لو ٦: ٢٤). لا أحد يستقصي هذا الكلام، لا أحد يتفكر فيه مع نفسه أو يحفظه، بل كل واحد منا يجلس كمحقق صارم في شئون الآخرين. إنما هم يفعلون هذا ليجعلوا أنفسهم مشاركين في التهم. لكن اسمع، فإنه لأجلك أنا أعفي الكهنة من التهم التي تضعها عليهم، لأن الاقتناع (من جانبك) بأنهم يتعدون ناموس الله يميل بك ميلاناً ليس بقليل نحو الشر. فتعالوا لنفحص الأمر.

قال المسيح «لا تقتنوا ذهباً ولا فضة ولا ثوبين ولا أحذية ولا عصاً» (مت ١٠: ٩، ١٠)، فماذا؟ أخبرني هل تعدى بطرس هذه الوصية؟ بالتأكيد هو تعداها إذ كان لديه منطقة وثياب وخذاء، إذ اسمع لكلمات الملاك له «تمنطق وألبس نعليك» (أع ١٢: ٨)، ومع ذلك لم يكن له مثل هذا الاحتياج العظيم للصندل لأنه كان يمكن للإنسان في ذلك الوقت أن يسير حافي القدمين، إذ أن استخدامهم الأهم هو في الشتاء ومع ذلك كان بطرس يلبس صندلاً. وماذا سنقول عن بولس عندما كتب هكذا إلى تيموثاوس «بادر أن تجيء قبل الشتاء» (٢ تي ٤: ٢١)، إنه يعطيه أوامر

أيضاً ويقول «الرداء الذي تركته في ترواس عند كاربس احضره متي جئت والكتب أيضاً ولاسيما الرقوق» (٢تي ٤: ١٣). انظر إنه يتحدث عن الرداء، ولا يمكن لأحد أن يقول إنه لم يكن لديه غيره الذي كان يلبسه آنذاك، لأنه لو لم يكن لابساً رداء على الإطلاق، لكان نافلة أن يأمر بإحضار ذلك الرداء الثاني، وإذ لم يكن من المستحيل أن يكون بدون رداء يلبسه، فمن الواضح أن لديه رداءً ثانياً.

وماذا سنقول عن بقائه سنتين كاملتين في بيت استأجره لنفسه (أع ٢٨: ٣٠)، فهل عصى هذا الإناء المختار (وصية) المسيح، وهو الذي قال «أحيا لا أنا، بل المسيح يحياني» (غلا ٢: ٢٠)، والذي بخصوصه شهد المسيح قائلاً «هذا إناء مختار لي» (أع ٩: ١٥)؟ ينبغي لي أن أترك لكم هذه المعضلة دون أن أقدم أي حل لها. ينبغي لي أن أفرض عليكم هذه العقوبة لإهمالكم في قراءة الأسفار المقدسة، لأن هذا الإهمال هو أصل هذه المصاعب. لأننا لا نعرف الأسرار ولم نتدرب في شريعة الله، ولذلك نصير مُحققين صارمين في أخطاء الآخرين، بينما لا نغير انتباهاً لأخطائنا. لذلك ينبغي لي أن أفرض هذه العقوبة. لكن ما عساي أن أفعل؟ الآباء يعطون بسخاء لأبنائهم أشياء كثيرة تفوق ما يليق: عندما تشتعل عاطفتهم الأبوية إذ يرون أن ابنهم مكسور خاطر ومستغرقاً في الحزن، فإنهم هم أنفسهم يشعرون بأوجاع أكثر منهم ولا يستريحون حتى يزيلوا سبب غمه. ليكن هذا على الأقل هنا، فتغتمون على الأقل لعدم نوالكم (تفسير المعضلة) حتى تناولوها جيداً. فما هو حل المعضلة؟

إنهم لم يعارضوا الوصية وحاشا لهم أن يفعلوا هذا، بل هم بكل همّة

قد تبعدوا وصايا المسيح، لأن تلك الوصايا لم تكن إلا لوقت معين وليس دوماً، وهذا لا أقوله كتحمين من عندي بل من الكتب المقدسة. وكيف هذا؟

يذكر لوقا البشير أن المسيح قال لتلاميذه «حين أرسلتكم بلا كيس ولا مزود ولا أحذية، هل أعوزكم شيء. فقالوا لا» (لوقا ٢٢: ٣٥). لكنه أمدهم بها من أجل المستقبل. إذ أخبرني ماذا يمكنه أن يفعل؟ هل لا يمكن أن يكون لديه إلا ثوب واحد؟ فكيف هذا؟ هل لو احتاج أن يُغسل هذا الرداء، هل عليه أن يمكث في البيت حتى يُغسل؟ أم هل يليق به أن يخرج بدونه في حالة وجود ضرورة تستدعيه إلى الخروج؟ تخيل ماذا سيكون لبولس الذي دار حول العالم بنجاح منقطع النظير لو كان عليه أن يمكث في البيت لحاجته إلى الثياب وبذلك يتعوق عمله النبيل. وماذا لو حلّ شتاء عنيف أو انهزم المطر بشدة أو ربما حدث صقيع، كيف يمكنه أن ينشّف ثوبه؟ هل عليه أن يبقى بدونه؟ وماذا لو أن نزلة البرد أهدمت جسده العافية؟ هل عليه أن يهلك من المرض ويكون عاجزاً عن الكلام؟ إذ أسمع ما يقوله لتيموثاوس ليبرهن أنهم لم يكونوا مهياين بأجساد شديدة الصلابة «استعمل خمرًا قليلاً من أجل معدتك وأسقامك الكثيرة» (١ تي ٥: ٢٣)، وأيضاً عندما يتكلم عن آخر يقول «حسبت من اللازم أن أرسل لكم رسولكم والخادم لحاجتي» (في ٢: ٢٥)، «فإنه مرض قريباً من الموت لكن الله رحمه وليس إياه وحده بل إياي أيضاً» (في ٢: ٢٧). لذلك هم كانوا خاضعين لكل نوع من الأمراض. فماذا؟ هل عليهم أن يموتوا (من المرض)؟ كلا على الإطلاق. فلأي سبب أعطاهم

المسيح هذه الوصية في ذلك الوقت؟ ليبين قوته وليبرهن على أنه في الأوقات السابقة كان قادراً على أن يفعل هذا ولو أنه لم يفعل. لكن لماذا لم يفعله؟ إنهم كانوا مثيرين للإعجاب أكثر من الإسرائيليين الذين لم تبطل نعالهم ولا ثيابهم بينما كانوا يسيرون عبر تلك الصحراء حيث أشعة الشمس الحارقة جداً التي كانت قادرة على حرق الأحجار أيضاً (انظر تث ٢٩: ٥). فلماذا فعل هذا؟ من أجلكم. إذ حيث إنكم لن تبقوا في الصحة (دوماً) بل تمتلئوا بالأمراض (في بعض الأحيان) لذلك أعطاكم ما يفيد كعلاج. وهذا واضح من الآن. ألم يكن باستطاعته أن يطعمهم؟ هو الذي أعطاك أنت (الأممي) الذي كنت تعاديه، ألا يعطي بالأولى بولس؟ الذي أعطى للإسرائيليين وهم متذمرون وزناة وعاببدو أصنام، ألا يعطي بالأولى لبطرس الذي ترك كل شيء لأجله؟ الذي سمح للأشرار أن يمتلكوا كل شيء، ألا ينبغي بالأولى أن يعطي بسخاء ليوحنا الذي ترك كل شيء حتى أباه لأجله؟ لكنه لم يرد هذا، بل إنه يطعمه عن طريقك حتى تتقدس أنت. وانظر لعظم رأفته، فإنه فضل أن يكون تلاميذه في عوز حتى تنتعش أنت قليلاً.

لأنه لو حررهم من كل عوز لكانوا مثيرين للإعجاب أكثر وممجدين جداً، جداً. لكنه من أجل خلاصك قطع عليهم هذا المجد. إن الله لم يرد أن يكونوا مثيرين للإعجاب حتى تخلص، بل أرادهم بالأحرى أن يكونوا وضيعيين. لقد سمح لهم أن يكون لهم اعتبار أقل حتى يمكنك أن تخلص. إن المعلم الذي ينال (احتياجه من تلميذه) لا يُحترم أيضاً، لكن من لا يأخذ احتياجاته من تلميذه هو مكرم بالأكثر. لكن في الحالة

الأخيرة فإن التلميذ لا ينتفع (روحياً) بل يُحرم من ثمرته. هل ترى حكمة الله الذي هكذا يحب الإنسان؟ لأنه كما أنه لم يطلب مجده ولم يكن له اهتمام (حرفياً احترام) لنفسه، بل عندما كان في المجد اختار أن يُهان من أجلك، هكذا أيضاً يكون الحال بالنسبة لمعلميك. عندما كان يمكنهم أن يكونوا مكرمين جداً، فإنه فضل أن يتعرضوا للهوان من أجلك، حتى يمكنك أن تنتفع وأن تغتني. لأنه يكون في عوز لأمر هذه الحياة لكيما تغتني بفيض في الروحيات. فمع أنه كان بإمكانه أن يجعلهم فوق كل عوز، فإنه أظهر أنه لأجلك سمح لهم أن يكونوا في عوز.

لذلك إذ نعلم هذه الأمور لنجعل أنفسنا تميل إلى عمل الخير لا إلى توجيه الاتهامات. ليتنا لا نكون أكثر فضولاً من جهة نقائص الآخرين، بل لننتبه لأنفسنا ولنعدد محاسن الآخرين بينما نتذكر نقائصنا وبذلك سنُسر الله. لأن الذي يتطلع إلى نقائص الآخرين ولمحاسن نفسه سيتأذى بطريقتين، بالأخيرة سينقاد إلى الكبرياء وبالأولى ستفتقر همته ويقع في الغفلة. لأنه عندما يرى أن مثل هذا الإنسان (الكاهن أو غيره) قد أخطأ، فهو نفسه سيسقط بمنتهى السهولة، وعندما يرى أنه متفوق في أي شيء، فإنه بمنتهى السهولة (أيضاً) سيصبح متكبراً. الذي يسلم للنسيان محاسنه ويتطلع إلى نقائصه فقط، فبينما هو يطلب بشغف محاسن الآخرين وليس خطاياهم، فإنه ينتفع بطرق كثيرة. وكيف هذا؟

عندما يرى أن مثل هذا الإنسان قد عمل ببراعة، فإنه يرتفع ليقتردي به، وعندما يرى أنه هو نفسه قد أخطأ، فإنه يصير متضعاً. فإن تصرفنا

هكذا ، وإن هكذا دربنا أنفسنا سيمكننا أن نقنتي الخيرات الموعودة بنعمة
ورأفة ربنا يسوع المسيح الذي له مع الآب والروح القدس المجد والقوة
والإكرام الآن وكل أوان وإلى دهر الدهور آمين .

العظة العاشرة

(فيلبي ٣: ١-٦)

أخيراً يَا إِخْوَتِي افرحوا في الرَّبِّ. كِتَابَةٌ هَذِهِ الْأُمُورِ إِلَيْكُمْ لَيْسَتْ عَلَيَّ ثَقِيلَةً، وَأَمَّا لَكُمْ فَهِيَ مُؤَمَّنَةٌ. انظُرُوا الْكِلَابَ. انظُرُوا فَعَلَةَ الشَّرِّ. انظُرُوا الْقَطْعَ^١. لَأَنَّنا نَحْنُ الْخِتَانُ، الَّذِينَ نَعْبُدُ اللَّهَ بِالرُّوحِ، وَنَفْتَخِرُ فِي الْمَسِيحِ يَسُوعَ، وَلَا نَتَّكِلُ عَلَى الْجَسَدِ (٣: ١-٣).

إن الغم والهَم عندما يوتران النفس بطريقة تفوق القدر المعقول، فإنهما يجردانها من عافيتها الأصلية. ولذلك يريح بولس أهل فيلبي الذين كانوا في يأس عظيم وكانوا مغمومين لأنهم لم يعرفوا كيف كانت الأمور تجري مع بولس، وهم كانوا مغمومين لأنهم ظنوا أن الأمر قد انتهى بالفعل بالنسبة لبولس من جهة الكرازة وبسبب مرض أبفروتس، ولأجل طمأننتهم على كل هذه النقاط قدم لهم بولس هذه الكلمات «أخيراً يا إخوتي افرحوا».

يقول الرسول: لم يعد هناك سبب للغم. ها أنا أرسل لكم أبفروتس الذي كنتم حزاني لأجله، وأرسل لكم تيموثاوس، وأنا نفسي ساتي إليكم

١- أي قطع الغلظة، الختان وتشير هنا إلى الذين ينادون بضرورة الختان للخلاص.

والإنجيل ينتشر، فماذا ينقصكم؟ (لذلك) افرحوا!

إنه يدعو الغلاطيين «أولاداً» له (غلا ٤: ١٩)، بينما يدعو أهل فيلبّي إخوة له. لأنه عندما يهدف إلى تقويم أي شيء أو إظهار حنانه ومحبته (الأبوية) فإنه يدعوهم أولاداً، بينما عندما يخاطبهم بإكرام أعظم فإنه يستخدم لقب الإخوة.

«أخيراً يا إخوتي افرحوا في الرب» (في ٣: ١).

حسناً أنه قال إنه فرح «في الرب» وليس «بحسب العالم» لأن فرح العالم ليس فرحاً. يقول الرسول: إن هذه المحن التي بحسب المسيح تجلب فرحاً.

«كِتَابَةُ هَذِهِ الْأُمُورِ إِلَيْكُمْ لَيْسَتْ عَلَيَّ ثَقِيلَةً، وَأَمَّا لَكُمْ فَهِيَ مُؤَمَّنَةٌ. أَنْظُرُوا (احذروا) الْكِلَابَ» (في ٣: ٢، ٣).

هل تلاحظ كيف أنه امتنع عن أن ينصح بشيء في البداية؟ بل بعد أن قدم كثيراً من المدح لهم وبعد أن أظهر إعجابه بهم، بعد ذلك ينصح وأيضاً يكرر مدحه. إذ يبدو أن طريقة الكلام هذه صعب عليهم احتمالها إلى حد ما، لذلك فإنه يخفيها من كل جانب.

لكن من هم الذين أسماهم «كلاباً»؟

كان يوجد في هذا الموضع بعض ممن لمح عنهم في كل رسائله على أنهم يهود أدنياء وحقيرون، طامعون في الربح الخبيث ومغرمون بالسلطة،

٢- أي تجعلكم في مامن وأمان - تزيدكم ثقة ويقين.

راغبون في أن يجتذبوا خلفهم كثيراً من المؤمنين ومبشرون بالمسيحية واليهودية في نفس الوقت، ومفسرون للإنجيل (بآرائهم المنحرفة). وكما أنه لم يكن من السهل تمييزهم آنذاك، لذلك يقول «انظروا (أي أحمذروا) الكلاب» فاليهود لم يعودوا بعد أولاداً، والأمميون كانوا يُدعون سابقاً كلاباً، أما الآن فاليهود هم الذين يُدعون هكذا. لماذا؟

لأنه كما كان الأمميون غرباء عن الله والمسيح، فهكذا صار اليهود الآن. وهو الآن يُظهر وقاحتهم وعنفهم وبعدهم اللانهاثي عن علاقة البنيوية، أما كون الأمميون كانوا يُدعون سابقاً «كلاباً» فاسمع ما تقوله المرأة الكنعانية «نعم يا سيد والكلاب أيضاً تأكل من الفتات الذي يسقط من مائدة أربابها» (مت ١٥: ٢٧).

لكن لكي لا يكون لهم هذا الامتياز - إذ أن الكلاب تكون أيضاً عند مائدة أربابها - فإنه أضاف ما يجعلهم أيضاً غرباء بقوله «احذروا فعلة الشر» وهو يقصد: إنهم يعملون لكن لنهاية رديئة ويعملون عملاً أكثر سوءاً من البطالة وهم يستأصلون ما وضع في ترتيب حسن.

يقول الرسول «احذروا القطع»:

إن طقس الختان كان مهاباً عند اليهود، نظراً لأن الناموس نفسه يُسلم بهذا حتى أن السبب نفسه كان له اعتبار أقل من الختان، إذ أن السبب كان يُكسر من أجل إجراء الختان، وبينما كان يمكن للسبب أن يُحفظ (أو يُكسر عند الضرورة)، لكن لا يمكن أبداً كسر طقس الختان. ولاحظ من فضلك تدبير الله. فقد وجد أن طقس الختان كان أكثر مهابة من

السبت من حيث إنه لا يمكن إغفاله أبداً. لذلك إذ أُلغي الختان، فكم بالأولى السبت، لذلك يسميه بولس القطع ولم يقل: إن الختان شر، إنه نافلة، لثلاً يصاب الناس بالفزع، بل هو يدير الأمر بحكمة، لا بل بالشيء (نفسه) أيضاً إنما بطريقة أكثر جدية. لكن لم يكن التصرف هكذا في حالة أهل غلاطية، لأن المرض كان مستفحلاً في حالتهم، لذلك لجأ في الحال إلى علاج البتر علانية وبكل جسارة. لكن في هذه (التي لأهل فيلبّي) إذ أنهم لم يفعلوا شيئاً من هذا النوع، فإنه منحهم جزاء اللقب (الختان بالمفهوم الروحي)، وطرح الآخريين (التابعين للختان المادي) فيقول:

«احذروا القطع لأننا نحن الختان. كيف؟ الذين نعبد الله بالروح ونفتخر في المسيح يسوع ولا نتكل على الجسد» (في ٣: ٣).

لم يقل الرسول: نحن اختبرنا الختان المادي والروحي فوجدنا أن الختان الروحي هو الأفضل. لكن حتى لا يسمح للأول أن يشاركه في الاسم، فماذا قال عنه؟ إنه يقول عن الختان (الجسدي) «قطع» لماذا؟ لأنهم لا يصنعون شيئاً أكثر من قطع الغلطة. لأنه عندما ما يعمل لا يكون من الشريعة (التي تكملت في العهد الجديد) فهو لا يكون إلا مجرد قطع للحم. وقد دعاهم هكذا «قطع» إما لهذا السبب أو لأنهم كانوا يحاولون تمزيق الكنيسة إلى شطرين، ونحن ندعو الشيء قطعاً لأولئك الذين يعملون هذا عشوائياً وبدون هدف وبدون فطنة. و(كأن) الرسول يقول: لكن إن كان لكم أن تطلبوا الختان فستجدونه بيننا نحن «الذين نعبد الله بالروح» أي الذين نعبد روحياً. إذ أجيبوني: أيهما أسمى

بالتأكيد الروح. لهذا كان الختان (الروحاني) هو أيضاً أسمى، أو بالأحرى ليس أسمى، بل هو الختان الوحيد (الحقيقي)، لأنه بينما توقف المثال (الرمز)، عن صواب فإنه يقرن الثاني عند التقديم، فكتب يقول «لأنكم ستنزعون غرلة قلوبكم» (ار٤: ٤). وبنفس الطريقة في رسالته إلى أهل رومية يبطل الختان بقوله «لأن اليهودي في الظاهر ليس هو يهودياً ولا الختان الذي في اللحم ختاناً، بل اليهودي في الخفاء هو اليهودي وختان القلب بالروح لا بالكتاب هو الختان» (رو٢: ٢٨، ٢٩). وأخيراً ينزع منه الاسم ذاته مؤكداً بقوله «ولا الختان الذي في الظاهر في اللحم ختاناً» لأن الرمز يُدعى هكذا طالما المرموز إليه لم يأت بعد، ولكن إذ أتى الحقيقي فلم يعد الرمز يحتفظ بعد باللقب. وهو لم يقل «لأن الختان هو فينا» بل قال «لأننا نحن الختان». ولم يقل «لأن بينهم القطع» لأنهم هم أنفسهم من الآن في حالة خراب وشر.

يقول الرسول: إن الختان لم يعد يُعمل في الجسد بل في القلب.

ويقول (أيضاً): «ولا نتكل على الجسد. مع أن لي أن أتكلم على الجسد أيضاً» (في٣: ٣، ٤).

لماذا يدعوه هنا «اتكال» و«على الجسد»؟ إنه (يقول هذا) بجسارة وافتخار ونبرة عالية. وهو فعل حسناً إذ أضاف هذا، لأنه لو كان (بولس) من الأممييين وأدان الختان وأبطله، وليس فقط الختان بل وكل من يتبنوه، لكان قد بدا أنه حط من قدره، لأنه (كأممي) يفتقر إلى

التسلسل الآبائي لليهود، ويكون هو متصرفاً هكذا كمن هو متغرب عن طقوس الختان المهيبة، وكمن ليس له فيها شركة.

لكن رغم كونه مشاركاً فيها (بحكم الميلاد والممارسة) ومع ذلك لامها (ذمها)، لذلك فهو لم يذمها كمن ليس له فيها شركة، بل كمن يتبرأ منها، ليس عن جهل، بل على الأخص جداً عن معرفة جيدة بها. بناء على ذلك لاحظ كيف يقول أيضاً في رسالته إلى أهل غلاطية إذ ألزمته الضرورة أن يقول عن نفسه أشياء عظيمة، كيف أنه حتى في هذه الظروف لم يُظهر شيئاً سوى التواضع، فيقول «إنكم سمعتم بسيرتي قبلاً في الديانة اليهودية» (غلا: ١١: ١٣). وهنا أيضاً يقول «إن ظن واحد آخر أن يتكل على الجسد فأنا بالأولى» (في ٣: ٤)، وأضاف في الحال قوله «عبراني من العبرانيين». وقوله «إن ظن واحد آخر» يبين الضرورة (التي ألزمته) وببين أنه لأجلهم قد تكلم. و(لسان حاله) يقول: لو اتكلتم على الجسد، فأنا أيضاً أقول ذلك، ولن أحجم عن قول هذا (والتذرع به). ولاحظ (هنا) غياب كل خشونة في توبيخاته، بالامتناع عن توجيهها لهم بالاسم، وأنه أعطاهم الفرصة للتراجع.

«إن ظن واحد آخر أن يتكل على الجسد»

وكان حسناً أنه قال «إن ظن» إذ لم يكن لهم مثل هذا الاهتمام بالفعل أو أن هذا الاتكال لم يكن اتكالاً حقيقياً لأن كل شيء (في اليهودية) كان عن ضرورة وليس عن اختيار.

«من جهة الختان، مختون في اليوم الثامن»

يُرسي الرسول أولاً طقس الختان الذي كان مثار افتخارهم الرئيسي.

«من جنس إسرائيل»

لقد أشار بهذين الشئيين أنه لم يكن دخيلاً ولا مولوداً من دخلاء، لأن كونه مختوناً في اليوم الثامن ينتج من هذا أنه لم يكن دخيلاً، وكونه من جنس إسرائيل يثبت أنه لم يكن من أبوين دخيلين. لكن لكيلا تظنوا أنه من جنس إسرائيل كمن هو أتي من العشرة أسباط (المنشقة) لذلك يقول «من سبط بنيامين». لذلك فإنه كان من الجزء المُستحسن، لأن الكهنة أقاموا في الأراضي التي كانت من نصيب هذا السبط.

«عبراني من العبرانيين»

لأنه لم يكن دخيلاً، بل كان منذ القدم من اليهود الوجهاء، لأنه قد يكون من إسرائيل ولكن ليس «عبرانياً من العبرانيين»، لأن كثيرين من اليهود كانوا قد أفسدوا نقاوة أصلهم وكانوا غرباء عن لغتهم ومحاطين بأمم أخرى، لذلك فإنه كان يظهر هذا أو يظهر سمو ميلاده.

«من جهة الناموس فريسي» (في ٣: ٥)

إنه الآن يأتي إلى الأمور التي تتوقف على إرادته. لأن كونه مختوناً كان أمراً لا دخل له فيه، ولا كذلك كونه من جنس إسرائيل ومن سبط

بنيامين. لذلك حتى ضمن هذه الأمور فقد كانت له مساهمة أعظم ولو أن كثيرين بالفعل قد شاركوه في هذه الأمور^٣.

فأين لنا أن نضع كلمة «بالأولى»؟ خصوصاً أنه هنا لم يكن من الدخلاء، فأن يرث عن أجداده منذ القديم كونه من سبط شهير، فهذا أمر لا يتوفر للكثيرين. لكنه يأتي إلى الأشياء التي تتوقف على الإرادة، ففي أي شيء نجده «بالأولى»؟

«من جهة الناموس فريسي. من جهة الغيرة مضطهد الكنيسة»
(في ٣: ٥، ٦)

لكن هذا لا يكفي، لأنه يمكن أن تكون فريسياً أيضاً، ومع ذلك غير غيور بالمرّة. لكن هذه أيضاً إضافة، فانظر «بالأولى» (في أنه غير منه على الناموس قد اضطهد الكنيسة).

«من جهة البرّ»

لكن يمكن أن تكون مقدماً أو تتصرف هكذا (باطضهاد الكنيسة) بدافع من الطموح وليس غيرة على الناموس كما فعل رؤساء الكهنة (الذين فعلوا هذا للحفاظ على مراكزهم وما يترتب عليها من امتيازات). لكن هذا الوضع لم ينطبق عليه، بل «من جهة البر الذي في الناموس بلا لوم» (في ٣: ٦).

٣- هنا يسود ذهبي الغم القول إنه حتى في الأمور التي لا دخل له فيها وكان يشاركه فيها بقية اليهود من جهة كونه مختوناً وعبرانياً ومن أحد أسباط بني إسرائيل، إلا أنه لكونه فريسياً كان أوفر ومتقدماً عن أتباعه في تقليدات أبائه.
٤- يقصد هنا ما ورد في هذا العدد «إن ظن واحد آخر أن يتكل على الجسد فأنا بالأولى» (في ٣: ٤).

فهو يتساءل: إن كان الأمر من جهة نقاوة تسلسلي السبطي والنشاط والعادات وطريقة الحياة فإنني قد فقت الكل، فلماذا جحدت كل هذه الامتيازات الرفيعة إلا بسبب أنني وجدت أن أمور المسيح أفضل وأفضل جداً؟ لذلك أضاف قوله: «لكن ما كان لي ربحاً فهذا قد حسبته من أجل المسيح خسارة» (في ٣: ٧).

إن سيرة حياة كهذه منظمة بمنتهى الدقة، وقد بدأها منذ طفولته المبكرة، هذا الأصل النقي الذي له، هذه المخاطر والأتعاب (التي كابدها نتيجة تركه ليهوديته وتقليداتها)، هذا الإقدام؛ كل هذا جحدته بولس «ما كان له ربحاً، حسبته من أجل المسيح خسارة ليربح المسيح». لكننا لا نزدري حتى بالمال لكي نربح المسيح بل نفضل أن نخفق في الحصول على الحياة الآتية عن أن نخفق في الحصول على خيرات الحياة الحاضرة، ولكن هذا ليس شيئاً آخر سوى خسارة.

ولنفحص الآن بالتفصيل ظروف الغنى ونرى أنه ليس سوى خسارة مصحوبة بتعب وبدون أي ربح. إذ أخبرني ما المنفعة من تلك الدواليب المملوءة بالملابس الفاخرة وأي خير نربحه من لبسها؟ لا خير، بل نحن فقط الخاسرون. وكيف ذلك؟ لأن الفقير في ملابسه الرخيصة لا يعاني من أيام الحر الشديدة مثلك، بل هو يحتملها أفضل منك لأن ملابسه رخيصة

٥- تحدث ذهبي الغم بعد هذا عن كون الغنى حتى في الصيف يلبس كثيراً من الملابس الداخلية ومعطفاً وخلافة، فضلاً عن أنها مكلفة وتجعله يعرق كثيراً ويتعب، بينما ملابس الفقير بسيطة لا تتعبه. وقارن بين خسائر الغنى من جهة الملابس والحلي في التكلفة الغالية على الزوجة والخيول، مع أنها تشجع اللصوص على السرقة. ثم تكلم عن الحلي والمجوهرات التي تثير الحسد والمكائد والسرقات، وعن بذخ النساء في الإسراف على مواد الزينة والملابس الفاخرة، عن البيوت الفخمة التي يقيمها الأغنياء بأعمدتها الرخامية وطلاء النسق بالذهب وإقامة التماثيل وغيرها من مظاهر الأبهة والتفاخر والتعالي على الآخرين، ثم أبدى تعجبه كيف يتم التمسك بالترابيات وهي التي لا نتجنبنا من الموت ولا تدفع عنا المرض ولا تعيد لنا شبابنا! وقد حذفنا هذه الفقرة منعاً للإطالة.

وخفيفة تعطي للجسم راحة أكثر، بينما ليس الأمر هكذا مع تلك الملابس الجديدة، مع أنها أكثر أناقة وروعة من نسيج العنكبوت^{٥٠٠} °

أخبرني ماذا ربحت من الغنى؟ سُكراً، نهماً، ملذات معاكسة للطبيعة ومتعددة في أنواعها وهي معذبة أكثر من قسوة السادة!

هذه هي المنافع التي نربحها من الغنى، ولو كنا مهتمين (بخلاصنا) لكنا قد فزنا بالسماء نفسها كميراث لنا بأموالنا.

ربما قد يقول الغني بناء على هذا الكلام: إذاً الغنى جيد.

ليس الغنى بل إرادة مالك الغنى هي التي تعمل هذا، إذ بسبب أن الإرادة هي التي تعمل هذا، فإنه في مقدور الفقير أيضاً أن يفوز بالسماء. لأنه كما قلت مراراً إن الله لا ينظر إلى كمية العطايا بل ينظر إلى إرادة المعطي. لأنه يمكن أيضاً لمن هو فقير ولم يعط إلا القليل أن يفوز بالملكوت، لأن الله يحتاج منا إلى قدر (من العطاء) يتناسب مع إمكانياتنا، فلا الغنى سيؤمن لنا الملكوت ولا الفقر سيؤدي بنا إلى جهنم، بل هذا يتوقف على الإرادة الحسنة أو السيئة.

لأنه كما أن الصانع يصنع نفس اليد للفأس من الخشب، سواء كان سلاح الفأس من الحديد أو من الذهب أو بالأحرى هو يفعل أفضل بآلة الحديد، كذلك الأمر هنا، فإن الطريق المستقيم للفضيلة يسهل بالأكثر حفظه في حالة الفقر، إذ من جهة الغني نقرأ «مرور جمل من ثقب إبرة أيسر من أن يدخل غني إلى ملكوت الله» (مت ١٩: ٢٤)، لكن لم يصرح

الكتاب بشيء مثل هذا عن الفقر، بل قال العكس تماماً «بيع أملاكك وأعط الفقراء وتعال اتبعني» (مت ١٩: ٢١)، كما لو كانت عملية التبعية له نابعة من البيع (وحالة الفقر).

لذلك ليتنا لا نهرب أبداً من الفقر كما من شر، لأنه هو الذي يجلب الملكوت. وأيضاً ليتنا لا نسعى أبداً إلى الغنى على أنه خير، لأن المال يسبب هلاك من يسير بغير حذر، بل لنوجه أعيننا نحو الله في كل شيء، وليتنا بحسبنا تسخ الفرصة أن نستخدم تلك العطايا التي منحها لنا من قوة جسدية ومال وفير وكل عطية أخرى، لأنه أمر غير طبيعي أن نخدم بهذه الأشياء آخرين، نخدم إبليس، بينما لا نستخدمها لمن خلقنا ونستمد منه كياننا. لكن كيف نجعلها تخدمه؟ بالتأمل في خلائقه ومدحه وتمجيده وسحبها (يقصد العيون) من التحديق في النساء.

هل هو خلق لك يدين؟ احفظهما لتستخدمهما لأجله وليس لصالح الشيطان، ليس بتوظيفهما للسلب والنهب بل للأعمال الصالحة وتنفيذ وصايا الله، بتقديم صلوات حارة وإقامة الساقطين.

هل هو أعطاك أذنين؟ قدمهما له وليس للأغاني الخليعة أو القصص المشينة، بل «اجعل كل حديثك في شريعة العلي» (بن سير ٩: ٢٣)، ويقول (ذلك الحكيم) «قف في جماعة الشيوخ ومن كان حكيماً فلازمه (ارغب أن تسمع كل حديث إلهي ولا تهمل أمثال التعقل)» (بن سير ٦: ٣٥).

هل هو صنع فمك؟ ليتك لا تستخدمه فيما يحزن الله، بل رنم به مزامير وتراتيل وأغاني روحية. والرسول يقول «لا تخرج كلمة ردية من

أفواهكم بل كل ما كان صالحاً للبنين حسب الحاجة كي يعطي نعمة
للسامعين» (أف: ٤: ٢٩)، أي نستخدمه للبنين وليس للإفساد، للكلمات
الطيبة وليس للكلام الشرير والتآمر على الآخرين، بل العكس تماماً.

لقد خلق لك رجلين ليس لتجري إلى فعل الشر بل عمل الصلاح.
وخلق لك البطن ليس لتتخهما بالطعام حتى الانفجار، بل لتمارس
الحكمة والتعقل. لقد غرس فينا الشهوة (الجنسية) لولادة البنين وليس
للزنا والعهارة. وأعطاك الفهم ليس ليجعل منك مجدفاً أو شتاماً، بل
لكي تميز ما هو كذب (وتتحاشاه). وأعطانا المال لنستخدمه فيما هو
لائق ومناسب، ونفس الشيء ينطبق على القوة (الجسدية). وأسس لنا
الفنون لكيما نرتقي بها، لا أن ننفصل بها عن الروحيات، ليس لكي
نكرس أنفسنا للفنون المنحطة بل للضروري منها، لكي نخدم خير بعضنا
البعض، لا أن نتآمر ضد بعضنا البعض (بواسطة الفنون التي تسبب العثرة
والسقوط في الخطية). لقد أعطانا سقفاً ليأويانا من المطر (والبرد) وليس
لكي نغطيه بالذهب، بينما الفقير يهلك من الجوع. وأعطانا الملابس لكي
تغطينا وليس لكي نستخدمها للتباهي، أو نطرزها بالذهب بينما المسيح
يهلك من العري (في شخص الفقير) ٦٠٠

لنتوقف الآن عن هذه الملاحظات ولنتمسك بما هو حقيقي بالفعل.
لذلك أنا أوصيكم أن نقف على الصخر فيثبت قلبنا، حتى نحصل على
الخيرات الآتية بنعمة ورافة ربنا يسوع المسيح الذي له مع الآب والروح

٦- نكتفي بهذا القدر لأن كل ما تقع عليه أعينا وما في داخلنا من إمكانيات أودعها الله فينا لكي نستخدمها للخير وللقرين
ولكل من هو في احتياج ٠٠

القدس، المجد والإكرام إلى الأبد آمين.

العظة الحادية عشر

(فيلبي ٣: ٧-١٢)

لَكِنْ مَا كَانَ لِي رَبْحًا فَهَذَا قَدْ حَسِبْتُهُ مِنْ أَجْلِ الْمَسِيحِ خَسَارَةً. بَلْ إِنِّي أَحْسَبُ كُلَّ شَيْءٍ أَيْضًا خَسَارَةً مِنْ أَجْلِ فَضْلِ مَعْرِفَةِ الْمَسِيحِ يَسُوعَ رَبِّي، الَّذِي مِنْ أَجْلِهِ خَسِرْتُ كُلَّ الْأَشْيَاءِ، وَأَنَا أَحْسِبُهَا نَفَايَةَ لِكَيْ أَرْبِحَ الْمَسِيحَ. وَأَوْجَدَ فِيهِ، وَلَيْسَ لِي بَرِّي الَّذِي مِنَ النَّامُوسِ، بَلِ الَّذِي بِإِيمَانِ الْمَسِيحِ، الْبَرُّ الَّذِي مِنَ اللَّهِ بِالْإِيمَانِ. (٣: ٧-٩).

في مجادلاتنا مع الهرطقة يلزمنا أن نتقدم إليهم بأذهان يقظة حتى يمكننا أن ننتبه جيداً (لما يقال). لذلك سأبدأ حديثي الآن من حيث انتهينا أخيراً. وماذا كانت نهاية ذلك الحديث؟

بعد أن عدد بولس الرسول كل افتخار يهودي سواء من جهة مولده أو من جهة ما كان له عن إرادة (غيرته الناموسية الفائقة)، فأضاف بعد ذلك قوله «لَكِنْ مَا كَانَ لِي رَبْحًا فَهَذَا قَدْ حَسِبْتُهُ مِنْ أَجْلِ الْمَسِيحِ خَسَارَةً. بَلْ إِنِّي أَحْسَبُ كُلَّ شَيْءٍ أَيْضًا خَسَارَةً مِنْ أَجْلِ فَضْلِ مَعْرِفَةِ الْمَسِيحِ يَسُوعَ رَبِّي، الَّذِي مِنْ أَجْلِهِ خَسِرْتُ كُلَّ الْأَشْيَاءِ، وَأَنَا أَحْسِبُهَا نَفَايَةَ لِكَيْ أَرْبِحَ الْمَسِيحَ».

هنا يتحفز الهراطقة للهجوم، لأن هذا أيضاً يأتي من حكمة الروح أن
ينعش فيهم الآمال في الانتصار فيغيريهم بذلك على مباشرة القتال.

لأنه لو كان الكلام صريحاً لكانوا قد تصرفوا هنا كما عملوا في مواضع
أخرى إذ طمسوا الكلمات وأنكروا الكتاب عندما لم يستطيعوا أبداً أن
ينظروا فيه مواجهة. هم يقولون: إن بولس دعا الناموس خسارة ونفاية،
فهو يقول: لم يكن ممكناً أن أربح المسيح ما لم أتجاوز هذه الخسارة. وكل
هذه الأشياء حثت الهراطقة على قبول هذا النص ظانين أنه في مصلحتهم
(ويخدم أغراضهم)، لكن إذ قد قبلوه، لذلك هو أحاط بهم من كل جانب
بشباكه. لأنه ماذا يقولون هم أنفسهم؟

انظروا إن الناموس خسارة ونفاية، فكيف تقولون أنتم أنه من الله؟

لكن هذه الكلمات بالذات هي في صالح الناموس، أما كيف يكون
الأمر، فهذا ما سيتضح الآن. لننصت بدقة لكلماته. إنه لم يقل إن
الناموس خسارة، بل قال «إني حسبته خسارة»، لكن عندما تكلم عن
الربح لم يقل «إني حسبته ربحاً» بل قال «ما كان لي ربحاً»، لكن
عندما تكلم عن الخسارة «أنا حسبته». وهذا صحيح لأن الأول (الربح)
كان طبيعياً هكذا، أما الآخر (الخسارة) فصار هكذا من وجهة نظري.

ويقول (بولس): فماذا؟ هل هو ليس خسارة؟ هو خسارة من أجل
المسيح.

وكيف صار الناموس ربحاً؟ إنه لم يكن يُحسب ربحاً (تفضلاً) بل

كان هكذا بالفعل. إذ انظر كم كان أمراً عظيماً أن تُحضر أناساً هم في طبعهم وحوش إلى شكل البشر. لو لم يكن هناك ناموس ما كانت النعمة قد أعطيت. لماذا؟ لأن الناموس صار كنوع من المعابر، لأنه عندما كان يستحيل الصعود لأعلى من منخفض عظيم، كان يقام سلم. لكن الذي صعد لم يعد بحاجة إلى سلم، لكنه لا يزدري بالسلم بل هو أيضاً ممتن له، لأنه قد وضعه في مثل هذا الوضع (المرتفع) حتى إنه لم يعد يحتاجه. ولكن لأجل هذا السبب بالذات، فكونه لا يحتاجه (الآن)، يكون من العدل أن يعترف بفضله لأنه لم يكن يستطيع الطيران (لأعلى بدونه). وهكذا يكون الأمر مع الناموس، فقد قادنا إلى أعلى لذلك كان ربحاً، لكن بالنسبة للمستقبل نحن نعتبره خسارة. كيف؟

ليس لأنه في حد ذاته خسارة، بل لأن النعمة أعظم جداً. لأنه كما الإنسان الفقير عندما يكون جائعاً، فطالما كانت لديه فضة فإنه يفلت من الجوع، لكن عندما يجد الذهب ولا يُسمح له أن يحتفظ بالاثنين فإنه يعتبر احتفاظه بالفضة خسارة وي طرحها بعيداً عنه ويأخذ العملة الذهبية. كذلك هنا أيضاً، ليس لأن الفضة خسارة (الاحتفاظ بها)، إذ ليست خسارة (بل لها منفعتها) بل لأنه يستحيل أخذ الاثنين سوياً إذ يلزم أن يُترك أحدهما.

إذاً الناموس ليس خسارة بل الخسارة هي أن يلتصق الإنسان بالناموس ويهجر المسيح، ولذلك فالناموس خسارة (ويجب التخلص منه) عندما يبعدنا عن المسيح. لكن لو أن الناموس قادنا إلى المسيح فلا يعد خسارة. لأجل هذا السبب يقول بولس «خسارة من أجل (فضل معرفة) المسيح»،

فلو كان لأجل المسيح فلم يعد الأمر طبيعياً خسارة. لكن لماذا لا يتيح لنا الناموس أن نأتي إلى المسيح؟ يخبرنا الرسول أن الناموس قد أعطي لأجل هذا السبب بالذات. فالمسيح هو كمال الناموس وهو الغاية من الناموس. إنه يتيح لنا لو نحن أردنا هذا «لأن المسيح هو غاية الناموس». الذي يطيع الناموس يترك الناموس ذاته. إن الناموس يسمح (أي يتيح لنا المجيء إلى المسيح) لو انتبهنا له، لكن لو لم ننتبه فلا يسمح (أو يتيح).

«بل إنني أحسب كل شيء أيضاً خسارة» (في ٣: ٨)

إنه يقصد (القول): لماذا أنا أقول هذا عن الناموس؟ أليس العالم حسناً؟ أليست الحياة الحاضرة جيدة؟ لكنها لو جذبتني بعيداً عن المسيح، فإنني أعتبر هذه الأشياء خسارة. لماذا؟ «من أجل فضل معرفة المسيح ربي»

لأنه إذ قد ظهرت الشمس، فإنه يكون من العبث والخسارة أن أجلس بجانب الشمعة، لذلك فإن الخسارة تأتي بالمقارنة، بسمو الشيء الآخر. وأنت ترى أن بولس يُجري المقارنة في السمو وليس في اختلاف النوع، لأن الذي هو أسمى، هو أسمى لشيء إلى حد ما من نفس الطبيعة ذاتها. لذلك هو يُظهر ارتباط تلك المعرفة بنفس الوسيلة التي بها يصف السمو من باب المقارنة.

«الذي من أجله خسرت كل الأشياء وأنا أحسبها نفاية لكي أربح المسيح»

ليس واضحاً هنا إن كان يتكلم عن الناموس، لأنه من المحتمل أن يشير بهذا عن أمور العالم الحاضر. لأنه عندما يقول «ما كان لي ربحاً، فهذا قد حسبته من أجل المسيح خسارة» أضاف بعد ذلك قوله «بل إنني أحسب كل شيء خسارة».

فمع أنه قال «كل شيء» لكنه يقصد الأشياء الحاضرة، وإن أردت أن يكون الناموس أيضاً من ضمنها، فلن يكون الناموس بهذا أيضاً قد أهين. لأن النفاية تأتي من الحنطة وقوة الحنطة هي في النفاية، أقصد التبن. لكن كما أن النفاية كانت مفيدة في حالتها السابقة، لذلك نحن نجتمعها سوياً مع الحنطة، ولو لم يكن هناك نفاية ما كان هناك حنطة. هكذا يكون أيضاً الأمر مع الناموس.

هل ترى كيف أنه في كل مكان يدعو الناموس خسارة، ليس في حد ذاته بل لأجل المسيح.

«بل إنني أحسب كل شيء أيضاً خسارة» لماذا مرة ثانية؟ «من أجل فضل معرفة المسيح يسوع ربي الذي من أجله خسرت كل الأشياء»، وأيضاً «وأنا أحسبها نفاية لكي أربح المسيح».

انظر كيف أنه من كل جانب يُمسك بالمسيح كأساس له ولا يسمح أبداً للناموس أن يُشهر به أو يتلقى ضربة بل يحرسه من كل جانب.

«وأوجد فيه وليس لي بري الذي من الناموس» (في ٣: ٩)

إن كان الذي له برّ قد ركض إلى هذا البرّ الآخر، بسبب أن برّه لم

يكن شيئاً، فكم بالأولى يركض إليه الذين لا بر لهم؟ وهو حسناً قال «ليس لي برّي» أي ليس لي البرّ الذي اقتنيته بالكد والتعب، بل البرّ الذي وجدته من النعمة.

فإن كان الذي هو عظيم جداً قد خلص بالنعمة، فكم بالأولى أنت. لأنه إذ كان من المحتمل أنهم سيقولون إن البرّ الذي يأتي من الكد هو أعظم، فهو يظهر أنه نفاية مقارنة بالآخر. وإلا ما كنت أنا المتفوق في برّ الناموس قد طرحته عني وأسرعت إلى الآخر. لكن ما هو البرّ الآخر؟

«البرّ الذي من الله بالإيمان»

أي أنه أيضاً مُعطي من الله. هذا هو بر الله وهو في جملة عطية (من الله)، وعطايا الله تفوق جداً تلك الأعمال الصالحة عديمة القيمة والتي تأتي من اجتهادنا.

لكن ما معنى «بالإيمان لأعرفه»؟

إذا فالمعرفة تأتي من خلال الإيمان وبدون إيمان يستحيل معرفته (أي معرفة الله).

لماذا وكيف؟

عن طريق الإيمان يلزمنا أن نعرف قوة قيامته، لأن أي برهان يمكنه

١- إن كلمة «بالإيمان» تعود على البرّ كما هو وارد في كل النصوص الحديثة، لكن النص اليوناني في المخطوطات القديمة المنسوخة يدويًا كان يصعب منه ملاحظة هذا لأن الجمل متسلسلة بدون نقط أو ترقيم، وإذ لم يلاحظ ذهبي الفم هذا وإحساسه بالصعوبة اللغوية في القواعد ربطها بالآية التي تليها وخرج منها بقول أشياء مقلّقة جداً للأنظار.

أن يوضح لنا القيامة؟ لا شيء بل بالإيمان فقط. لأنه إن كانت قيامة المسيح الذي كان بحسب الجسد تُعرف بالإيمان، فكيف يمكن لولادة الله الكلمة (من الآب) أن تُدرك بالعقل؟ لأن القيامة هي أقل من الولادة (في تقبل الإنسان لحقيقتها) لماذا؟ لأنه كانت توجد أمثلة كثيرة للقيامة لكن لم توجد أبداً أمثلة للولادة، لأن أمواتاً كثيرين قاموا قبل المسيح ولو أنهم ماتوا ثانية بعد قيامتهم، لكن لم يولد أحد قط من عذراء. فإن كان يلزمنا أن ندرك بالإيمان ما هو أقل من الولادة بحسب الجسد فكيف يمكننا أن ندرك بالعقل ما هو أعظم وغير محدود وعظمته لا تُقارن؟

هذه الأشياء تصنع البرّ، ويلزمنا أن نُؤمن أنه كان قادراً على عمل هذا، أما كيف كان قادراً فهذا لا يمكن برهنته. لأن شركة آلامه هي من الإيمان. لكن كيف؟ إن لم نُؤمن فلن نتألم (معه): إن لم نُؤمن أنه «إن كنا نصبر معه فسنملك أيضاً معه» (٢ تي ٢: ١٢) فلن نعاني الآلام (معه). كلاً من الولادة والقيامة يُدركان بالإيمان. هل ترى أن الإيمان يلزم أن لا يكون مطلقاً عن طريق الأعمال الصالحة، لأن الذي يؤمن أن المسيح قد قام هو الذي بطريقة مماثلة يقدم نفسه للمخاطر، هو الذي له شركة في آلامه. لأن الذي له شركة مع الذي قام ثانية، مع الذي يحيا، فإنه من ثمّ يقول:

«وأوجد فيه وليس لي برّي الذي من الناموس بل الذي بإيمان المسيح، البرّ الذي من الله بالإيمان. لأعرفه وقوة قيامته وشركة آلامه متشبهاً بموته. لعلّي أبلغ إلى قيامة الأموات» (في ٣: ٩-١١).

إنه يقول «جُعِلت متشبهاً بموته» أي لي شركة (فيه) وبينما هو تألم من الناس، هكذا أنا أيضاً. لذلك قال «متشبهاً بموته». وفي موضع آخر يقول «وأكمل نقائص شدائد المسيح في جسمي» (كو١: ٢٤) أي أن هذه الاضطهادات والآلام ترسم صورة موته، لأنه لم يطلب ما هو له بل طلب خير الكثيرين.

لذلك فإن الاضطهادات والضيقات والشدائد لا ينبغي أن تزعجك، بل يجب أن تسعدك أيضاً لأن عن طريقها نحن «نتشبه بموته». كما لو كان قد قال إنها تشكلنا لشبهه، كما يقول في موضع آخر حيث كتب «حاملين في الجسد كل حين إماتة الرب يسوع» (٢كو٤: ١٠). وهذا أيضاً يأتي عن إيمان عظيم. لأننا لا نؤمن فقط بأنه قام بل إنه بعد قيامته أيضاً كانت له قوة عظيمة، لذلك نحن نسير على نفس الطريق التي سار فيها، أي نحن نصير إخوة له في هذا الأمر أيضاً، كما لو كان بولس قال إننا مسحاء (جمع مسيح) في هذا الأمر. يا لهذه الكرامة العظيمة التي للآلام. نحن نؤمن أننا نصير «متشبهين بموته» من خلال الآلام!

لأنه كما في المعمودية نحن «دُفنا بشبه موته» كذلك هنا نتشبه بموته. هناك قال عن حق «شبه موته» (رو٦: ٤، ٥) لأنه هناك لم نمت تماماً، لم نمت في اللحم الذي للجسد بل متنا للخطية. إذ كان هناك حديث عن موت وموت، لكن هو مات في الجسد بينما نحن متنا للخطية. وهناك مات الإنسان الذي أخذه، والذي كان في جسدنا، لكن هنا إنسان الخطية (هو الذي مات). لأجل هذا السبب يقول «شبه موته» لكن هنا لم يعد شبه موته بل موته ذاته. لأن بولس في اضطهاداته لم يميت بعد للخطية

بل في ذات جسده، لذلك فإنه قد عانى نفس الموت.

«لعلي أبلغ إلى قيامة الأموات»

ماذا تقول يا بولس؟ كل الناس سيكون لهم نصيب في هذه القيامة «لأننا لن نرقد كلنا ولكننا كلنا نتغير» (١كو١٥: ٥١)، والكل لن يشارك فقط في القيامة، بل أيضاً في عدم الفساد وإن كان، البعض على سبيل الإكرام والبعض الآخر كوسيلة للعقوبة. لذلك إن كان الكل سيشارك في القيامة وليس في القيامة فقط بل أيضاً في عدم الفساد، فكيف قال بولس «لعلي أبلغ»؟ كما لو كان مزعماً أن يشارك في شيء خاص؟

يقول الرسول «لأجل هذا السبب أحتمل هذه الأشياء لعلي أبلغ إلى قيامة الأموات، لأنه إن لم تمت فلن تقوم. فماذا يكون هذا؟ يبدو هنا أنه يشير إلى شيء عظيم. كان هذا الشيء عظيماً جداً حتى إنه لم يجرؤ على طلبه علانية، بل قال «لعلي».

إنني آمنت به وبقيامته بل وأكثر من هذا فأنا تأملت لأجله، لكن أنا عاجز عن أن أكون واثقاً فيما يخص القيامة.

آية قيامة يذكرها هنا؟ تلك التي تقود إلى المسيح نفسه.

أنا قلت إنني آمنت «به وبقوة قيامته» وأنا «متشبهاً بموته». لكن بعد كل هذه الأشياء أنا لست واثقاً أبداً، كما قال في موضع آخر «إذاً من يظن أنه قائم فليُنظر أن لا يسقط» (١كو١٠: ١٢)، وأيضاً قوله «لئلا بعدما كرزت للآخرين لا أصير أنا نفسي مرفوضاً» (١كو٩: ٢٧).

«ليس إنني قد نلت أو صرت كاملاً، ولكنني أسعى لعلني أدرك الذي لأجله أدركني أيضاً المسيح يسوع» (في ٣: ١٢).

ما المقصود بعبارة «قد نلت»؟

إنه يتحدث عن المكافأة، لكن إن كان وهو الذي عانى مثل هذه الآلام، وإن كان قد أظهد وكان «يحمل في جسده إماتة الرب يسوع» (٢كو ٤: ١٠)، ومع ذلك لم يكن واثقاً هكذا من جهة القيامة، فماذا يمكننا أن نقول نحن؟

ماذا تعني عبارة «لعلني أدرك»؟ ما قاله من قبل «لعلني أبلغ إلى قيامة الأموات». إنه يقول: لو أدركت قيامته، أي لو كان بمقدوري أن أدرك أشياء عظيمة هكذا، لو كان يمكنني أن اقتدي به، لو كان بمقدوري أن أصير متشبهاً به. فمثلاً المسيح عانى أشياء كثيرة، فقد بُصق عليه وضرب وجلد وأخيراً عانى الآلام التي نحن نعرفها. هذا هو المسار كله. خلال كل هذه الأشياء يلزم للناس أن يحتملوا الصراع (الجهاد) كله، وهكذا يأتون إلى قيامته. أو هو يقصد هذا: إن كان يُظن أنني جدير أن أدرك القيامة المجيدة والتي هي مسألة ثقة، لكي أدرك قيامته. لأنه إن كان بإمكانني أن احتتمل كل الصراعات (الجهادات)، سيكون بإمكانني أيضاً أن تكون لي قيامته وأن أقوم بمجد. وهو (كأنه) يقول: لأنني لست إلى الآن جديراً بها، «ولكنني أسعى لعلني أدرك». إن حياتي لا تزال حياة نضال، وأنا لازلت بعيداً عن النهاية، أنا لازلت بعيداً عن الجعالة، أنا لازلت أركض، لازلت أجدد (في طريقي).

لم يقل الرسول: «أنا أركض» بل قال «أنا أسمى» لأنكم تعلمون بأي اجتهاد يسعى الإنسان. فهو لا يرى أحداً بل يطرح بعنف شديد كل ما يعترض سعيه. وهو يجمع كل ذهنه ونظره وقوته ونفسه وجسده ولا يتطلع لشيء آخر سوى للجعالة (الجائزة).

لكن لو أن بولس الذي هكذا سعى وقد احتمل آلاماً كثيرة جداً، ومع ذلك يقول «لعلي أبلغ» فماذا نقول نحن الذين تراخينا عن بذل الجهد؟ ثم لكي يبين أن الأمر هو دَيْنُ يقول «الذي لأجله أدركني أيضاً المسيح يسوع». إنه (كما لو كان) يقول: أنا كنت في عداد الهالكين وكنت ألهث قريباً من الموت ولكن الله أدركني. لأنه تعقبنا بكل همة عندما هربنا منه. لذلك يشير إلى كل هذه الأشياء، لأن الكلمة «أدركني» تبين همة من يرغب في إدراكنا، ونفورنا الشديد منه، وتبين شرورنا وهروبنا منه.

لذلك نحن مطالبون بدين هائل ولا أحد منا يحزن، لا أحد منا يبكي، لا أحد يئن والكل قد رجع إلى حالته السابقة، لأنه كما قبل ظهور المسيح، نحن هربنا من الله، كذلك الآن أيضاً. لأنه يمكننا أن نهرب من الله، ليس من حيث المكان فهو موجود في كل مكان، واسمع النبي يقول «أين أذهب من روحك ومن وجهك أين أهرب؟» (مز ١٣٩: ٧) فكيف يمكننا أن نهرب من الله حتى لو أمكننا أن نكون بعيدين عنه؟ والمزمور يقول «البعداء عنك يبيدون» (مز ٧٣: ٢٧)، وأيضاً «آثامكم صارت فاصلة بيني وبينكم» (إش ٥٩: ٢)، فكيف يمكن أن

يأتي هذا البعد وكيف يمكن أن يأتي هذا الفصل؟ إنه يأتي في الهدف وفي النفس، لأنه لا يمكن أن يكون مكانياً. لأنه كيف يمكن الهروب ممن هو موجود في كل مكان؟ لكن الخاطيء يهرب، وهذا ما يقوله الكتاب «الشرير يهرب ولا طارد» (أم ٢٧: ١). إننا نهرب من الله بكل همة مع أنه دائماً يحدّ في إثرنا. لقد أسرع الرسول لكيما يكون بالقرب منه ونحن نسارع لكيما نكون بعيدين عنه!

أفليست هذه الأشياء جدية بالنحيب؟ أليست جدية بالبكاء؟ إلى أين تهرب أيها الإنسان التعيس والبائس؟ وإلى أين تهرب من حياتك وخلصك؟ إن هربت من الله فإلي من تلجأ؟ إن هربت من حياتك فمن أين ستعيش بعد ذلك؟ لنهرب (بالأولى) من عدو خلاصنا! عندما نخطئ نحن نهرب من الله، نصير كهاربين ونرحل إلى بلد أجنبية كمن استنفذ كل خيراته التي ورثها عن أبيه ورحل إلى بلد غريب، وكمن أضع كل ثروة أبيه وعاش في عوز. نحن أيضاً لدينا ثروة من أبينا (السماوي)، وما هي؟ لقد حررنا من خطايانا وأعطانا مجاناً قوة لعمل الفضيلة وأعطانا مجاناً الاستعداد (لعمل الخير) والصبر، وأعطانا مجاناً الروح القدس في معموديتنا، فإن أضعنا كل هذه الأشياء سنصير في عوز. لأنه كما أن المرضى طالما هم محمومون لا يمكنهم القيام (من سريرهم) أو عمل أي شيء، لكن لو حررهم أحد من المرض وأعاد لهم الصحة، فإن لم يعملوا آنذاك (واجباتهم) فهذا يكون نابعاً من تكاسلهم، هكذا أيضاً يكون الأمر معنا، لأن المرض كان شديداً والحرارة مرتفعة جداً. ونحن غير راقدين على فراش بل قابعين في الشر ذاته، والأرواح الشريرة تحيط بنا ورئيس

هذا العالم يستهزئ بنا ويهاجمنا، وابن الله الوحيد أتى وأرسل إشعاع حضوره وبدد الظلام في الحال. الملك الذي هو على عرش أبيه أتى إلينا وترك عرش أبيه. وعندما أقول ترك، لا تفكر في أي ابتعاد لأنه يملأ السموات والأرض، بل أتكلم عن التدبير، لقد أتى إلى عدو، إلى من يكرهه وأبعد نفسه عنه، إلى من لا يستطيع احتمال رؤيته ومن يجدف عليه كل يوم. ورآه (ابن الله) راقداً على المذبة والدود يأكله ومُصاباً بالحمى والجوع وكل أنواع الأمراض، لأن الحمى ضايقته التي هي الشهوة الشريرة والالتهاب الذي هو الكبرياء يطبق عليه، والجوع المسعور يُمسك به الذي هو الطمع، والقروح المتقيحة التي هي الزنا تحيط به من كل جانب، وعمى العيون الذي هو عبادة الأصنام، والصمم والجنون التي هي السجود للأصنام والأحجار. وهو رآنا نتحدث بحماقة أكثر من المجانين وندعو الصنم إلهنا وبالمثل الأحجار، ومع أنه رآنا في مثل هذا الذنب العظيم، لكنه لم يردلنا ولم يسخط علينا أو يبتعد عنا ويكرهنا، لأنه هو الرب ولا يقدر أن يكره خليقته.

لكن ماذا يفعل؟ إنه كطبيب ماهر جداً أعد أدوية غالية الثمن وهو نفسه ذاقها أولاً. لأنه هو نفسه سعى أولاً إلى الفضيلة وهكذا أعطاها لنا. وهو نفسه أعطانا الغسيل^٢ (الحميم) كترياق وهكذا تقيأنا كل ذنوبنا وكل الأشياء (الدنسة) هربت في الحال وتوقف التهابنا وانطفأت الحمى فينا وبُرئنا قروحنا. لأن كل الشرور التي من الطمع والغضب وكل الباقي منها انقشع وتبدد بواسطة الروح، وانفتحت أعيننا وآذاننا ونطق لساننا

٢- هنا يشير إلى (تي ٥:٣) «خلصنا بغسل الميلاد الثاني».

بكلمات مقدسة واستعادت نفوسنا قوتها واستعاد جسدنا جماله وبهائه.

وآسفاه كم من نبل عظيم أسبغته هو علينا (ونحن نلفظه)!

لقد ولدنا وغدانا فلماذا نهرب ثانية من المحسن إلينا؟ إذاً هو الذي عمل كل هذه الأشياء (الخيرات) وأعطانا أيضاً القوة، لأنه كان يستحيل لنفس أحنائها المرض أن تقوم منه، لكنه هو نفسه أعطانا القوة و غفران الخطايا. ونحن بددنا كل شيء. لقد أعطانا قوة ونحن أضعناها، هو أعطانا نعمة ونحن أطفأناها، وكيف؟ نحن استهلكناها في غير اللائق واستخدمناها في غرض غير مفيد. هذه الأشياء قد دمرتنا، وما هو أسوأ من كل هذا، أنه ونحن في بلد غريب ونأكل الخرنوب لا نقول: لنعد إلى أبينا ونقول له: أخطأنا إلى السماء وإليك (لوقا ١٥: ١٨)، بينما لنا أب محب هكذا ويشتاق جداً لعودتنا.

لو أننا فقط سنعود إليه، لن يحتمل أبداً أن يلومنا عن أعمالنا السابقة. يكفيننا أن نعتذر حتى نرجع إليه. وهو لن يلومنا فقط بل لو أن آخر تصرف هكذا (يقصد الأخ الأكبر في مثل الابن الضال) فسويقفه عن الكلام، مع أن الذي يتهمنا سمعته جيدة.

لذلك فلنعد إليه!

إلى متى سنظل واقفين بعيداً؟ ليتنا ندرك خزينا، ليتنا نشعر بدناءتنا. إن الخطيئة تجعلنا خنازير وتجلب المجاعة للنفس. فلنعد إلى أنفسنا، ولنكن يقظين ولنعد إلى ميلادنا السابق عالي القدر حتى نحصل على

الخيرات الآتية في المسيح يسوع ربنا الذي له مع الآب والروح القدس
المجد والقوة والإكرام الآن وإلى دهر الدهور آمين.

العظة الثانية عشر

(فيلبي ٣: ١٣-١٧)

أَيْهَا الْإِخْوَةُ، أَنَا لَسْتُ أَحْسِبُ نَفْسِي أَنِّي قَدْ أَدْرَكْتُ. وَلَكِنِّي أَفْعَلُ شَيْئًا وَاحِدًا: إِذْ أَنَا أَنْسَى مَا هُوَ وِرَاءُ وَأَمْتَدُّ إِلَى مَا هُوَ قُدَّامٌ. أَسْعَى نَحْوَ الْغَرَضِ لِأَجْلِ جَعَالَةِ دَعْوَةِ اللَّهِ الْعُلْيَا فِي الْمَسِيحِ يَسُوعَ. (٣: ١٣، ١٤).

لا شيء يجعل أعمالنا الممتازة بالحق باطلة ويفسدها، مثل تذكرنا لأعمالنا الحسنة التي صنعناها، لأن هذا التذكر يسبب شرين أولهما أنه يجعلنا متهاونين وثانياً يرفعنا إلى الكبرياء. لذلك انظر كيف أن بولس إذ هو يعلم أن طبيعتنا سهل عليها جداً الجنوح إلى التهاون، فمع أنه امتدح أهل فيلبي جداً، فإنه الآن يخضع أذهانهم لأشياء كثيرة أخرى سابقة، وبالأكثر لكلماته الحالية. وما هي هذه الكلمات؟ «أيها الإخوة أنا لست أحسب نفسي أني قد أدركت».

لكن إن كان بولس لم يدرك بعد ولم يكن واثقاً من جهة القيامة وأمور آتية، فمن العسير أن يدرك هذا من لم يحوزوا على أقل جزء من عظمتهم. (ويقصد القول) أي أعتبر نفسي أنني إلى الآن لم أدرك كل الفضائل، كما لو كان (هو) يتحدث عن عداء (متسابق في الجري). يقول الرسول:

إلى الآن لم أكمل الكل (كل الفضائل). وإن كان في موضع آخر يقول «قد جاهدت الجهاد الحسن» (٢ تي ٤ : ٧) ، لكنه يقول هنا «أنا لست أحسب نفسي أنني قد أدركت» وكل من يقرأ بحرص شديد سيعلم جيداً سبب تلك الكلمات وأيضاً سبب الكلمات موضوع حديثنا الآن (لأنه لا يلزم أن تمكث دوماً عند نفس النقطة) ، لقد قال هذه الكلمات في تاريخ متقدم جداً ، أما الكلمات الأخرى فقد قالها قرب نياحته . وهو يقول : ولكنني مشغول بشيء واحد فقط وهو «أن أمتد إلى ما هو قدام» . لكنه يقول «أنسى ما هو وراء وأمتد إلى ما هو قدام. أسعى نحو الغرض» لأجل دعوة الله العليا في المسيح يسوع. لأن ما جعله يمتد إلى ما هو قدام هو أن ينسى ما هو وراء. فالذي يظن أن كل شيء قد أنجز وأنه ليس في عوز إلى شيء لأنه قد أتقن الفضيلة ، قد يتوقف عن السعي كأنه أدرك كل شيء. لكن الذي يظن أنه لا يزال بعيداً عن الهدف لن يتوقف أبداً عن السعي. لذلك ينبغي أن نضع هذا في اعتبارنا حتى لو صنعنا عشرة آلاف عمل صالح ، لأنه إن كان بولس بعد عشرة آلاف ميتة وبعد مخاطر عديدة جداً يعتبر هذا ، فكم بالأولى ينبغي لنا نحن أن نعتبر هذا؟ وهو يقول : لأنني لن أخور مع أنني لم أربح بعد سعياً كثيراً كهذا ولا أياس بل لازلت أركض ولا زلت أسعى. شيء واحد فقط أضعه في اعتباري وهو أن أتقدم بالحق. هكذا ينبغي لنا أن نتصرف ، وينبغي لنا أن ننسى نجاحنا ونطرحه خلفنا. وأيضاً ينبغي لنا أن لا نحسب إلى أي مدى نحن تقدمنا في الفضيلة ، بل كم يتبقى لنا (لنصل إلى الجعالة). لأنه ماذا يفيدنا الذي أتمناه إن كان ما يتبقى لم يُضف إليه؟

وعلاوة على ذلك لم يقل: إنني لا أحسب، بل قال إنني ولا حتى أتذكره. لأنه هكذا نصير نشطاء عندما نستخدم كل مهارتنا فيما بقي، عندما نسهو عن كل شيء آخر عداه. يقول الرسول: أمتد إلى ما هو قدام. قبل أن نصل، نحن نسعى للحصول (على ما نود الحصول عليه). لأن الذي يمتد إلى الأمام - رغم أن قدميه تركضان - لكنه يسعى لكي يسبقهما ببقية جسده، ممتداً بنفسه نحو الأمام وممتداً بيديه حتى يحقق المزيد من السعي. وهذا سيأتي من اشتياق عظيم ومن حرارة شديدة، وهكذا يركض المتسابق بهمة عظيمة وبمنتهى النشاط وبدون تكاسل. والفرق بيننا وبين بولس هو كالفرق بين من يركض ومن هو مستلقي على ظهره. إنه كان يموت يومياً ومزكياً لدى الله يومياً ولم يكن هناك وقت لم يتقدم فيه في سعيه. إنه لم يرغب في أخذ بل في انتزاع الجعالة (أي نوال الجائزة عن جدارة) لأنه بهذه الطريقة (فقط) يمكننا أن نأخذها. فالذي يعطي الجعالة يقف في العلا، والجعالة (ذاتها) موضوعة في العلا! (ولذا) أنظر كم هي عظيمة المسافة التي يلزمنا أن نركضها!

أنظر كم هو عظيم هذا الصعود! يلزمنا أن نطير إلى هناك بأجنحة الروح وإلا يستحيل علينا أن نصعد إلى هذا العلو! يلزمنا أن نمضي إلى هناك بالجسد، لأن هذا أمر مسموح به «لأن سيرتنا (موطننا) هي في السموات» (في ٣: ٢٠)، حيث توجد هناك الجعالة (الجائزة).

هل ترى كيف أن العدائين يعيشون بقانون، وكيف أنهم لا يلمسون شيئاً من شأنه أن يرخي قوتهم، وكيف أنهم يدرّبون أنفسهم كل يوم في مدرسة الألعاب وتحت إشراف مدرب وبقانون؟ اقتد بهم أو بالأحرى

أظهر همةً أعظم لأن الجعالة ليست متساوية في كلتا الحالتين: كثيرون هم الذين يعوقونك فعش بترتيب، كثيرة هي الأشياء التي تُرخي قوتك، فاجعل أقدام قوتك نشيطة، لأنه يمكننا أن نفعل هذا، وهو أمر لا يأتي طبيعياً بل بإرادتنا. ليتنا نجعل أقدامنا خفيفة لئلا ثقل أشياء أخرى يعوق سرعة أقدامنا. علّم قدميك أن تكونا واثقتي الخطى، لأنه توجد أماكن لزجة كثيرة وإن سقطت فإنك ستخسر في الحال كل شيء. لكن إن سقطت قم ثانية، إذ بهذا يمكنك أن تحرز النصر. لا تسع إلى أشياء لزجة وأنت لن تسقط، امش على أرض ثابتة ورأسك منتصبه وعيناك مرفوعتان، فهذه الوصايا يعطيها المدربون لمن يركضون. وهكذا تشتد قوتك، ولكن إن انحنيت ستسقط وتتراخى. انظر إلى فوق حيث الجعالة موجوده، فمنظر الجعالة يزيد من تصميم إرادتنا. إن رجاء أخذها لا يسمح لنا أن ندرك الأتعاب ويجعل المسافة تبدو أقصر. وما هي هذه الجائزة؟ إنها ليست سعف نخيل، بل ماذا؟ هي ملكوت السموات، أن نبقي ونتمجد مع المسيح وهي الميراث والأخوة له وخيرات أخرى كثيرة جداً يستحيل تسميتها. إنه يستحيل وصف جمال هذه الجائزة، والذي أخذها هو فقط الذي يعرفها، وأيضاً الذي على وشك أن ينالها. إنها ليست من الذهب وليست مرصعة بالجواهر بل هي أثمن جداً من كل هذا. إن الذهب هو طين بالمقارنة إلى هذه الجائزة، والحجارة الكريمة هي مجرد حجارة طفلية بالمقارنة إلى جمالها. لو كان لك هذه الجائزة ورحلت إلى السماء سيمكنك أن تسير هناك بكرامة عظيمة والملائكة سيجلونك عندما تحمل هذه الجائزة وستقترب منهم بثقة.

انظر إلى تواضع ذهنه فهو يقول «هذا أنا أفعله في المسيح» لأنه يستحيل بدون دفعة منه أن أعبر مثل هذه المسافة، فنحن نحتاج إلى عون عظيم من حليف قوي. إنه يريدك أن تجاهد تحت، وهو يكللك فوق. ليس كما في هذا العالم، فالإكليل ليس هنا حيث الجهاد، بل الإكليل هناك في ذلك المكان البهي. ألا ترى حتى هنا فإن المكرمين من المصارعين والفائزين في سباق الخيل لا يكللون في الميدان أسفل، بل يستدعيهم الملك ويتوجههم هناك؟ وهكذا أيضاً هناك في السموات ستنال الجائزة.

«فليفتكر هذا جميع الكاملين منا وإن افتكرتم شيئاً بخلافه فאלله سيعلن لكم هذا أيضاً» (في ٣: ١٥)

ما الذي تقصده عبارة «إن افتكرتم شيئاً»؟ هو أنه يجب «أن ننسى ما هو وراء» لذلك هو أمر يتعلق بمن هو كامل أن لا يعتبر نفسه كاملاً. كيف إذاً تقول «جميع الكاملين»؟ أخبرني هل نحن لنا نفس فكرك؟ لأنه إن كنت لم تدرك ولا تكملت، فكيف تأمر من هم كاملون أن يكون لهم نفس فكرك وهم لم يتكملوا بعد؟

فيجيب: نعم لأن هذا هو الكمال. و «إن افتكرتم شيئاً بخلافه فאלله سيعلن لكم هذا أيضاً» أي لو أن أحدكم اعتبر نفسه أنه أدرك كل سمو. لقد جعلهم حذرين ليس بالكلام مباشرة بل ماذا يقول؟ «إن افتكرتم شيئاً بخلافه فאלله سيعلن لكم هذا أيضاً»

انظروا كيف قال هذا بإتضاع! الله سيعلمكم، أي أن الله سينجح في إقناعكم وليس سيعلمكم (فقط)، لأن بولس كان يعلمهم لكن الله هو الذي يقودهم إليه. وهو لم يقل إن الله يقودهم إليه (إلى ما يريد إعلامهم به)، بل قال الله «سيعلنه» أي أن هذا يبدو بالأكثر أنه نابع عن جهل.

لم تذكر هذه الكلمات من جهة ما يختص بالتعاليم، بل من جهة كمال الحياة وألا نعتبر أنفسنا كاملين، لأن الذي يعتبر أنه أدرك كل شيء هو في الواقع لم يدرك شيئاً.

«وأما ما قد أدركناه فلنسلك بحسب ذلك القانون عينه ونفتكر ذلك عينه» (في ٣: ١٦)

«أما ما قد أدركناه»

ما معنى هذا الكلام؟ إنه يقول: لنتمسك بما نجحنا فيه من حب واتفاق وسلام لأننا في هذا نجحنا.

«ما قد أدركناه» بالسير بنفس القانون وبافتكار نفس الشيء.

«ما قد أدركناه» أي الذي أفلحنا فيه بالفعل.

هل تدرك أنه يريد أن تكون وصايا قانوناً لنا؟ قانوناً لا يقبل زيادة أو نقصاناً، لأن هذا لا يجعله كونه قانوناً.

«ذلك القانون عينه» أي بنفس الإيمان وفي إطار نفس الحدود.

«كونوا متمثلين بي معاً أيها الإخوة ولاحظوا الذين يسرون هكذا كما نحن عندكم قدوة» (في ٣: ١٧)

لقد قال سابقاً: «انظروا (احذروا) الكلاب». لأنه قادهم بعيداً عن مثل هؤلاء وهو يحضرهم (الآن) بالقرب ممن ينبغي لهم أن يقتدوا بهم.

لو أن واحداً أراد أن يقتدي بي، نو أراد أن يسير في نفس الطريق لينتبه لهم (لمن اقتدوا بي) ولو أنني غير حاضر فأنتم تعرفون طريقة سيرى أي سلوكي في الحياة. لأنه لم يعلم بالكلمات فقط بل بالأفعال أيضاً، كما في الخورس وفي الجيش يلزم للآخرين أن يقتدوا بفناء الخورس أو قائد الجيش، وهكذا يتقدمون في ترتيب حسن. لأنه يمكن أن ينحل النظام بالشغب. لذلك كان الرسل مثلاً وحفظوا إلى النهاية نوعاً من النموذج الأصلي.

انظر كم كانت حياتهم صحيحة تماماً حتى إنهم قدموا أنفسهم كنموذج أصلي ومثال وكقوانين حياة. لأن ما قيل في رسائلهم أظهوره للجميع في أفعالهم. هذا هو أعظم تعليم وهكذا سيستطيع المعلم أن يتلمذ تلميذه. لكن لو أنه كان فيلسوفاً وكن أعماله كانت عكس تعليمه، فإنه لا يعد معلماً. لأن الفلسفة الإسمية سهلة حتى بالنسبة للتلميذ لكن هناك احتياج إلى ذلك التعليم والقيادة التي تأتي من الأعمال. لأن هذا يجعل المعلم موقراً ويُعد التلميذ لأن يُظهر الطاعة. كيف هذا؟ عندما يرى التلميذ معلمه يسلم له فلسفة كلامية، سيقول إنه يأمر بالمستحيلات، والدليل على ذلك أنه لا يمارسها. لكن إذا رأى تقواه منفذة تماماً في

أفعال فلن يمكنه أبداً أن يتكلم هكذا. لكن مع أن حياة معلمنا فيها إهمال
لننتبه لأنفسنا ولننصت لكلمات النبي التي تقول «كلهم سيتعلمون من
الله» (إش ٥٤ : ١٣)، «ولا يعلمون بعد كل واحد صاحبه وكل واحد أخاه
قائلين اعرفوا الرب لأنهم كلهم سيعرفونني من صغيرهم إلى كبيرهم»
(إر ٣١ : ٣٤).

هل هناك معلم ليس تقياً؟ لكن لا يزال لديك من هو بالحق المعلم، و
هو الوحيد الذي يمكنك أن تدعوه معلماً، تعلموا منه فهو قد قال «تعلموا
مني لأنني وديع» (مت ١١ : ٢٩). إذاً لا تلتفت إلى معلمك بل انتبه إلى
الرب وإلى تعاليمه. ومن ثمّ خذ منه أمثلك، فهو أعظم نموذج لك،
تشبهه به. توجد نماذج لا تعدّ موضوعة أمامك في الأسفار لسير (حياة
أفاضل) تتسم بالتقوى، فسوف تجد النموذج بعد الرب في التلاميذ. واحد
اظهر فضيلته في الفقر وغيره بالغنى، فمثلاً إيليا ظهر بالفقر وإبراهيم
عن طريق الغنى. اتجه إلى المثال الذي تعتبره سهلاً ويناسبك بالأكثر
في الممارسة. وأيضاً الواحد بالزواج والآخر بالبتولية. اتبع ما أردت،
لأن كليهما يؤديان إلى السموات. الواحد لمع بالصوم كيوحنا (المعمدان)
وغيره بدون الصوم كأيوب. وأيضاً هذا الأخير (أيوب) كان يهتم بزوجته
وبنيه وبناته وأسرته وامتلك ثروة عظيمة، والآخر (المعمدان) لم يمتلك
إلا رداء من الوبر. ولماذا أذكر الأسرة أو الثروة أو المال حتى يمكن لمن
هو ملك أن يتمسك بالفضيلة، لأنه ستوجد في بيت الملك متاعب أكثر
من أي أسرة عادية. إن داود لمع في مملكته ولم يجعله الأرجوان والتاج
أبداً مهماً (ومتراخياً). والآخر أوكل إليه أن يرأس الشعب كله أقصد

موسى وكانت مهمته في غاية الصعوبة. إنكم قد رأيتم أناساً مزكين لدى الله وكانوا أغنياء ومنهم من كانوا فقراء أيضاً، ومنهم من كانوا متزوجين وأيضاً من كانوا متبتلين، وبالمقابل فإن البعض قد هلكوا في الزواج وفي البتولية وفي الغنى وفي الفقر. فمثلاً كثيرون هلكوا في الزواج كشمشون (وإن كانت توبته قبلت فيما بعد)، ولكن ليس من الزواج بل بمحض إرادتهم. وبالمثل في البتولية من هلك كالخمس عذارى الجاهلات، ومن هلك في الغنى كالرجل الغني الذي ازدري بلعازر، وفي الفقر فإن فقراء لا يُعدون من الكثرة وحتى الآن يهلكون فيه، ويمكنني من جهة المملكة أن أشير إلى كثيرين هلكوا فيها.

هل تريد أن تنظر أناساً خلصوا وهم في رتبة الجنديّة؟ هناك كرنيليوس، وفي إدارة بيت الملك يوجد الخصي الحبشي. فإن استخدمنا ثروتنا كما يليق فلن يدمرنا شيء سواء كان مملكة أو فقراً أو ثروة، بل لا سلطان لشيء أن يؤذي الإنسان طالما هو يقظ على نفسه. إذ أخبرني هل كان للسجن ضرر؟ لا على الإطلاق. أتوسل إليك أن تنظر يوسف الذي صار عبداً وحفظ فضيلته. أنظر لدانيال والثلاثة فتية الذين صاروا أسرى وكيف أن فضيلتهم لمعت بالأكثر، لأن الفضيلة تلمع في كل مكان ولا تُقهر ولا شيء يمكنه أن يضع معوقات في طريقها. لكن لماذا أذكر الفقر والأسر والعبودية والجوع والقروح والأمراض الخطيرة؟ لأن المرض صعب احتماله أكثر من العبودية. هكذا كان لعازر وأيوب، وأيضاً تيموثاوس كان يعاني من أسقام كثيرة (١ تي ٥: ٢٣). ها أنت ترى أن لا شيء يمكنه أن يسود على الفضيلة، لا الغنى ولا الفقر ولا السيادة ولا الخضوع ولا الرفعة في

الأشغال ولا المرض أو الاحتقار أو النفي. بل إذ تترك الفضيلة كل شيء خلفها على الأرض، فهي تسرع ناحية السماء. فقط دع النفس نبيلة ولا شيء يمكنه أن يعوقها عن أن تكون تقية. لأنه عندما يكون الذي يعمل في منتهى النشاط فلا شيء خارجي يمكن أن يعيقه، لأنه كما في الفنون عندما يكون الصانع ذا خبرة ومثابراً ومتمكناً تماماً من فنه، فحتى لو مرض فلا يزال فنه له وحتى لو افتقر وساء تكون معداته في يده. وسواء عمل أو لم يعمل فإنه لا يخسر فنه على الإطلاق، لأن دقائق علم هذا الفن في داخله. هكذا أيضاً الشخص التقي الذي هو مكرس لله يُظهر فنه (أي فضيلته) إن ألقيته في الغنى أو في الفقر أو في المرض أو في الصحة أو في الإهانة أو في مجد عظيم. ألم يعمل الرسل في كل حالة «بمجد وهوان، بصيت ردي وصيت حسن» (٢كو٦: ٨)، فالمجاهد يجب أن يعد نفسه لكل شيء، لأنه هكذا أيضاً تكون طبيعة الفضيلة.

فإن قلت أنا غير قادر أن أترأس على كثيرين وينبغي لي أن أحيا حياة الوحدة، فأنت بهذا تهين الفضيلة لأنه يمكنها أن تستخدم كل حالة وتتألاً في كل شيء، فقط دعها تكون في نفسك. هل هناك مجاعة؟ أو هل هناك (غنى) فائض؟ فهي تُظهر قوتها كما يقول بولس الرسول «في جميع الأشياء قد تدربت أن أشبع وأن أجوع وأن أستفضل وأن أنقص» (في٤: ١٢). هل طلب منه أن يعمل؟ نعم لم يخجل بل عمل لمدة سنتين. هل كان عليه أن يجوع؟ إنه لم يسقط (ويخور) تحت ثقل الجوع أو يتزعزع. هل كان عليه أن يكابد الموت؟ فإنه لم يخرب بل من خلال كل شيء أظهر (معدن) قلبه النبيل. لذلك لیتنا نفتدي به ولن

يكون لدينا سبب للحزن، إذ أخبرني من سيكون لديه القوة ليحزن مثل هذا الإنسان؟ لا أحد.

طالما أن لا أحد سيحرمنا من هذا الغنى (الذي للفضيلة)، فنحن سنكون أكثر الناس الطوباويين حتى في هذه الحياة (الصعبة) وأيضاً في الحياة الآتية. لنفترض أن إنساناً صالحاً كان له زوجة وأولاد وغنى وكرامة عظيمة، مع كل هذه الأشياء يبقى على السواء تقياً. انزعها عنه وأيضاً بنفس الطريقة سيكون تقياً فلن تغرقه – ولن تجعله ثروته يتكبر بل هو كصخرة يقف غير متزعزع، سواء في البحر الهائج أو في الهدوء، لا تكسره الأمواج ولا يؤثر الهدوء عليه أبداً، هكذا أيضاً القلوب الثابتة تقف غير مزعزعة في الهدوء وفي العاصفة. وكما أن الأطفال الصغار عندما يبحرون في سفينة يضطربون (لهياج البحر) بينما القبطان جالس غير متزعج ومبتسماً (حرفياً مبتهجاً) لرؤية اضطرابهم، هكذا أيضاً النفس التي هي حكيمة بالحق، فبينما كل الآخرين مضطربون أو يبتسمون ابتسامة في غير محلها لأي تغيير في الظروف (المؤقتة نحو الأحسن)، فإنها تجلس غير متأثرة كما لو كانت عند ذراع ومقبض دفة التقوى.

إذ أخبرني أي شيء يمكن أن يزعج النفس التقية؟ هل الموت؟ الموت هو بداية الحياة الأفضل. هل يمكن للفقر أن يزعجها؟ ألا يساعدها للتوجه (بالأكثر) نحو الفضيلة؟ هل يمكن للمرض؟ إنها لا تعتبره موجوداً. إنها لا تضع اعتباراً للراحة أو الضيقة. هل يمكن للإهانة أن تزعجها؟ إن العالم قد صُلب لها. هل يمكن لفقدان الأولاد؟ إنها لا تخشى هذا إذ هي مقتنعة تماماً بالقيامة. فأَي شيء يمكن أن يفاجئها؟ لا شيء أبداً من كل

هذا. هل الغنى يرفعها؟ لا على الإطلاق، فهي تعلم جيداً أن المال هو لا شيء. هل المجد؟ لقد تعلمت أن «كل مجد الإنسان كزهر العشب» (إش ٤٠: ٦). هل التمتع؟ لقد سمعت بولس يقول «أما المتنعمة فقد ماتت وهي حية» (١ تي ٥: ٦)

أما النفوس الأخرى فهي ليست هكذا، بل تتغير كثيراً أكثر من أمواج البحر أو الحرباء، لذلك لديك سبب كاف لأن تبتسم عندما ترى نفس الشخص في آن ضاحكاً وفي آن آخر باكياً، في وقت مملوءاً نشاطاً وفي وقت آخر متكاسلاً تكاسلاً يفوق الحد. لأجل هذا السبب يقول بولس الرسول «لا تشاكلوا هذا الدهر» (رو ١٣: ٢)، لأننا مواطنون سمائيون حيث لا تغير هناك. توجد جوائز لا تتغير مقدمة لنا (هناك). لنظهر مواطنتنا (السماوية) هذه ولننال من الآن خيراتنا (الآتية) هنا. لكن لماذا نطرح أنفسنا في العاصفة والزوبعة؟ ليتنا نكون في هدوء، وفي كل شيء لا نتكل على الغنى أو الفقر ولا على الكرامة أو المهانة ولا على المرض أو الصحة أو على الضعف، بل على أنفسنا ذاتها. لو أنها صلبة (متينة) ومتعلمة جيداً في علم الفضيلة، فكل شيء سيكون سهلاً لها. بل من الآن ستنظر راحتها وذلك الميناء الهادئ وعند رحيلها ستدرك أن هناك خيارات لا حصر لها نتمنى أن ندركها كلنا بنعمة ومحبة ربنا يسوع المسيح الذي له مع الأب والروح القدس المجد والسيادة والإكرام الآن وإلى أبد الأبدين آمين.

العظة الثالثة عشر

(فيلبي ٣: ١٨-٤)

لأنَّ كَثِيرِينَ يَسِيرُونَ مِمَّنْ كُنْتَ أَذْكَرُهُمْ لَكُمْ مِرَاراً، وَالآنَ أَذْكَرُهُمْ أَيْضاً
بَاكِيًا، وَهُمْ أَعْدَاءُ صَلِيبِ الْمَسِيحِ، الَّذِينَ نَهَيْتُهُمُ الْهَلَاكَ، الَّذِينَ إِلَهُهُمْ
بَطْنُهُمْ وَمَجْدُهُمْ فِي خَزَائِهِمْ، الَّذِينَ يَفْتَكِرُونَ فِي الْأَرْضِيَّاتِ. فَإِنَّ سِيرَتَنَا نَحْنُ
هِيَ فِي السَّمَاوَاتِ، الَّتِي مِنْهَا أَيْضاً نَنْتَظِرُ مُخْلِصًا هُوَ الرَّبُّ يَسُوعُ الْمَسِيحُ،
الَّذِي سَيُغَيِّرُ شَكْلَ جَسَدِ تَوَاضَعْنَا لِيَكُونَ عَلَى صُورَةِ جَسَدِ مَجْدِهِ، بِحَسَبِ
عَمَلِ اسْتِطَاعَتِهِ أَنْ يُخْضِعَ لِنَفْسِهِ كُلَّ شَيْءٍ. (٣: ١٨-٢١).

لا شيء هكذا مخالف للمسيحي وغريب عن طبعه مثل أن يبحث عن
الراحة والتنعم، وكون المسيحي يستغرق (وينهمك) في الحياة الحاضرة
فهذا شيء غريب عن عقيدتنا وتجددنا (للب). إن ربك قد صُلب (عنك)
فهل تسعى أنت إلى الراحة؟ ربك قد دُقت في يديه ورجليه المسامير فهل
تحيا في تنعم؟ هل من يصنع هذه الأمور يصير جندياً مقدماً؟ لذلك يقول
بولس «كثيرون يسكرون ممن كنت أذكرهم لكم مراراً والآن أذكرهم أيضاً
باكياً وهم أعداء صليب المسيح، حيث إنه كان يوجد البعض ممن ادعوا
المسيحية ولكنهم يعيشون في تنعم وراحة وهذا مخالف للصليب، لذلك

تكلم هكذا. لأن الصليب ينتمي إلى نفس متأهبة للقتال ومشتاقة للموت، لا تسعى لشيء فيه راحة، بينما سلوك من أذكرهم باكياً هو من نوع مخالف. لذلك حتى لو قلت إنهم للمسيح، مع ذلك هم كمن كانوا أعداء للصليب. لأنهم لو كانوا أحبوا الصليب، لكانوا يسعون لأن يحيوا الحياة المصلوبة (للعالم).

ألم يُعلّق ربك على خشبة؟ اقتد به أنت أيضاً. اصلب نفسك ولو لم يصلبك أحد. اصلب ذاتك لا أن تقتل نفسك، حاشا لله فهذا أمر شرير، بل (اعمل) كما قال بولس «العالم صُلب لي وأنا للعالم» (غل ٦: ١٤). لو كنت تحب ربك مت موته. تعلم كم هي عظيمة قوة الصليب، وكم من أمور حسنة كثيرة أنجزها، وكيف أنه أيضاً أمان حياتنا. عن طريقه تُعمل كل الأشياء. إن المعمودية (تتم) عن طريق الصليب، لأنه يلزمنا أن ننال ذلك الختم. وضع اليد (للسماحة) هو عن طريق الصليب. إن كنا في سفر أو في البيت، وحيثما كنا فإن الصليب هو خير عظيم، هو سلاح الخلاص، إنه ترس لا يمكن أن يُهزم، وسلاح لمقاومة إبليس. وأنت تحمل الصليب عندما تكون في عداوة معه (مع إبليس)، ليس فقط عندما ترشم نفسك به، بل وعندما تعاني الأشياء التي تنتمي إلى الصليب. إن المسيح رأى من اللائق أن يدعو آلامنا باسم الصليب، كما عندما يقول «من لا يحمل صليبه ويتبعني» (مت ١٦: ٢٤)، أي من لم يُعدّ للموت.

لكن الذين هم أدنياء ومحبون للحياة (الدنيوية) ومحبون لأجسادهم هم أعداء للصليب. وكل من هو صديق للتنعم وللطمأنينة الحاضرة هو عدو لذلك الصليب الذي هو محل افتخار بولس، الذي يحتضنه ويرغب في

أن يتحد به ، كما عندما يقول «أنا صُلبت للعالم والعالم لي».

لكنه يقول هنا «الآن أذكرهم باكياً» لماذا؟ لأن البلية كانت متعجلة ، لأن مثل هؤلاء جديرون بالبكاء. وبالحقيقة فإن المتنعم جدير بالبكاء إذ يسمّن ما سيُطرح عنه ، أقصد الجسد بينما لا يعطي اهتماماً للنفس التي يلزم إعطاء حساب عنها.

أنظر ، أنت تعيش برخاوة ، أنت تسكر اليوم وغداً ٠٠ عشر سنوات ، عشرين ٠٠ ثلاثين ٠٠ خمسين ، بل مائة مع أن هذا عسير (تحققه) ، لكن إن شئت نفرض هذا. لكن ما النهاية (الغاية) ، ما الربح؟ لا شيء على الإطلاق. أفلا يستحق النحيب والبكاء أن نحيا مثل هذه الحياة. فبينما خلقنا الله لكي يتوجنا ، نرحل نحن دون صنع أي عمل نبيل. لذلك يبكي بولس ، بينما يضحك آخرون ويعيشون في تنعم. وتعاطفاً منه مع جميع الناس (البعيدين) يكون هو مهموماً عليهم فيقول «إن إلههم بطنهم» ، أي «لنأكل ونشرب» (١كو٢ : ٣٢).

هل ترى كم أن الترف شر عظيم؟ فالثروة بالنسبة للبعض هي إلههم ، وبالنسبة للبعض الآخر البطن هي إلههم. أليس هؤلاء أيضاً عبدة أوثان وأسوأ من المتسفلين؟ و«مجدهم في خزيبهم».

يقول البعض إن المقصود هنا الختان. أما أنا فلا اعتقد هذا ، بل يقصد بهذا المعنى أنهم يفتخرون بتلك الأشياء التي ينبغي أن يخزوا منها. إنه شيء مخيف أن تعمل أعمالاً مخزية ، لكن أن تعملها وتخزي فهذا مخيف فقط بدرجة متوسطة ، لكن عندما يفتخر الإنسان بها أيضاً فهذا

هل هذه الكلمات تنطبق عليهم فقط؟ وهل يفلت الحاضرون هنا من هذه التهمة؟ و أُلن يعطي أحد حساباً عن هذه الأشياء؟ و أليس هناك أحد يجعل بطنه إلهاً له أو يجعل مجده في خزيه؟ إنني أتمنى بشدة ألا تُلقى علينا واحدة من هذه التهم وأتمنى ألا أعرف أحداً متورطاً فيما قلته. لكن أخشى أن تشير هذه الكلمات إلينا أكثر من أناس تلك الأزمنة. لأنه عندما يضيع إنسان حياته كلها في الشرب والعريضة وينفق شيئاً زهيداً على الفقير بينما يضيع الجزء الأكبر من ماله على بطنه ، أفلا تنطبق عليه هذه الكلمات بالأكثر؟ لا توجد كلمات مناسبة أكثر لتجذب الانتباه بتوبيخ قاطع أكثر من هذه الكلمات «الذين إلههم بطنهم ومجدهم في خزيهم». ومن هم هؤلاء؟

فيجيب: الذين يتفكرون في الأرضيات.

القائلين: لكي نبني بيوتاً. فأسألهم أين؟

فيجيبون: على الأرض. لنبتاع مزارع ٠٠ أيضاً على الأرض ٠٠ لنقتني القوة ٠٠ أيضاً على الأرض ٠٠ لنقتني المجد ٠٠ أيضاً على الأرض. لنُغني أنفسنا ٠٠ كل هذه الأشياء على الأرض ٠٠

هؤلاء هم الذين إلههم بطنهم، لأنه إن لم تكن لهم أفكار روحية، بل كل مقتنياتهم هنا ويهتمون بهذه الأشياء، فلكون بطنهم إلهاً لهم، لذلك يكون لهم الحق في القول «لنأكل ونشرب لأننا غداً نموت»

أخبروني: هل أنتم تحزنون على أن جسدكم من الأرض مع أن هذا (كونه من تراب الأرض) أمر لا يضركم على الإطلاق. لكن نفسكم تجردونها إلى الأرض، بينما ينبغي لكم أن تجعلوا جسدكم أيضاً روحانياً، لأنه يمكنكم هذا إن أردتم. لقد أخذتم البطن لكي تأكلوا (وتقوتوا الجسد)، لا لكي تتخموها (بما لذ وطاب)، ولكي يكون لكم عليها سيادة، لا أن تكون هي سيدتكم، لكي تخدمكم في تغذية أجزاء الجسد الأخرى، لا أن تخدموها هي، لا أن تتجاوز الحدود. إن البحر عندما يتعدى حدوده لا يسبب شروراً كثيرة مثلما تسبب البطن لجسدنا ونفسنا معه. البحر يُغرق الأرض، بينما البطن تُغرق الجسد كله. ضع ضابطاً لحدودها كما وضع الله الرمل للبحر. لذلك إن قامت أمواجها وهاجت بشراسة أزجرها بالقوة التي فيك. انظر كيف أن الله شرفك بأن تقندي به وأنت لا تريد، لكن أنت ترى البطن تغرقك وتدمر طبيعتك كلها وأنت لا تجرؤ على كبحها أو ضبطها.

يقول بولس: «الذين إلههم بطونهم»

لنرى كيف خدم بولس الله، لنرى كيف يخدم الشبهون بطونهم. ألا يجوزوا عشرة آلاف ميتة^١ كهذه؟ ألا يصنعون المستحيل لها؟ أليسوا أسوأ من العبيد؟

١- هنا يتكلم ذهبي الفم على خلفية ما ورد في (رو٦: ٣٦) «كما هو مكتوب إننا من أجلك نمات كل النهار. قد حسبنا مثل غنم للذبح» وعلى ما ورد في (١كو٥: ٣٠) «إني بافتخاركم الذي لي في يسوع المسيح ربنا أموت كل يوم»، وقد يقصد هنا الميتات التي يتعرضون لها في سبيل الحصول على ملذاتهم أو ما ينتج عنها من أمراض تسبب لهم الموت.

أما بولس فيقول «إن سيرتنا نحن هي في السموات» (في ٣: ٢٠)، لذلك ليتنا لا نسعى إلى الراحة هنا، فهناك سنلمع حيث أيضاً مواطننا. ويواصل كلامه قائلاً «التي منها أيضاً ننتظر مخلصاً هو الرب يسوع المسيح، الذي سيغير شكل جسد تواضعنا ليكون على صورة جسد مجده» (في ٣: ٢٠، ٢١)، و«قليلاً، قليلاً رفعنا هو إلى فوق. بقوله «في السموات» و«مخلصاً» يظهر من المكان ومن الشخص كرامة (مجد) الموضوع (أي الجعالة).

يقول الرسول «الذي سيغير شكل جسد تواضعنا». إن الجسد الآن يعاني أشياء كثيرة وهو مقيد بسلاسل ويتم جلده ويعاني شروراً لا تُحصى، لكن جسد المسيح عانى نفس الشيء. لذلك أشار إلى هذا عندما قال «ليكون على صورة جسد مجده». لذلك، الجسد هو نفس الجسد، لكنه لبس عدم الفساد. الشكل مختلف أو ربما هو تكلم بصورة تشبيهية (مجازية) عن التغيير. ويقول «جسد تواضعنا» بسبب أنه الآن وضع وخاضع للهلاك وللألم، وبسبب أنه يبدو عديم القيمة وأن لا شيء له يفوق الحيوانات الأخرى.

«ليكون على صورة جسد مجده»

ماذا؟ هل جسدنا هذا سيتشكل ليشابه من هو جالس عن يمين الآب ومن تسجد له الملائكة ومن تقف أمامه القوات غير المتجسدة و الذي هو فوق كل سلطان ورياسة وقوة؟ فلو كان للعالم كله أن يبكي وينتحب لمن سقطوا من هذا الرجاء فهل يستحقون البكاء عليهم؟ لأنه إن كان قد

أعطي لجسدنا أن يشابهه ، لكنه يرحل مع الشياطين (إلى الجحيم).

ماذا تقول يا بولس؟ أن نجعل مشابهين له؟

فيجيب: نعم. وبعد ذلك لئلا لا تصدقوا أضاف سبباً بقوله «بحسب عمل استطاعته أن يخضع لنفسه كل شيء» (في ٣: ٢١).

يقول الرسول (ما معناه): إن لديه القوة ليخضع كل الأشياء لنفسه ، كذلك أيضاً الهلاك والموت. أو بالأحرى هو يفعل هذا أيضاً بنفس القوة. إذ أخبرني أيهما يحتاج لقوة أعظم أن تخضع الشياطين والملائكة ورؤساء الملائكة والشاروبيم والسيرافيم، أم أن تجعل الجسد خالداً وغير مائت؟

بالتأكيد إن الأخيرة تحتاج لقوة أعظم من الأولى ، وهو قد أظهر القدر الأعظم من قوته لكي تؤمن بهذه أيضاً. لذلك ولو أنك ترى هؤلاء الناس مبتهجين ومكرمين ، لكن كن ثابتاً ولا تتأثر أو تتضايق منهم. إن آمالنا هذه كافية أن تقيم الكسالى والمتوانين.

«إذا يا إخوتي الأحباء والمشتاق إليهم، يا سروري وإكليلي اثبتوا هكذا في الرب أيها الأحباء» (في ٤: ١).

كيف «هكذا»؟ الثبات.

انظروا كيف أنه يضيف المديح بعد النصح (في الإصحاح الماضي)، فيقول «يا سروري وإكليلي» وليس فقط سروري، بل مجدي^٢ أيضاً، ليس مجدي فقط بل أيضاً إكليلي.

٢- انظر «لأنكم أنتم مجدنا وفرحنا» (١ تس ٢: ٢٠).

أي مجد يمكن أن يعادل هذا المجد إذ أنه مجد بولس.

«إذاً اثبتوا هكذا في الرب» أي اثبتوا في رجائكم في الرب.

«أطلب إلى أفودية وأطلب إلى سنتيخي أن تفتكرا فكراً واحداً في الرب. نعم أسألك أنت أيضاً يا شريكى المخلص ساعد هاتين المرأتين» (في ٤: ٢، ٣).

يقول البعض هنا أن بولس ينصح هنا زوجته ، لكن الأمر ليس هكذا (إذ أن بولس الرسول كان متبتلاً)، بل امرأة أخرى أو أنه ينصح زوج واحدة منهما «ساعد هاتين اللتين جاهدتا معي في الإنجيل مع اكليميندس أيضاً وباقي العاملين معي الذين أسماؤهم في سفر الحياة» (تابع في ٤: ٣).

هل ترى كم هي عظيمة الشهادة التي يشهد بها لفضيلتهما؟ لأنه كما قال المسيح لتلاميذه «لا تفرحوا بهذا أن الأرواح تخضع لكم بل افرحوا بالحرى أن أسماءكم كُتبت في السموات» (لوقا ١٠: ٢٠)، هكذا يشهد بولس لهما بقوله «الذين أسماؤهم في سفر الحياة».

يبدو لي أن هاتين المرأتين هما رئيستا الكنيسة التي كانت هناك وهو يوصي عليهما شخصاً ما نبيلاً يدعوه بولس «شريكه المخلص». ربما كان قد اعتاد أن يوصيه عليهما كما إلى شريك في العمل والجنودية وأخ ورفيق كما يفعل في رسالته إلى أهل رومية عندما يقول «أوصي إليكم بأختنا فيبي التي هي خادمة الكنيسة التي في كنخريا» (رو ١٦: ١).

شريك، إما أنه أخ لهما أو أنه زوج إحداهما كما لو كان يقول: الآن

أنت أخ حقيقي، الآن أنت زوج حقيقي لأنك صرت عضواً.

«لأنهما جاهدتا معي في الإنجيل»

هذه التوصية بالحماية أتت من البيت وليس من الصداقة لهما، بل لأجل أعمال صالحة.

«جاهدتا معي»

ماذا تقول؟ هل المرأتان جاهدتا معك؟

فيجيب: نعم، فهما أيضاً ساهمتا مساهمة ليست بقليلة. فمع أن كثيرين هم الذين عملوا معه، لكن هاتين المرأتين عملتا أيضاً معه ضمن كثيرين.

إذاً الكنائس لم تكن تُبنى (روحياً) قليلاً، لأن أهدافاً حسنة كثيرة قد تحققت حيث كان المزكون سواء كانوا رجالاً أم نساءً يتمتعون عن الباقيين (من أعضاء الكنيسة) بمثل هذا الإكرام. إذ أولاً كان الباقيون يُقادون لغيره مشابهة وثانياً فإنه تم اكتسابهم أيضاً بالاحترام الذي أظهر لهم وثالثاً فإنهم جعلوا نفس هؤلاء الأشخاص أكثر غيرة واجتهاداً. لذلك أنت ترى بولس الرسول له اهتمام بهذا الأمر في كل مكان ويوصي باحترام مثل هؤلاء الناس، كما يقول في رسالته إلى أهل كورنثوس «الذين هم باكورة أخائية» (١كو١٦: ١٥).

يقول البعض إن «شريك» (في النص اليوناني) هي اسم علم، سواء كان الأمر هكذا أو لا فنحن لسنا في حاجة إلى الاستفهام الدقيق عن هذا

الاسم، لكن نلاحظ أنه أعطاه أمره بأن هاتين المرأتين ينبغي أن تتمتعاً بحماية عظيمة.

ذكر الرسول أن كل ما هو لنا (كائن) في السموات، مخلصنا، وطننا، أي شيء يمكن أن يسميه الإنسان «التي منها ننتظر مخلصاً هو الرب يسوع المسيح». وهذا عمل من أعمال عطفه ومحبته نحو الإنسان. وهذه علامة على إكرام عظيم، لأنه إن كان قد جاء إلينا بينما كنا أعداء، فكم بالأولى يفعل هذا الآن عندما صرنا أحبباء. لم يعهد بهذا إلى الملائكة أو إلى خدام (له كالأنبياء مثلاً)، بل هو نفسه جاء إلينا ليدعونا إلى ملكوته. أنظر، نحن أيضاً «سُنخطف في السحب» (١ تس ٤: ١٧) لنقدم له الإكرام.

فمن سيوجد على أنه «خادم أمين وحكيم»؟ من هم الذين يُعتبرون جديرين بمثل هذه الأشياء الحسنة؟ كم تعساء الذين يخفقون! لأن لو كان لنا أن نبكي إلى الأبد، فهل نفعل أي شيء جدير بالفرصة؟ لأنه لو كان لك أن تذكر عدداً لا يُحصى من الجحيم^٣، فلن تسمي شيئاً يعادل الألم الذي تجوزه النفس عندما يكون العالم كله في اضطراب، عندما تُضرب الأبواق وتأتي الملائكة ورؤساء الملائكة ثم الشاروبيم والسيرافيم، عندما هو نفسه يأتي في مجده الذي لا يُنطق به، عندما يلاقيه من مضوا لجمع مختاريه إلى الوسط، عندما يتوج بولس وكل رفاقه ويُنادى باسمهم عالياً ويكرمهم الملك أمام كل جنده السماوي.

٣- يقصد هنا أن الكلام النظري عن وجود ولو مليون جحيم، فلن يؤثر في وجدان البعض مثل لحظة فعلية مما ذكره بعد قليل.

لأنه إن لم توجد جهنم، كم يكون مخيفاً أن جزءاً من الناس يُكرم والآخريهان! أنا أقر أن جهنم لا تُحتمل، نعم لا تُحتمل جداً، لكن الذي لا يُحتمل أكثر منها هو فقدان الملكوت. لنفترض أن أي ملك أو ابن ملك رحل، وحارب عدة حروب ناجحة وصار موضع إعجاب، فلو عاد هو وجيشه كله إلى أية مدينة في مركبته ونصب تذكارات انتصاراته، وحوله حرسه وجنوده العديدون بدروعهم الذهبية وحاملو الرماح، وبينما كانت المدينة مزينة بالأكاليل، وكل الولاة يصحبونه، ويتبعه كل جنود الأمم الأجنبية كأسري، بعد ذلك (يأتي في الركب) الولاة والحكام، وفي محضر كل الولاة وكل هذه العظمة يستقبل المواطنين الذين يلاقونه ويقبلهم ويسلم عليهم ويمنحهم حرية الدخول إليه ويتحدث معهم ويقفون حوله كأصدقاء، ويخبرهم أن كل هذه الرحلة (الحملة العسكرية) كانت من أجلهم ويقودهم إلى قصره ويعطيهم نصيباً فيه. فحتى لو أن باقي المدينة عوقبوا (لعدم ملاقة ابن الملك المنتص)، فمهما كانت العقوبة عظيمة، فلن تساوي عقوبة حرمانهم من المجد الذي حازه من خرجوا لملاقاته.

لكن لو كان في حالة البشر يكون شيئاً مريراً أن يخيب الإنسان من هذا المجد، فكم بالأولى يكون هذا مع الله عندما تكون كل القوات السماوية حاضرة مع الملك، بينما الشياطين مقيدون ومنكسون رؤوسهم لأسفل وإبليس نفسه مُقاد في سلاسل عندما يأتي الرب نفسه على السحب.

صدقني إنني أيضاً عاجز عن إنهاء كلماتي للحزن الذي حل بنفسي من هذه الرواية. انظر كم من مجد عظيم سنُحرم منه بينما في مقدورنا أن لا نُحرم منه. لأن هذه هي التعاسة في أننا سنكابد هذه الآلام، بينما

في مقدورنا أن لا نكابدها. عندما يقبل الرب يسوع جزءاً (من البشر) ويقودهم إلى أبيه السماوي ويرفض الجزء الآخر الذين سيأخذهم الملائكة ويجرونهم (جراً) رغماً عنهم وهم باكين ومنكسين رؤوسهم إلى نار جهنم، فأى حزن (يجتاح مثل هؤلاء) يمكن أن تظن هناك؟ لذلك ليتنا نسارع بينما يوجد وقت ولنهتم جداً بخلاصنا. كم من أشياء كثيرة علينا أن نقولها مثل الغني؟ لو سمح لنا أحد الآن سنأخذ مشورة بالأشياء التي هي مفيدة! لكن لا أحد يسمح لنا، وكوننا سنقول هكذا فهذا واضح، ليس من (مثل) الغني فقط، بل من آخرين كثيرين. ولكي تعلم هذا، (تذكر) كم من أناس محمومين قالوا (أثناء مرضهم الذي سببوه لأنفسهم): لو إننا عوفينا، لن نسقط أبداً مرة ثانية في نفس الحالة.

كلمات كثيرة شبيهة بهذه سنقولها آنذاك، ولكن سيُقال لنا كما قيل للغني إن هناك هوة وإننا استوفينا خيراتنا هناك (لو ١٦: ٢٦). لذلك ليتنا نتأوه، أتوسل إليكم أن نتأوه بمرارة، بل ليتنا لا نتأوه فقط، بل نجد في إثر الفضيلة أيضاً، ليتنا ننتحب الآن من أجل خلاصنا حتى لا ننتحب آنذاك باطلاً. ليتنا نبكي الآن فلا نبكي آنذاك على نصيبنا العاشر. هذا البكاء من الفضيلة وذاك ندم غير مفيد. لنحزن أنفسنا الآن حتى لا نحزن آنذاك، لأنه ليس نفس الشيء أن تحزن هنا وتحزن هناك. أنت هنا تحزن لوقت قصير أو بالأحرى أنت لا تحس بحزنك عالماً أنك حزين لخيرك. لكن الحزن هناك هو أكثر مرارة، لأنه ليس حزن على الرجاء ولا مهرب منه، بل هو حزن مستديم وبدون حدود.

لكن ليتنا كلنا نتحرر من هذا الحزن وننال المغفرة. بل ليتنا نصلي

ونجتهد حتى ننال الغفران. إنني أتوسل إليكم ليتنا نكون مجتهدين، لأنه لو اجتهدنا سنغلب أيضاً بصلاتنا، ولو صلينا بهمة سيمنحنا الله طلبنا. لكن لو لم نسأله ولم نعمل أو نجتهد، فكيف يمكننا أن ننجح أبداً؟ هل بالنوم؟ لا على الإطلاق. لأننا كما قال بولس سيمنحنا أن ننجح لو تشبهنا بموته وأيضاً بالركض والتقدم وليس بالنوم.

«لعلي أدرك»

لكن إن كان بولس قال «لعلي أدرك» فماذا سنقول نحن؟ لأنه يستحيل بالنوم أن ننجز أي عمل دنيوي، فكم الروحاني؟ لا يمكن أن ننال أي شيء من الأصدقاء ونحن نيام، فكم بالأولى من الله. ولا حتى الآباء يكرمون أولادهم النيام (الكسالى) فكم بالأولى الله؟ ليتنا نكد لوقت قصير حتى ما نستريح إلى الأبد. يلزمنا أن نغتم في كل الأحداث، فإن لم نغتم هنا، فالغم ينتظرنا هناك. لماذا لا نختار أن نغتم هنا لكي يكون لنا هناك راحة ونحصل على بركات لا يُنطق بها في المسيح يسوع الذي له مع الآب والروح القدس، المجد والقوة والإكرام، الآن وكل أوان وإلى دهر الدهور آمين.

العظة الرابعة عشر

(في ٤ : ٤-٩)

إَفْرَحُوا فِي الرَّبِّ كُلَّ حِينٍ وَأَقُولُ أَيْضاً أَفْرَحُوا. لِيَكُنْ حِلْمُكُمْ مَعْرُوفاً
عِنْدَ جَمِيعِ النَّاسِ. الرَّبُّ قَرِيبٌ. لَا تَهْتَمُّوا بِشَيْءٍ، بَلْ فِي كُلِّ شَيْءٍ بِالصَّلَاةِ
وَالدُّعَاءِ مَعَ الشُّكْرِ، لِتَعْلَمَ طَلِبَاتُكُمْ لَدَى اللَّهِ. وَسَلَامُ اللَّهِ الَّذِي يَفُوقُ كُلَّ عَقْلِ
يَحْفَظُ قُلُوبَكُمْ وَأَفْكَارَكُمْ فِي الْمَسِيحِ يَسُوعَ. (في ٤ : ٤-٧).

قال السيد المسيح «طوبى للحناني» (مت ٥ : ٤)، و «ويل للضحاكين»
(لو ٦ : ٢٥)، فكيف يقول بولس «افرحوا في الرب كل حين»؟

قال السيد المسيح «ويل للضحاكين» (قاصداً) ضحك هذا العالم الذي
ينشأ من الأمور الحاضرة. وهو طوب أيضاً الحزانى ليس لمجرد فقد
الأقارب، بل من نخستهم قلوبهم ويبكون على خطاياهم ويضعون في
حسابهم خطاياهم أو حتى خطايا آخرين. هذه الفرحة ليست مضادة
لذاك الحزن بل هذه الفرحة تتولد أيضاً من ذاك الحزن. لأن الذي يحزن
لأجل أخطائه ويعترف بها يفرح. علاوة على ذلك يمكننا أن نحزن لأجل
خطايانا ومع ذلك نفرح في المسيح. إذ آنذاك كان أهل فيلبي مغمومين
بالأمهم «لأنه قد وهب لكم لأجل المسيح لا أن تؤمنوا به فقط، بل أيضاً

أن تتألموا لأجله» (في ١ : ٢٩). لذلك هو قال «افرحوا في الرب» لأن هذا (التألم) لا يعني شيئاً (في حد ذاته)، إلا أنه لو أظهرتم مثل هذه الحياة يمكنكم أن تفرحوا. أو افرحوا عندما لا يكون شيء يعوق شركتكم مع الله.

«وأقول أيضاً افرحوا»

هذه كلمات من يعزي على مثال الذي هو في الرب يبتهج دائماً. إذ ولو أنه مغموم بل ومهما كان يعاني، فمثل هذا الإنسان دائماً مبتهج. اسمع ما يقوله لوقا «وأما هم فذهبوا فرحين من أمام المجمع لأنهم حُسبوا مستأهلين أن يُهانوا من أجل اسمه» (أع ٥ : ٤١). إن كان الجلد والحبس اللذان يبدو أنهما أكثر الأشياء المحزنة تجلب فرحاً، فأى شيء آخر يمكنه أن يسبب فينا الحزن؟

«وأقول أيضاً افرحوا»

حسناً كرر القول: إذ حيث إن طبيعة الأشياء تجلب حزناً، فإنه يُظهر بتكرار القول إنه يلزمهم أن يفرحوا بكل وسيلة.

«ليكن حلمكم معروفاً عند جميع الناس»

لقد قال سابقاً «الذين إلههم بطنهم ومجدهم في خزيهم» وقال (أيضاً) «الذين يفتكرون في الأرضيات» (في ٣ : ١٩)، وكان من المحتمل أنهم سيكونون في عداوة مع الأشرار، لذلك نصحهم ألا يكون لهم شيء مشترك معهم، وأن يستخدموا كل حلم معهم، ليس فقط لإخوتهم بل أيضاً لأعدائهم ومقاوميهم.

«الرب قريب ولا تهتموا بشيء»

إذ أخبروني، هل هم على الدوام معارضون (لنا ومتعارضون معنا)؟ وإن رأيتموهم يحيون في تنعم وبحبوحه، (تفكرون أو تستنكرون) لماذا أنتم في ضيق وغم؟ لقد اقتربت الدينونة، وبعد وقت قصير سيعطون حساباً عن أعمالهم.

هل أنتم في ضيق وهم في تنعم؟ لكن (لا تتضايقوا لأن) هذه الأمور تلقي جزءاً سرياً. هل هم يتآمرون عليكم ويهددونكم؟ «لا تهتموا بشيء» فالدينونة على الأبواب حيث تنعكس هذه الأمور. لا تهتموا بشيء، ليتركتم تظهرون عطفكم تجاه من يضمرون الشر ضدكم، إذ أن هذه الشرور لن تؤول إلى منفعتهم في النهاية. إن المكافأة الآن حاضرة لو أن الفقر أو المرض أو أي شيء آخر مرعب حلّ عليكم.

«بل في كل شيء بالصلاة والدعاء مع الشكر لتعلم طلباتكم لدى الله».

عبارة «الرب قريب» هي عبارة معزية للبعض، وأيضاً عبارة «ها أنا معكم كل الأيام إلى انقضاء الدهر» (مت ٢٨ : ٢٠)، وانظر ترمزية أخرى من طبيب يشفي الحزن والغم وكل ما هو مؤلم. وما هي هذه التعزية؟ الصلاة والشكر في كل شيء. وهكذا هو يريد أن لا تقتصر صلواتنا فقط على الطلبات، بل وأيضاً على التشكرات على ما هو لنا. لأنه كيف يمكنه أن يسأل عن الآتيات من هو غير شاكر من أجل الماضي.

«بل في كل شيء بالصلاة والدعاء»

لذلك يلزمنا أن نشكر على كل الأشياء حتى التي تبدو محزنة، لأن هذا هو دور الشاكر الحقيقي. في الحالة الأخرى (أي في الأمور الحسنة) فإن طبيعة الأشياء تتطلب ذلك (الشكر)، لكن هذا (الشكر في الظروف المعاكسة) نابع من نفس شكورة وممن هو محب شغوف. إن الله يعترف بهذه الصلوات (التي يصحبها شكر)، أما الأخرى فلا يعرفها. قدم هذه الصلوات التي يقرها الله، لأنه يوجه كل الأشياء لخيرنا ولو أننا لا نعلم هذا. وهذا دليل على أنها نافعة جداً لخير لا نعرفه (في الوقت الراهن).

«وسلام الله الذي يفوق كل عقل يحفظ قلوبكم وأفكاركم في المسيح يسوع»
(في ٤: ٧).

ماذا يعني هذا؟ إنه يعني أن «سلام الله» الذي صنعه تجاه البشر يفوق كل عقل. لأنه من كان يمكنه أن يتوقع أو يأمل أن مثل هذه الأشياء الحسنة ستحدث؟ إنها تفوق عقل الإنسان وليس كلامه فقط. فلأجل أعدائه ومن أبغضوه والذين صمموا على الابتعاد عنه، لم يرفض أن يسلم ابنه الوحيد لكي يصنع معنا سلاماً. لذلك هذا السلام، أي مصالحة وحب الله سيحفظ قلوبكم وأفكاركم.

لأن هذا هو دور المعلم، ليس فقط أن ينصح، بل أيضاً أن يصلي ويساعد بالدعاء حتى لا ينجرفوا بالتجارب ولا يُحملوا (بعيداً) بالغش. كما لو كان يقول: ليت الذي خلصكم بالطريقة التي لا يستطيع العقل أن

يدركها، هو نفسه يحميكم ويحفظكم حتى لا تعانوا أي شر.

إما أنه يقصد هذا أو أنه يقصد ذلك السلام الذي عنه قال المسيح: «سلاماً أترك لكم. سلامي أعطيكم» (يو ١٤: ٢٧)، فهذا السلام يحفظكم لأنه سلام يفوق كل عقل. كيف؟ عندما يخبرنا أن نكون في سلام مع أعدائنا ومع الذين يعاملوننا بطريقة ظالمة ومع الذين هم في حالة حرب وعداء معنا، أليس هذا أمراً يفوق فهم الإنسان؟ إن كان السلام يفوق كل عقل، فكم بالأولى الله نفسه - الذي يعطي السلام - يفوق كل عقل، ليس عقولنا فقط (نحن البشر)، بل أيضاً وعقول الملائكة والقوات العلوية.

ما معنى «في المسيح يسوع»؟

أي سيحفظنا فيه لكي نظل ثابتين ولا نسقط من الإيمان به.

«أَخِيرًا أَيُّهَا الإِخْوَةُ كُلُّ مَا هُوَ حَقٌّ، كُلُّ مَا هُوَ جَلِيلٌ، كُلُّ مَا هُوَ عَادِلٌ،
كُلُّ مَا هُوَ طَاهِرٌ، كُلُّ مَا هُوَ مُسَرٌّ، كُلُّ مَا صِيَّتُهُ حَسَنٌ إِنْ كَانَتْ فَضِيلَةٌ
وَإِنْ كَانَ مَدْحٌ، فَفِي هَذِهِ افْتَكِرُوا.» (في ٤: ٨).

ما المقصود بـ «أخيراً»؟

هو كمن يقول: «أنا قلت كل شيء». هي كلمة من هو في عجلة وليس له شيء يعمل مع الأمور الحاضرة.

«وَمَا تَعَلَّمْتُمُوهُ، وَتَسَلَّمْتُمُوهُ، وَسَمِعْتُمُوهُ، وَرَأَيْتُمُوهُ فِي» (في ٤: ٩)

ما المقصود بعبارة «كل ما هو مُسرّ»؟

أي كل ما هو محل مسرة للمؤمن ولله.

«كل ما هو حق»

الفضيلة هي بالفعل حق والرذيلة كذب. لأن الرذيلة لذتها كاذبة ومجدها كاذب (بل) وكل أمور العالم كذب.

«كل ما هو طاهر»

هذا الكلام مناقض لعبارة «الذين يتفكرون في الأرضيات».

«كل ما هو جليل»

هذه الكلمات معاكسة للكلمات «الذين إلههم بطنهم».

«كل ما هو عادل»

أي التي صيتها حسن.

«إن كانت فضيلة وإن كان مدح»

هنا يريدون أن يهتموا بتلك الأشياء التي تلقى احترام الناس أيضاً.

«ففي هذه افكروا»

انظر كيف أنه يريد أن يطرد كل خاطر شرير من نفوسنا لأن الأعمال الشريرة تنبع من الأفكار.

هذا هو التعليم الحقيقي أنه في كل نصائحه يقدم نفسه كمثال، كما قال في موضع آخر «كما نحن عندكم قدوة» (في ٣: ١٧). وهنا أيضاً «وما تعلمتموه وتسلمتموه» أي ما تعلمتموه شفاهاً، «وسمعتموه ورأيتموه في» من جهة كلماتي وأفعالي وسلوكي. انظروا كيف أنه يضع لنا وصايا عن كل شيء؟ إذ حيث إنه كان من المستحيل أن يعمل تعداداً دقيقاً لكل الأشياء من جهة دخولنا وخروجنا وكلامنا وتصرفنا ومعاملتنا (لأنه ينبغي أن ينتبه لكل هذه الأشياء)، فقال باختصار وكما لو كان يقدم ملخصاً «وسمعتموه ورأيتموه في» فأنا قد قدتكم بالأفعال والأقوال.

«فهذه افعلوا وإله السلام يكون معكم» (تابع ٤: ٩).

أي افعلوها ليس بالكلام بل بالعمل أيضاً، وستكونون في هدوء وأمن عظيم، ولن تعانوا أي شيء مؤلم ولا معارض لإرادتكم. لأنه عندما نكون في سلام معه، ونحن نكون هكذا عن طريق الفضيلة، فكم بالأولى سيكون هو في سلام معنا. لأن الذي أحبنا هكذا، حتى إنه أظهر نعمته لنا ولو رغماً عنا، لو يرانا مسرعين نحوه، أفلا يسارع هو بالأولى ليظهر حبه لنا؟

لا شيء معادي هكذا لطبيعتنا مثل الرذيلة. وواضح من أشياء كثيرة كيف أن الرذيلة معادية لنا والفضيلة رقيقة نحونا. ماذا تريدني أن أتكلم؟ هل أتكلم عن الزنا؟ إنه يجعل الناس يتعرضون للملامة والفقر ويكونون هدفاً للسخرية ومُزدرين من الجميع ويعاملونهم كأعداء. مراراً

كثيرة يورط الناس في المرض والأخطار، وكثيرون هلكوا وجُرحوا من أجل عشيقاتهم. لكن هل الصدقة تصنع هذا؟ لا على الإطلاق.

أم عن ماذا تريدني أن أتكلم؟ هل عن الطمع؟ الطمع نفسه هو أيضاً يعاملنا كعدو وكيف؟ إنه يجعلنا مكروهين من الكل. إنه يُعد ويؤهل كل الناس لأن يتبجحوا ضدنا، سواء الذين عاملناهم بظلم أو الذين لم نعاملهم ويشاركون المظلوم في حزنه، وأيضاً خوفاً على أنفسهم منا. والناس كلهم ينظرون إلينا كأننا أعداؤهم الألداء وكأننا وحوش مفترسة وشياطين. في كل موضع توجد اتهامات لا تُعد ضدنا ومؤامرات علينا وهي كلها تصرفات أعداء. لكن العدل على العكس يجعل كل الناس أصدقاء، كل الناس مسالمين، كل الناس توجهاتهم حسنة من نحونا، وكل الناس ترفع صلوات من أجلنا، وكل مصلحنا في أمن تام ولا يوجد خطر ولا توجد شكوك، بل النوم يأتينا أيضاً بجسارة (بدالة) وأمن عظيم ولا يوجد قلق أو بكاء.

كم هو أفضل هذا النمط من الحياة!

وماذا؟ أيهما أفضل أن نحسد أم أن نفرح لبعضنا البعض؟

ليتنا نفحص كل هذه الأشياء وسنجد أن الفضيلة هي مثل أم عطوف بالحق، تضعنا في آمان، بينما الرذيلة هي خائنة ومملوءة بالخطر. لذا اسمع النبي الذي يقول «الرب عز لخائفيه ولهم يعلن عهده» (مز ٢٥: ١٤).

لا يخاف أحد ممن لا يشعر أن في نفسه أي شر. وعلى العكس الذي يحيا في الجريمة لا يطمئن أبداً بل يرتعب من خدمه وينظر إليهم بريبة. ولماذا نقول خدمه، فإنه لا يمكن أن يحتمل محكمة ضميره. وليس فقط (يخاف من) الذين هم من خارج، بل أفكاره الداخلية تؤثر فيه بالمثل ولا تتيح له أن يكون في هدوء.

فماذا يقول بولس؟ هل ينبغي لنا أن نحيا معتمدين على المدح؟ إنه لم يقل: تطلعوا (اسعوا وراء) المديح؟ بل قالوا أعمالاً جديرة بالمديح، لكن لا تسعوا إلى المديح.

«كل ما هو حق»

لأن الأشياء التي تحدث عنها هي كذب.

«كل ما هو جليل»

ما هو جليل يتعلق بالفضيلة الخارجية، وما هو طاهر يتعلق بالنفس.

يقول الرسول: لا تعطوا سبباً للعثرة ولا دافع للملامة.

لأنه قال «كل ما صيته حسن» فلئلا تظنوا أنه يقصد فقط تلك الأشياء التي هي هكذا في نظر الناس، بادر إلى القول «إن كانت فضيلة وإن كان مدح ففي هذه افكروا» - أي افعولوا هذه الأشياء. إنه يريدنا أن نكون دوماً في هذه الأشياء (متأملين)، وأن نهتم بهذه الأشياء ونتفكر بها. لأنه لو أننا سنكون في سلام مع بعضنا البعض، سيكون الله أيضاً في سلام

معنا، لكن لو قمنا بالحرب (فيما بيننا ومع من حولنا) فإنه السلام لن يكون معنا. لأن لا شيء معادي هكذا للنفس كالرذيلة. أي أن السلام والفضيلة يضعاننا في أمان. لذلك يلزم من جانبنا أن نضع المبادرة وبعد ذلك سنجتذب الله نحونا.

إن الله ليس إله حرب وقتال. فاجعل الحرب والقتال الذي ضد الله وقريبك يتوقفان. كن في سلام مع كل الناس وانظر بأية طريقة يخلصك الله. «طوبى لصانعي السلام لأنهم أبناء الله يُدعون» (مت ٥: ٩).

هكذا يكون دائماً الإقتداء بالله فاقتدوا به أنتم أيضاً. كونوا في سلام. كلما شن عليك أخوك الحرب بالأكثر، كلما تصير مكافأتك أعظم (لو صبرت وصمت وسعيت للسلام معه)، إذ أسمع النبي الذي يقول «مع مبغضي السلام كنت صانع سلام» (مز ١٢٠: ٧).

هذه هي الفضيلة، هذا شيء يفوق فهم الإنسان، هذا يجعلنا قريبين من الله، لا شيء يجعلنا هكذا سبب مسرة لله مثل أن لا نتذكر أي شيء (من الشر). هذا يحرك من خطاياك، هذا يعتقك من التهم القائمة ضدك. لكن لو حاربنا وتصادمنا، سنصير بعيدين عن الله، لأن العداوات تنشأ من الصدام، ومن العداوة تذكر الشر.

اقطع الجذر فلا يكون هناك ثمر. هكذا سنتعلم أن نحترق أمور هذه الحياة، لأنه لا يوجد صراع (خصام) في الأمور الروحية، بل كل ما تراه من صراعات أو غيرة أو أي شيء يمكن للإنسان أن يذكره هو نابع من أمور هذه الحياة. إن كل صراع يأخذ بدايته إما من طمع أو غيرة أو مجد

باطل. لذلك لو كنا في سلام سنتعلم أن نزدري بأمور الأرض. هل سرق إنسان نقودنا؟ هل أساء إلينا؟ فقط دعه لا يسرق كنزنا الذي هو فوق (كائن). هل هو أعاق مجدك (الأرضي)؟ لكنه لم يعق مجدك الذي من الله، بل أعاق ذلك المجد الذي لا اعتبار له. لأن هذا ليس مجداً بل هو مجرد اسم للمجد أو بالأحرى هو خزي. هل سرق كرامتك؟ بالأحرى هو لم يسرق كرامتك بل كرامته. لأنه كما أن الذي يظلم لا يؤذي (المظلوم) بقدر ما يصيبه الأذى (الروحي هو شخصياً)، هكذا أيضاً من يتآمر ضد قريبه، يدمر نفسه أولاً.

لأن «من يحفر حفرةً لقريبه يسقط فيها» (أم ٢٦: ٢٧). لذلك ليتنا لا نتآمر ضد آخرين لئلا نؤذي أنفسنا. ليتنا نعتبر أننا نؤذي أنفسنا وأننا نتآمر ضد أنفسنا عندما نسئ إلى سمعة الآخرين. لأنه ربما نحن نؤذي من نظن (أنه في مقدورنا) أن نؤذيه، لكننا نؤذي أنفسنا في نظر الله باستثارتته ضدنا. لذلك ليتنا لا نؤذي أنفسنا. لذلك كما أننا نؤذي أنفسنا عندما نسئ إلى قريبنا، كذلك أيضاً نحن نستفيد بإفادته. لذا فإن ضربك عدوك، فإنه يكون قد أفادك لو كنت حكيماً، لذلك لا ترد له نفس الإساءة بل أيضاً اصنع له خيراً. إذاً اعتبر أنك لم تستفد (بكونه ضربك ولم ترد ضربته)، بل عاقبته (بكونك تسببت في أذيته الروحية دون قصد منك، وبذلك) انفع نفسك، وسريعاً ستأتي إلى عمل الخير له. فماذا؟ هل نتصرف من هذا الدافع (غير الروحي)؟ ليس لنا أن نتصرف من هذا الدافع، لكن

١- من غير الواضح بالتحديد ما هو الذي أخذوه سراً وقد يكون المقصود به العطايا التي نالوها من المؤمنين، والتي رفض بولس الرسول أخذها رغم أحقيته...٠٠٠

لو أن قلبك لم يحتمل دافعاً آخر، يقول بولس الرسول (في روم ١٢: ٢٠) استحثة ولو بهذا الدافع وستقتنع بسرعة إلى صرف هذه العداوة وستصنع الخير لعدوك في المستقبل كما لصديق وستحصل على الخيرات الآتية التي يعطينا الله أن ندركها كلنا في المسيح يسوع آمين.

العظة الخامسة عشر

(فيلبي ٤: ١٠-١٤)

ثُمَّ إِنِّي فَرَحْتُ بِالرَّبِّ جَدًّا لِأَنَّكُمْ الْآنَ قَدْ أَزْهَرْتُمْ أَيْضًا مَرَّةً اعْتِنَاؤُكُمْ بِي
الَّذِي كُنْتُمْ تَعْتَنُونَهُ وَلَكِنْ لَمْ تَكُنْ لَكُمْ فُرْصَةٌ. لَيْسَ أَنِّي أَقُولُ مِنْ جِهَةِ
اِحْتِيَاجٍ، فَإِنِّي قَدْ تَعَلَّمْتُ أَنْ أَكُونَ مُكْتَفِيًّا بِمَا أَنَا فِيهِ. أَعْرِفُ أَنْ أَتَضَعُ
وَأَعْرِفُ أَيْضًا أَنْ أَسْتَفْضِلَ. فِي كُلِّ شَيْءٍ وَفِي جَمِيعِ الْأَشْيَاءِ قَدْ تَدَرَّبْتُ أَنْ
أَشْبِعَ وَأَنْ أَجُوعَ، وَأَنْ أَسْتَفْضِلَ وَأَنْ أَنْقُصَ. أَسْتَطِيعُ كُلَّ شَيْءٍ فِي الْمَسِيحِ الَّذِي
يُقَوِّينِي. غَيْرَ أَنَّكُمْ فَعَلْتُمْ حَسَنًا إِذِ اشْتَرَكْتُمْ فِي ضَيْقِي. (فيلبي ٤: ١٠-١٤).

لقد قلت مرارا كثيرة إن الصدقة قد تم التوصية بها، ليس من أجل
م تلقيها، بل من أجل من يعطونها، لأن من يعطيها يجني أعظم منفعة.
وهذا يظهره بولس هنا أيضا. بأية طريقة؟

إن أهل فيلبي أرسلوا إليه معونة، وبعد فترة صنعوا نفس الشيء على
يد أبفروتس. فانظر كيف أنه عندما كان على وشك أن يرسل إليهم
أبفروتس كحامل لهذه الرسالة، فإنه يمتدحهم ويظهر أن هذا العمل
كان يحتاج إليه ليس الآخذ بل المعطي. وهو يفعل هذا لكي لا يشعر
الذين أحسنوا إليه بالكبرياء ولكي يكونوا غيورين أكثر في عمل الخير

إذ أنهم بالأحرى ينفعون أنفسهم، ولكي لا يندفع الذين يتلقون المعونة بجسارة إلى الأخذ بدل العطاء لئلا يلاقوا دينونة. لأنه يقول «مغبوط هو العطاء أكثر من الأخذ» (أع ٢٠: ٣٥).

(ولكن هنا نتطرق لسأل) فلماذا يقول هو «إنني فرحت بالرب جداً»؟ إنه لا يتكلم عن فرح دنيوي ولا عن فرح هذه الحياة، بل هو يفرح في الرب. (وكانه يقول): «إنني أفرح ليس لأنني نلت انتعاشاً، بل لأنكم تقدمتم (روحياً)، لأن هذا هو انتعاشي (الحقيقيي).

لذلك هو أيضاً يقول «فرحت جداً» إذ أن هذه الفرحة لم تكن مادية ولا هي من أجل انتعاشه هو بل بسبب تقدمهم.

وانظر كيف أنه عندما وبخهم بلطف من أجل الأوقات التي مضت (دون أن يستفيدوا من بركة العطاء)، فإنه بسرعة تجاوز هذا وعلمهم أن يبقوا دائماً وأبداً في عمل الخير.

يقول الرسول «لأنكم الآن» وكلمة الآن تُظهر أن وقتاً طويلاً (نسبياً) قد انقضى.

«قد أزهراً»

أي أزهراً كثمار بزغت وجفت وبعد ذلك بزغت (ثانية). هنا يُظهر أنهم أزهروا أولاً وبعد ذلك ذبلوا ثم نماوا من جديد. لذلك فإن عبارة «أزهراً أيضاً» هي توبيخ ومدح لهم بأن واحد. لأنه ليس شيء هين أن من قد جف يُزهر ثانية.

ويُظهر أيضاً أن كل هذا حدث لهم لتوانيتهم. لكنه يشير هنا إلى أنهم حتى في الوقت السابق كانوا معتادين أن يكونوا غيورين في هذه الأمور. لذلك أضاف قوله «اعتناؤكم بي الذي كنتم تعتنونه» ولثلاً تظنوا أنهم كانوا أكثر غيرية في أمور أخرى وبعد ذلك ذبلوا، بل في هذا الشيء فقط، فانظر كيف أنه قد أضاف «اعتناؤكم بي» وأنا أطبق كلمة «الآن» على هذا الأمر، لأنه في أمور أخرى لم يكن الأمر هكذا.

ربما من يستفهم هنا كيف عندما قال «مغبوط هو العطاء أكثر من الأخذ» (أع ٢٥: ٣٢) وأيضاً «حاجاتي وحاجات الذين معي خدمتها هاتان اليدان» (أع ٢٠: ٣٤)، وأيضاً عندما كتب إلى أهل كورنثوس قال «لأنه خير لي أن أموت من أن يعطل أحد فخري» (١كو ٩: ١٥)، هل سمح هنا أن يتعطل فخره؟ وكيف؟ بالأخذ. فإن كان مجده في عدم الأخذ، فكيف يحتمل الآن أن يتصرف هكذا؟ كيف يكون هذا؟ ربما لم يأخذ آنذاك بسبب الرسل الكذبة إذ قال «كي يوجدوا كما نحن أيضاً في ما يفتخرون به» (١كو ١١: ١٢). وهو لم يقل «في ما هو كائن» بل قال «في ما يفتخرون به» لأنهم لم ينالوا إلا سراً. لذلك قال «في ما يفتخرون به». وكذلك قال أيضاً «لن يوقف أحد افتخاري هذا» (١كو ١١: ١٠ بحسب النص). وهو لم يقل إن أحداً لن يوقفني وحسب، بل قال ماذا؟ (قال إن فخره لن يتعطل في كورنثوس وحدها، بل) «في أقاليم أخائية» (تابع ١كو ١١: ١٠)، وقال أيضاً «سلبت كنائس أخرى آخذاً أجراً لأجل خدمتكم» (١كو ١١: ٨)، وهو أظهر هنا أنه لم يأخذ (منهم شيئاً). لكن

١- من غير الواضح بالتحديد ما هو الذي أخذه سراً وقد يكون المقصود به العطايا التي نالوها من المؤمنين، والتي رفض بولس الرسول أخذها رغم أحقيته...٠٠٠

بولس إن كان بالحق قد أخذ فهو أخذ منهم عن صواب، لأن لديه عملاً عظيماً (ينبغي أن يتفرغ له). لكن الذين لا يعملون (مثله) كيف يمكنهم أن يأخذوا؟

وقد يقول قائل (من الرسل الكذبة): لكن من فضلك، لا يوجد عمل (يلائم عملي الكرازي).

(يرد ذهبي الفم قائلاً: لا) لأن هذا (العمل الكرازي) يمكن أن يُنجز مع العمل.

(يقول أحد الرسل الكذبة) «لكن أنا أصوم».

(يرد ذهبي الفم): ولا أيضاً هذا العمل (الروحي يمنع عن عمل اليبدين).

لذا انظر هذا الطوباوي وهو يركز في أماكن كثيرة ويعمل أيضاً.

«ولكن لم تكن لكم فرصة»

ما المقصود «لم تكن لكم فرصة»؟ بهذا يقول: لم يحدث هذا عن تكاسل بل عن ضرورة^٢. لم يكن في مقدوركم ولا كنتم أغنياء. هذا هو معنى «لم تكن لكم فرصة». هكذا يتكلم معظم الناس عندما لا تتوفر لديهم أمور الحياة بغنى ويوجد نقص في مواردهم.

«ليس أني أقول من جهة احتياج» (في ٤: ١١)

٢- هنا ذهبي الفم فهم أن بولس الرسول يلتمس العذر لهم جزئياً.

يقول الرسول: أنا قلت هذا أخيراً ووبختكم ليس عن سعي مني لما ينفعني ولا انتهرتكم لهذا السبب كأنني في احتياج، لأنني لم أطلبه لهذا السبب. من أين هذا يا بولس إنك لا تتفخر باطلاً؟ فلاهل كورنثوس يقول «إننا لا نكتب إليكم بشيء آخر سوى ما تقرأون أو تعرفون» (٢كو: ١٣). وفي هذه الحالة ما كان سيكلمهم لكي يلاموا، ولو كان يفتخر ما كان قد تكلم هكذا. إنه كان يكلم من يعرفون الحقائق (عنه) والتي سيكون اكتشاف أنها غير صحيحة أعظم خزي.

«فإني قد تعلمت أن أكون مكتفياً بما أنا فيه»

إن هذا هدف للتلمذة والتدريب والانتباه، لأنه ليس شيئاً سهلاً بل هو شيء جديد وفي غاية الصعوبة.

«قد تعلمت أن أكون مكتفياً بما أنا فيه. أعرف أن أتضع وأعرف أيضاً أن أستفضل. في كل شيء وفي جميع الأشياء قد تدربت - أي أعرف كيف استخدم القليل وأن احتمل الجوع والعوز - أن أشبع وأن أجوع وأن أستفضل وأن أنقص» (في: ٤، ١١، ١٢).

ربما من يقول: لكن لا يوجد هناك احتياج للحكمة أو الفضيلة لكي يستفضل الإنسان. يوجد احتياج للفضيلة لا يقل عن الاحتياج في الحالة الأخرى. لأنه كما أن العوز يجعلنا نميل لعمل شرور كثيرة، كذلك أيضاً الوفرة. لأن كثيرين مراراً إذ قد حصلوا على الوفرة صاروا متهاونين ولم يعرفوا كيف يحتملون حظهم السعيد. كثير من الناس اتخذوها فرصة لعدم العمل بعد ذلك. لكن بولس لم يتصرف هكذا، لأن ما ناله أنفقه

على آخرين وأفرغ نفسه لأجلهم. هذه هي المعرفة (التعلم الذي قصده في ع ١١). إنه لم يتراخ أبداً ولا تعاضم بما عنده من فيض، بل كما هو في عوزه وفي فيضه، فهو من ناحية لم يتضايق ولم يصير متباهياً من ناحية أخرى.

«قد تدربت أن أشبع وأن أجوع وأن أستفضل وأن أنقص»

كثيرون لم يعرفوا كيف يشبعون (حسناً) كما الإسرائيليين مثلاً «سمنوا ورفسوا» (تث ٣٢: ١٥)، لكن أنا متدرب حسناً على السواء في كل شيء.

يبين الرسول (هنا) أنه لم يرتفع الآن ولم يكن من قبل حزيناً، ولو كان حزيناً فهذا كان من أجلهم وليس من أجل نفسه إذ الأمر سيان لديه. فهو يقول «في جميع الأشياء قد تدربت» أي أنني اختبرت كل هذه الأشياء في هذا الوقت الطويل، وكل هذه الأشياء أفلحت معي. لكن حتى لا يبدو هنا أي افتخار انظر كيف أنه أوقف هذا وقال «أستطيع كل شيء في المسيح الذي يقويني» أي أن النجاح ليس لي بل للذي أعطاني القوة. لكن حيث إن الذين يمنحون الإحسانات، عندما يرون الآخذ لا يتودد اليهم، بل يحتقر العطايا، فهم أنفسهم يصيرون مُحبطين (لأنهم اعتبروا أنفسهم كمن أعطوا مساعدة ومعونة وتم احتقارها)، فلو احتقر بولس المعونة، لكان ينبغي لهم بالضرورة أن يصيروا متوانين (عن مواصلة العطاء)، ولكي لا يحدث هذا انظر كيف يشفيهم بولس ثانية. بما سبق أن قاله من قبل فقد خفض أفكارهم المتكبرة، وبما تبعه جعلهم

ينتعشون سريعاً بقوله «غير أنكم فعلتم حسناً إذ اشركتم في ضيقتي»
(في ٤: ١٤).

انظر كيف أبعد نفسه، ثم وحد نفسه بهم ثانية. هذا هو دور الصداقة
الروحية الحقيقية.

يقول الرسول: لا تظنوا لأنني لست في عوز أنني لست في احتياج لهذا
العمل منكم. إنني احتجت إليه من أجلكم.

كيف شاركوه في ضيقاته؟ بهذه الوسيلة كما قال وهو في وثقه «أنتم
جميعكم شركائي في النعمة» (في ١: ٧). لأنها نعمة أن نتألم لأجل
المسيح، كما يقول هو نفسه في موضع آخر «لأنه قد وهب لكم لأجل
المسيح لا أن تؤمنوا به فقط بل أيضاً أن تتألموا لأجله» (في ١: ٢٩). ولأن
تلك الكلمات في حد ذاتها قد تجعلهم غير مباليين، فلأجل هذا السبب
هو يعزيهم ويقبلهم ويمتدحهم ثانية. وهذا (المدح) في كلمات متزنة
(مُحكمة). لأنه لم يقل «أعطيتكم» بل قال «اشركتم» ليبين أنهم هم أيضاً
كانوا مستفيدين بكونهم مشاركين لأتعبه. لم يقل الرسول: إنكم خففتكم،
بل قال إنكم شاركتكم في ضيقتي، والذي هو أمر أكثر رفعة.

هل ترون تواضع بولس؟ هل ترون طبيعته النبيلة؟ عندما أظهر أنه لم
يكن بحاجة إلى عطاياهم من أجل نفسه، استخدم بعد ذلك بطلاقة مثل
هذه الكلمات المتضعة كالتالي يستخدمها من يسألون (فيقولون) «إذ أنكم
اعتدتم على العطاء». لأنه لا يرفض أن يعمل أو أن يقول أي شيء (يقبل
من قيمة عطائهم أو يحبطهم بأن يرفض الأخذ). أي (بتعبير آخر) لا

تظنوا أن كلماتي تظهر عوز الخزي الذي به ألوكمم وأقول «الآن أخيراً انتعشت» أو هي كلمات من هو في احتياج (فعلي)، أنا لم أتكلم هكذا لأنني في احتياج.

لكن لماذا تكلمت هكذا؟ إنني تكلمت هكذا من فرط ثقتي فيكم، وأيضاً السبب في هذا هو أنتم أنفسكم.

هل ترون كيف يلاطفهم؟ كيف (يقول لهم) إنكم مبتكرون لهذا العمل بكونكم أسرعتم للعمل قبل كل الآخرين وأعطيتهموني الثقة أن أذكركم بهذه الأشياء.

ولاحظوا سموه، فهو لم يلهمهم عندما لم يرسلوا، لئلا يبدو أنه ينظر لمنفعته، بل عندما أرسلوا آنذاك عاتبهم عن الوقت الماضي (الذي توقفوا فيه عن العطاء)، وهم قبلوا العتاب بمحبة لأنه لا يمكن أن يبدو بعد ذلك أنه ينظر لمنفعته الشخصية.

«وأنتم أيضاً تعلمون أيها الفيلبيون أنه في بداية الإنجيل لما خرجت من مكدونية لم تشاركني كنيسة واحدة في حساب العطاء والأخذ إلا أنتم وحدكم» (في ٤: ١٥).

انظروا كم هو عظيم مدحه! لأن أهل كورنثوس وأهل روما أستثيروا بسماعهم هذه الأشياء منه، بينما أهل فيلبي فعلوا هذا من البداية دون أن تسبقهم أية كنيسة أخرى. لأنه يقول إنهم «في بداية الإنجيل» أظهروا مثل هذه الغيرة من جهة الرسول الطاهر بكونهم أول من بدأوا في حمل

هذا الثمر دون أن يكون أمامهم مثل (يحتذون به). ولا يمكن لأحد القول إنهم فعلوا هذه الأشياء لأنه أقام معهم، أو لأجل منفعتهم^٣، لأنه يقول «لما خرجت من مكدونية لم تشاركني كنيسة واحدة في حساب العطاء والآخذ إلا أنتم وحدكم».

ما المقصود بـ «الآخذ» و«تشاركني»؟ لماذا لم يقل «لم تعطني كنيسة واحدة» بل قال «لم تشاركني كنيسة واحدة في حساب العطاء والآخذ»؟

لأنها مسألة تبادل للمنفعة.

يقول الرسول (لأهل كورنثوس): «إن كنا نحن قد زرنا لكم الروحيات، أعظيم إن حصدنا منكم الجسديات» (١كو١١: ١١)، وأيضاً قال «لكي تكون فضالتكم لأعوازم» (١كو٨: ١٤).

كيف تبادلوا المنفعة؟ في حساب إعطاء الجسديات ونوال الروحيات. لأنه كما أن الذين يبيعون ويشترون يتعاملون مع بعضهم البعض بتبادل إعطاء مما لديهم (وهذه هي المعاملة التبادلية)، هكذا أيضاً يكون (الأمس) هنا. لأنه لا يوجد شيء أكثر نفعاً من هذه التجارة. إنه يتم ممارستها على الأرض وتكتمل في السماوات. الذين يشترون على الأرض، لكنهم يشترون وينفقون على السماويات، بينما يقدمون ثمناً أرضياً.

لكن لا تياس (أيها الفقير)، فالسماويات لا تُشترى بالمال، لا يمكن

٣- لست أفهم ما المقصود مما تحته خط، ولكن قد يكون المعنى المقصود أن العطاء لم يكن الانتفاع به قاصراً على من هم داخل المدينة، فهذا ما ينفيه في العبارة التالية.

للثروة أن تشتري هذه الأشياء، بل غرض (وقصد) من يعطي المال وحكمته الحقيقية وسموه على الأرضيات ومحبته من جهة الإنسان ورحمته (هي الأمور التي تشتري السماويات وهي في متناول الجميع). لكن إذ لم يكن المال بل القصد هو الرابح فهي تقبل كل شيء يُظهره من كان عزمه الذهني تاماً. لذلك ربما من يسأل: ألا يوجد احتياج للمال؟

لا يوجد احتياج للمال بل للدافع. لو كان لديك الدافع، يمكنك أن تبتاع السماء (والسماويات) حتى بفلسين. لماذا؟ لأنه إن كنت يا من لك الكثير لم تُعطِ إلا القليل، فحَقاً قد أعطيت صدقة، لكنك لم تعط أكثر من الأرملة (التي أعطت كل ما عندها وكان فلسين)، لأنك لم تعط بنفس استعدادها. لأنها حرمت نفسها من كل ما هو لها أو بالأحرى لم تحرم نفسها بل أعطت الكل كهبة مجانية من نفسها.

إن الله لم يعد بالملكوت من أجل كأس ماء بارد، بل لأجل استعداد القلب، ليس من أجل الموت (في حد ذاته)، بل لأجل قصد الذهن، لأن كأس ماء بارد ليس هو في الواقع شيء عظيم.

«فإنكم في تسالونيكي أيضاً أرسلتم إليّ مرة ومرتين لحاجتي» (في ٤: ١٦).

وهنا أيضاً مدح عظيم لهم في أنه عندما كان يقيم في العاصمة (تسالونيكي) كان يقات من مدينة صغيرة. ولئلا بانسحابه الدائم من افتراض العوز كما قلت من قبل، يجعلهم مستاءين، إذ قد بين من قبل بأدلة كثيرة أنه لم يكن في عوز، هنا يفعل هذا بكلمة واحدة فقط بقوله «لحاجتي» ٠٠

«ليس إنني أطلب العطيّة» (في ٤: ١٧).

كما قال سابقاً: «ليس إنني أقول من جهة احتياج» (في ٤: ١١). فتلك العبارة هي أقوى من هذه. لأن من هو في احتياج ولا يطلب شيئاً فهذا شيء، ومن هو في احتياج ولا يعتبر نفسه في احتياج شيء آخر.

«ليس إنني أطلب العطيّة بل أطلب الثمر المتكاثر لحسابكم» (في ٤: ١٧)، وليس لحسابي.

هل ترون أن الثمر مُنتج لحسابهم؟

يقول الرسول: هذا أقوله لأجلكم وليس لأجلي، بل أقوله لأجل خلاصكم. لأنني لا أريح شيئاً عندما آخذ بل النعمة تتعلق بالمعطين، لأن المكافأة محفوظة هناك للمعطين، لكن العطايا تُستنفذ هنا بواسطة الذين يأخذون.

وأيضاً فإن رغبته ممتزجة بالمدح والتعاطف. عندما قال لست أطلب، فلئلا يجعلهم من جديد متوانين (عن مواصلة العطاء) أضاف قوله: «ولكنني قد استوفيت كل شيء واستفضلت» (في ٤: ١٨).

أي أنكم ملاًتموني من خلال هذه العطيّة بما كنت أحتاجه، الأمر الذي يجعلهم غيورين أكثر بالنسبة للمحسنين، كلما كانوا أكثر حكمة، كلما طلبوا بالأكثر العرفان بالجميل من المحسن إليهم. أي أنتم ليس فقط وفيتم ما كان ناقصاً في الوقت السابق بل ذهبتم أبعد من هذا. لأنه لئلا يبدو بهذه الكلمات أنه يلومهم، انظر كيف يختم seal up على

الكل. فبعد أن قال «ليس إنني أطلب العطية» وقوله «الآن» (في ٤: ١٠)، وأظهر أن عملهم كان دينياً، لأن هذا هو المقصود بعبارة «استوفيت كل شيء». بعد ذلك يُظهر ثانياً أنهم تصرفوا فوق ما كان مفروضاً وقال «قد استوفيت كل شيء واستفضلت. قد امتلأت»، لست أقول هذا جزافاً أو لمجرد شعور نابع من ذهني، لكن لماذا أقول هذا؟

«إذ قبلت من أبفرودتس الأشياء التي من عندكم نسيم رائحة طيبة ذبيحة مقبولة مرضية عند الله» (تابع في ٤: ١٨).

انظر إلى أين رفع عطيتهم، فيقول: لست أنا الذي نلتها بل الله نالها من خلالي. (وكان الله يقول) لذلك ولو أنني في غير احتياج، لم أرفضها (حرفياً لم أنظر إليها). لأن الله غير محتاج (لشيء من أحد). وهو تقبلها منهم بهذه الكيفية حتى إن الكتاب المقدس لم يتورع عن القول «تنسم الرب رائحة الرضا» (تك ٨: ٢١)، وهي عبارة تدل على أنه كان مسروراً (بها). لأنكم تعلمون كيف أن نفوسنا تتأثر بالروائح الطيبة، وكيف أنها تُسرّ وتفرح بها. لذلك لم يتورع الكتاب المقدس عن أن يطبق على الله كلمات هكذا بشرية وبهذه الوضاعة (إذ لا تناسبه) لكي يبين للناس أن عطاياهم صارت مقبولة لديه. لأن ليس الشحم ولا الدخان هو الذي يجعلها مقبولة بل قصد ذهن (واستعداد القلب) الذي يقدمها. لو كان العكس، لكانت قد قُبلت تقدمة قايين أيضاً. لذلك قيل إنه أيضاً (هنا) قد انشرح وكيف أنه صار مسروراً. لأنه لا يمكن للبشر بدون هذا أن يعلموا إن كانت قد قُبلت أو لم تُقبل. إذ أن ذاك الذي هو بدون احتياج قيل إنه هكذا صار مسروراً لكي لا يصيروا مُحِبِّين لغياب

وبعد ذلك عندما لم يعد لهم (أي لبني إسرائيل) اهتمام بالفضائل الأخرى واتكلموا على تقدماتهم فقط، أنظر كيف يعيدهم مرة ثانية إلى جادة الصواب بقوله «هل آكل لحم الثيران أو أشرب دم التيوس؟» (مز ٥٠: ١٣). وهذا ما قاله بولس أيضاً «ليس إنني أطلب العطية».

«فيملاً إلهي كل احتياجكم بحسب غناه في المجد في المسيح يسوع» (في ٤: ١٩).

انظر كيف يدعو لهم بالبركات كما يفعل الفقراء. لكن إن كان بولس نفسه يبارك من يعطون، فكم بالأولى لا ينبغي لنا أن نخزي من فعل هذا عندما ننال (شيئاً من أحد). ليتنا لا نأخذ كأننا نحن أنفسنا احتجنا، ليتنا لا نبتهج لأجل أنفسنا بل من أجل المعطين. وهكذا نحن أيضاً الآخذين ستكون لنا مكافأة، لو إننا ابتهجنا لأجلهم. وهكذا لن نتذمر عندما لا يعطي الناس، بل بالأحرى نحزن لأجلهم. وهكذا سنجعلهم أكثر حماساً (للعطاء) لو علمناهم أنه ليس لأجل ذواتنا نحن نتصرف هكذا، بل لكي يملأ «إلهي» كل احتياجكم ويملاًكم بكل نعمة وكل فرح.

وكما قال «لم تكن لكم فرصة» هنا يضع إضافة كما فعل في الرسالة إلى أهل كورنثوس بقوله «والذي يقدم بذارا للزارع وخبزاً للأكل سيقدم ويكثر بذاركم وينمي غلات برّكم» (١كو ٩: ١٠). إنه يدعو لهم بالبركات حتى يمتلأوا ويكون لهم ما يزرعونه، ويباركهم أيضاً ليس فقط لكي

يتمثلأوا، بل (أيضاً) يتمثلأوا «بحسب غناه». حتى إن هذا أيضاً قد عمل بتعبيرات مُحكمة (متزنة). لأنه لو كانوا - كما كان هو- هكذا بالحق حكماء وهكذا مصلوبين (للعالم) لما كان بولس فعل هذا، لكن لأنهم كانوا عمالاً وفقراء ولهم زوجات ويربون أولاداً ويدبرون أسرهم ولهم بعض الرغبات في أمور هذا العالم، لذلك هو باركهم بطريقة تناسبهم. لأنه يليق أن تدعو بالماء والفيض لمن يستخدمون مواردهم هكذا.

انظر أيضاً ما قاله، فهو لم يقل «ليته يجعلكم أغنياء وتفيضون جداً»، بل ماذا قال؟ «ليملأ إلهي كل احتياجكم» حتى لا تكونوا في عوز، وتكون لكم الأشياء الضرورية. لأن المسيح أيضاً عندما أعطانا صيغة للصلاة، وضع أيضاً هذا الأمر في الصلاة عندما علمنا أن نقول «خبزنا كفافنا، أعطنا اليوم» (مت ٦: ١١).

«بحسب غناه»

أي بحسب عطيته المجانية، فهذا شيء سهل وممكن وسريع بالنسبة له. وحيث إنني تحدثت عن الاحتياج، فلا تظنوا أنه سيدفعكم إلى الضيقات (والعسر). لذلك أضاف قوله «بحسب غناه في المجد في المسيح يسوع» لذلك فكل الأشياء ستفيض لكم حتى إنها تكون لكم لمجده، أو أنتم لا تكونون في عوز لشيء (لأنه مكتوب «ونعمة عظيمة كانت على جميعهم. إذ لم يكن فيهم أحد محتاجاً» أع ٤: ٣٣، ٣٤) أو لكي تعملوا كل الأشياء لمجده، كما لو كان قال حتى تستخدموا فيضكم لمجده.

«ولله وأبينا المجد إلى دهر الدهرين آمين» (في ٤ : ٢٠).

لأن المجد الذي يتكلم عنه لا يخص الابن فقط بل هو للآب أيضاً، لأنه عندما يتمجد الابن، يتمجد الآب أيضاً. لأنه عندما قال إن هذا يُعمل لمجد المسيح، فثلاً يفترض أحد أن هذا لمجده فقط، لذلك أكمل قوله «ولله وأبينا المجد» الذي هو نفس المجد الذي دُفع للابن.

«سَلِّمُوا عَلَى كُلِّ قَدِيسٍ فِي الْمَسِيحِ يَسُوعَ» (في ٤ : ٢١)

هذا أيضاً ليس أمراً زهيداً، لأنه دليل على ود عظيم أن يسلم عليهم من خلال الرسائل.

«يسلم عليكم الإخوة الذين معي»

ولكن أنت قلت (من قبل) «لأن ليس لي أحد نظير نفسي يهتم بأحوالكم بإخلاص» فكيف تقول الآن «الإخوة الذين معي»؟

(ربما يقصد) لأن ليس لي أحد نظيره من الذين معي،

«يسلم عليكم جميع القديسين ولاسيما الذين من بيت قيصر. نعمة ربنا يسوع المسيح مع روحكم» (في ٤ : ٢٢ ، ٢٣).

لقد رفعهم وقوَاهم بإظهار أن كرازته وصلت إلى بيت القيصر. لأنه إن كان الذين في بيت قيصر قد ازدروا بكل شيء من أجل ملكوت السماوات، فكم بالأولى ينبغي لهم أن يفعلوا هذا. وهكذا أيضاً دليل على محبة بولس لهم، وأنه قد أخبر عنهم أشياء كثيرة وقال كلمات عظيمة بشأنهم. لذلك

هو أيضاً قاد الذين كانوا في بيت قيصر لأن يشتاقوا إليهم، حتى إن الذين لم يروهم قط يسلّمون عليهم. وخصوصاً لأن المؤمنين كانوا في ضيق آنذاك، فإن حبه كان عظيماً. والذين كانوا غير متواجدين مع بعضهم البعض، كانوا متحدين سوياً كما لو كانوا أعضاء حقيقية (في جسد مادي واحد). والفقير كان موقفه موقفاً ودياً نحو الغني، وكذلك الغني نحو الفقير ولم يكن هناك ترفع إذ الكل كانوا مُبغضين ومنبوذين لنفس السبب. لأنه كما أن الأسرى الذين يؤخذون من مدن مختلفة يحتضنون بعضهم بلهفة إذ أن بليتهم المشتركة وحدت بينهم، هكذا أيضاً المسيحيون في ذلك الوقت كان لهم حب عظيم لبعضهم البعض، فشركة ضيقاتهم واضطهاداتهم وحدتهم سوياً.

لأن الضيقة رابطة لا تنفصم، وتسبب ازدياداً في المحبة وهي فرصة للتوبة والتقوى. اسمع كلمات داود النبي «خير لي أني تذلت لكي أتعلم فرائضك» (مز ١١٩: ٧١)، واسمع أيضاً نبياً آخر يقول «جيد للرجل أن يحمل النير في صباه» (مرا ٣: ٢٧)، وأيضاً اسمع لآخر قال «يا ابني لا تحتقر تأديب الرب» (أم ٣: ١١)، و«يا بُني إذا تقدمت لخدمة الرب أعدد نفسك للتجربة» (بن سير ٢: ١). والمسيح أيضاً قال لتلاميذه «في العالم سيكون لكم ضيق. ولكن ثقوا» (يو ١٦: ٣٣)، وأيضاً «ستبكون وتنوحون والعالم يفرح» (يو ١٦: ٢٠)، وأيضاً «ما أضيّق الباب وأكرب الطريق» (مت ٧: ١٤). هل ترون كيف أن الضيقة تُمجد في كل مكان، وفي كل موضع تُفرض كشيء نحن في احتياج إليه؟ لأنه إن كان في مسابقات العالم (الرياضية) لا أحد ينال الإكليل ما لم يجاهد ويقوي نفسه ببذل

الجهد والامتناع عن الأطايب، والحياة بحسب قانون وبأسهار وبأشياء أخرى لا تُعد، فكم بالأولى يكون الأمر هنا. إذ من ستذكرونه كمثال (لعدم الضيق) هل هو الملك؟ ولا حتى هذا يحيا حياة خالية من الهم، بل هو مُحَمَّل بضيق كثير وقلق شديد. ليس لكم أن تنظروا إلى تاجه، بل انظروا إلى بحر همومه التي جلبها له تاجه. لا تنظروا إلى ثوبه الأرجواني، بل انظروا إلى نفسه التي هي داكنة أكثر من الأرجوان. لا تنظروا إلى كثرة رجاله الحاملين الرماح، بل انظروا إلى كثرة قلاقله وانزعاجاته. لأنه لا يمكن أن تجد بيتاً عادياً مُحَمَّلاً بهموم كثيرة كقصر الملك...^٤

نحن قد علمنا هذه الحوادث من مؤرخي العالم، لكن إن أردتم سأضيف أمثلة من الكتاب المقدس أيضاً. كان شاول أول ملوك إسرائيل، وأنتم تعرفون كيف هلك بعد أن ارتكب شروراً بلا عدد. وبعده داود وسليمان وأبيا وحزقيا ويوشيا، بنفس الطريقة (اجتازوا أتعاباً). لأنه يستحيل أن يعبر الإنسان هذه الحياة الحاضرة بدون الضيق والتعب وغم القلب. لكن ليتنا لا نجزع من أجل تلك الأشياء التي يحزن لها الملوك، بل من أجل تلك التي نجني منها منفعة عظيمة. «لأن الحزن الذي بحسب مشيئة الله ينشئ توبة لخلاص بلا ندامة» (٢كو٧: ١٠). ينبغي لنا أن نحزن من أجل هذه الأشياء، ولأجل هذه الأشياء ينبغي أن نتألم وتنتخس قلوبنا، فهكذا حزن بولس لأجل الخطاة، وهكذا بكى لأجلهم «لأنني من حزن كثير وكآبة قلب كتبت إليكم بدموع كثيرة»

٤- استقفاض ذهبي الفم هنا في ذكر أحداث مرعبة جرت في قصور الملوك من قتل واعتقال للأقربين ووضع السموم في الطعام وهموم الملك في الحروب وانزعاجه من أحلام الليل المرعبة... وأثرت من باب الاختصار التقاضي عن هذا الجزء.

(٢كو٤: ٤) لأنه عندما لم يكن له سبب للحزن من أجل نفسه، حزن هكذا من أجل آخرين أو بالأحرى هو اعتبر تلك الأشياء (المحزنة) هي أيضاً (محزنة) له على الأقل إلى المدى الذي مضى إليه الحزن. كثيرون عثروا وهو التهاب (لأجلهم)، كثيرون كانوا ضعفاء وهو كان ضعيفاً. مثل هذا الحزن كان حزنًا جيداً وكان سامياً فوق كل فرح دنيوي. إنني أفضل من يحزن هكذا (وأقدره) فوق كل الناس، والله نفسه يصرح بطوباوية ذلك الذي يحزن هكذا ويكون متعاطفاً (مع غيره). إنني لا أبدي إعجاباً كثيراً به في الأخطار (التي يتعرض لها)، بل بالأحرى أعجب به أقل في الأخطار التي يموت فيها يومياً، لكن هذا الحزن لا يزال يأسرني بالأكثر. لأنه جاء من نفس مكرسة لله وممتلئة وداً، جاء من الحب الذي يطلبه المسيح، من تعاطف أبوي وأخوي، أو بالأحرى مما هو أعظم من كل هؤلاء. هكذا ينبغي لنا أن نتأثر وهكذا ينبغي لنا أن نبكي. لأن مثل هذه الدموع مملوءة بهجة عظيمة، إن حزنًا مثل هذا هو الأساس للفرح.

ولا تقل لي: ما الذي يجنبه الذين أحزن لأجلهم من تصرفي هذا؟

ولو أننا لن نفيد أبداً من نحزن لأجلهم، فعلى كل حال سنفيد نفوسنا. لأن الذي يحزن هكذا لأجل الآخرين، كم بالأولى سيفعل هذا لأجل نفسه. الذي يبكي لأجل خطايا الآخرين، لن يجعل تعدياته تمر دون أن يبكي عليها أو بالأحرى لن يخطئ بسرعة. لكن هذا أمر فظيع أنه بينما أمرنا أن نحزن لأجل من أخطأوا، نحن أنفسنا لا نُظهر أية ندامة عن خطايانا ذاتها، بل عندما نخطئ نظل بدون شعور بخطيتنا ونهتم بأي شيء آخر غير خطايانا. من أجل هذا السبب نحن نفرح فرحاً

تافهاً، الذي هو من فرح العالم وفي الحال ينطفئ (ذلك) الفرح ويجلب أحزاناً لا حصر لها. لذلك لبيتنا نحزن الحزن الذي هو مصدر الفرح، وليتنا لا نفرح بالفرح الذي يجلب الحزن. لبيتنا نسكب الدموع التي هي بذار الفرح العظيم ولا نضحك الضحك الذي يجلب لنا صرير الأسنان.

لبيتنا نحزن حزناً ينبع منه راحة وليتنا لا نسعى للترف الذي يتولد منه الضيق والألم. لبيتنا نتعب قليلاً على الأرض، لكيما يكون لنا تمتع دائم في السموات. لبيتنا نصيق على أنفسنا في هذه الحياة المؤقتة لكيما ندرك الراحة في تلك الحياة التي لا تنتهي. لبيتنا لا نتهاون في هذه الحياة القصيرة الأجل لئلا نتأوه في تلك الحياة التي لا تنتهي.

هل ترون كم أن كثيرين في ضيق وغم من أجل أمور دنيوية؟ اعتبر نفسك أيضاً واحداً منهم واحتمل ضيقك وغمك مغذياً نفسك على رجاء الآتيات. فأنت لست أفضل من بولس أو بطرس اللذين لم يدركا الراحة أبداً وأمضيا كل حياتهما في الجوع والعطش والعري. فإن كنت تود أن تقتني نفس الأمجاد معهما، فلماذا تسير في طريق مخالف؟ لو كنت تريد أن تصل لتلك المدينة التي اعتبروا جديرين بها، فسر على نفس الطريق المؤدي إلى هناك.

إن طريق الراحة لا يؤدي إلى هناك، بل طريق الضيق والتعب. الأول رحب والطريق الآخر ضيق. لبيتنا نسير عبر هذا الطريق الضيق لكي ندرك الحياة الأبدية في المسيح يسوع ربنا الذي له مع الآب والروح القدس المجد والإكرام والقوة، الآن وكل أوان وإلى دهر الدهور آمين.

تم الانتهاء من ترجمة تفسير رسالة فيلبي عشية الثلاثاء ٢٨ يونيو
١٩٩٤م الموافق تكريس كنيسة العذراء في فيلبي.

لم يستطع القديس يوحنا ذهبى أن يخفي إعجابه الشديد بالقديس بولس فبعد أن قرأنا كتابه عنه ووصفه بـ "الرسول المحب والمجاهد الشجاع" نجده يبحر في رحلة طويلة عبر رسائله يستخلص منها دروساً وتعاليم في صورة جواهر لاهوتية وروحية عميقة، وهو هنا في عظاته لا يقدم تفسيراً تقليدياً بقدر ما يحول رسائل بولس إلى خطابات محبة لأبنائه وللأجيال المتعاقبة على مدى الزمن.

قالوا عنه

"عظيم في كتاباته الدسمة في مواضيع كثيرة أهمها عظاته عن التوبة ولاهوت المسيح وتفسير الكتاب المقدس"

الأنبا بطرس - الأسقف العام بالكنيسة القبطية الأرثوذكسية

"صوت يتردد صده منذ أكثر من ألف وستمئة سنة ولا زالت طاقته الروحية تتدفق عبر القرون. كتاباته أزهار روحية تزهر بألوانها في البستان الروحي"

الأنبا يوحنا قلته - النائب البطريركي للأقباط الكاثوليك

"شجاعته منقطعة النظير جعلته لا يعبأ باضطهاد الإمبراطور الروماني له واستبعاده من مكانه كأسقف القسطنطينية. كتاباته تعزز بها الكنائس الأرثوذكسية الشرقية والكاثوليكية والأسقفية"

المطران د. منير حنا أنيس

مطران الكنيسة الأسقفية بمصر

